

ظلال المدافع

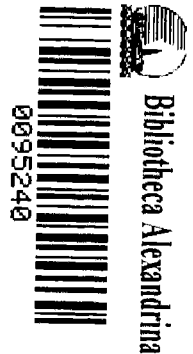
١

السقوط

٥ من يونيو عام ١٩٦٧



صباحي عبد الله



ظلال المطاف

١

٥ من يونيو عام ١٩٦٧

السقوط

مبعض محمد عبد الله البطار

إهداء
إلى روح أمي..
التي منحتني الحنان..
فعلمتني.. صدق الكلمة..

مراسلات المؤلف:

الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣٩ ش بورسعيد - السيدة زينب

القاهرة

ت: ٣٩٢٧٣٦١

مقدمة الكتاب

لقد كتبت تلك المقدمة ألف مرة.. وفي كل مرة أمزقتها..
 إن هذا الكتاب كتب عشرات المرات.. مزقته.. أحرقته.. لعنت صفحاته ألف لعنة..
 خطت سطره الأولى.. ولم تزل دماء الشهداء ساخنة.. وأنين الجرحى المحتررين
 تملأ أجواز الفضاء لتصل إلى الله تشكو إليه.. يتردد صداها في أذني كالمطارق الجبارة
 العملاقة.. فأمضى قلقاً عصيباً لا يقر لي قرار ولا أستريح في مقام..
 كتب هذا الكتاب أول مرة على ضوء [لمبة جاز] ضياؤها شحيح.. يتراقص في
 ارتعاش مريض.. داخل خندق صغير أثناء حرب الاستنزاف.. في منطقة كبريت.. على
 البحيرات المرة.
 ومن كان يهتم بالادب أو التسجيل!! والتذكير بهول المأساة وقتئذ.. لا أحد.. فقبعت
 الأوراق كعظام الموتى أكلت أطرافها الأيام.. وإنمحت أحرفها..
 وبعد وقف إطلاق النار.. وللغربة زادت آلامى الجسمانية حتى احتار أطباء القوات
 المسلحة في تشخيص الحالة.. وامتدت بى لىالى العذاب والاغتراب بين مستشفى
 ومستشفى.. ليقرر الجيش أخيراً عدم صلاحيتى للعمل كضابط..
 لتشتعل نيران حرب أكتوبر ٧٣.. وأنا لازلت أتوكأ على عصا.. ولسبب خارج حدود
 المنطق والعقل والتعليل.. ألقيت عصاتى.. توجهت إلى حيث قائد القوات لأعتصم أمام
 باب مكتبه لا أغادره إلا إذا سمح لى بقيادة كتيبتى التى عشت بها عمرى وشهدت فى
 رحابها مأساة ٦٧.. ومعاناة حروب الاستنزاف.. ثم يُطلب منى كتابة إقرار
 بمسئوليتى الكاملة عن حالتى وأى تبعات أو أثار صحية من جراء قيادتى كتيبة وقت
 الحرب.. وكتبت ذلك الإقرار.. ليسند لى قيادة هذه الكتيبة فى أتون النار والدمار..
 والدخان.. كنت أول.. وآخر ضابط فى تاريخ الجيش المصرى يقوم بهذا العمل.. يلقى
 بنفسه طائعاً مختاراً فى أتون حرب الجيش ذاته أبعد عنهما..
 هل كنت بطلاً.. هل كنت يائساً أنشد الانتحار.. أو ممثلاً هزلياً ينشد دور البطل
 وهو عاجز.. حقيقة الامر لم أكن شيئاً من كل ذلك.. ولم أدع يوماً.. ولن أدع أننى بطلاً
 مغواراً.. كان الآلاف غيرى يجرون ويمرحون.. ويسوقون الأسباب والمعارف لنيل
 معاش كبير.. أو تعويض مادى.. وكنت رب أسرة وأباً لطفلتين ولم أفكر لثانية واحدة فى
 كل ذلك..

سلوكى آنذاك لم يكن مبرراً.. لم يكن وليد تفكير منظم.. أو مرتب.. أو وفق خطة مسبقة كان تحت ضغط طاقة من الألم والحزن والرغبة العارمة في الثأر.. رغبة تتضائل أمامها كل أمنية.. أو أمل.. أو مطمع مادي دنيوى زائل.. زائل فعلاً.. فأين راح الأحباب أين ذهب محمود.. وشكرى.. وإبراهيم عثمان.. ورأفت عطية.. وفيصل.. وحازم.. أين كل هؤلاء الزملاء.. لقد ماتوا.. ماتوا دون سبب.. كان أملى أن أقتص من القتلة.. أو أصعد إلى الزملاء..

وضعت الحرب أوزارها.. بين شد وجذب.. انسحاب.. وحرب.. ولم أصدق يوماً.. يوماً واحداً.. [ولن أصدق] أن إسرائيل تنشد السلام فعلاً..

حملت أوراقى إلى جهات الدولة المسئولة عن الطبع.. وبعد شهور طويلة قيل لى..
-.. ما هذا الذى كتبته ونحن نسير فى مسيرة السلام.. إنك تكدر صفو السلام المنشود..

رجعت إلى دارى وحملت النسخ كلها وألقيت عليها البنزين وأحرقتها النيران.. وتقدمت للالتحاق بكلية القادة والأركان.. ورغم أنف القوانين والذين يطبقونها.. تقدمت لامتحان المسابقة وقد سمحوا لى بدخول الامتحان على أمل.. أن أرسب.. وللأسف ظهرت النتيجة وكنت الأول على سلاحى كله..

الحرب أنستنى المرض والمستشفى والعصا.. أصبحت سليماً قوياً واقفاً على قدمى رشيقاً أعمل عشرون ساعة يومياً.. وتخرجت.. وأصبحت دارساً مؤهلاً.. مثقفاً من أعلى أكاديمية عسكرية عربية على الإطلاق..

ولأسباب عسيرة النشر.. لم أكن أَرْضى إلا بما هو صحيح.. فتذكر القادة مرضى القديم وأحالونى إلى المعاش.. محروماً من كل مزايا الزملاء.. التى يقررها القانون بل صدر قانوناً كأنه يحاربنى وحدى ويحرمنى من العمل لأقيم أود أسرتى.. وأيضاً.. لست نادماً.. لست نادماً على شىء أبداً..

تخلصت من خدمة القوات المسلحة أو تخلصت منى.. وعدت إلى دارى.. أعيد كتابة مخطوطى القديم.. وأكتب.. وأكتب.. وأكتب..

لأجد الدنيا من حوالى قد تغيرت.. حتى بدوت أمام أسرتى وأهلى وأصدقائى كالمومياء التى تتجلى للناظرين.. وتنتمى إلى ماضى نساها الناس.. التكالب على المال ملا

على الناس وجدانهم.. و.. و.. انهيار.. انهيار..

حملت أوراقى مرة أخرى لدور النشر.. التى رفضت كلها التمويل.. وقالوا لى: إدفع
التكاليف!!.. وأنا لا أملك شيئاً.. غير.. أوراقى.. وثقافاتى.. وفنى..

والحقيقة.. حقيقة المأساة.. جذور المجزرة وأبعادها.. إيقاعها المميت الرتيب.. ألا
تستحق شيئاً.. قيل لا.. التمويل..

عدت أدرأجى إلى جهات الحكومة.. ولما قرأ الناس.. قيل هل يمكن أن يكون
الإسرائيليون بهذه الوحشية.. إنك تدمر مسيرة السلام.. فلا يمكن أن يقتلوا الأسرى..

وأخيراً اعترف أحد القتلة الإسرائيليين.. وأخبر العالم بتفاصيل كيف ذبحوا الأسرى
المصريين العزل من السلاح.. والامل.. والسكينة.. حين يقول ضابط مصرى لقد قتلوا
الأسرى.. يكذبه.. المسئولين.. ويكون معوقاً لمسيرة السلام..

وحين يقر بالحقيقة العدو.. ذاته.. فإنه عدو جدير بالاحترام.. والتصديق.. وهأنذا..

أبعث الميث من الأدراج.. وأنفض الغبار عن الصفحات.. وأشهر أوراقى بين يدى
المصريين.. حتى لا ينسى مصرى ما حدث..

قد تكون تلك أول مرة.. يكتب فيها عن المأساة.. من السفح.. سفح التنظيم
العسكرى المصرى.. لمقاتل بدء حياته بين النار.. والدم.. والدخان.. وصرخات الألم
المفزع المتتابع..

لقد كانت حرب ٦٧ هى نقطة الانقلاب فى حياتى بصفة خاصة.. وللمصريين بصفة
عامة.. وللعرب والعالم..

قبل الحرب كنت أعيش أيامى.. مفتتحاً على الدنيا أنهل منها حظى.. وأسرف فى
دقائقها وثوانيتها فتوتى وعنفوانى وشبابى.. بعدها دهشت لما حدث.. كزلال عظيم..

مازالنا الأرض المصرية يتحرك منها البنيان الاجتماعى والثقافى والسياسى
والاقتصادى.. كتوابع مهولة.. لهذا الزلزال المروع.. ولا زالت الدهشة تتملكنى
والتساؤلات تعصف فى رأسى كالأعاصير.. فاقرا التاريخ.. والفلسفة.. والفن..

والسياسة.. وكل علوم الإنسانية عسانى أفهم وأستوعب.. وأستقر.. ولا أنا أستقر..

ولا وطنى يستقر..

إننى كمواطن يحب هذه الأرض.. ويعشق هذا الوطن.. وينتمى إلى هؤلاء البشر..

أعظم ما خلق الله من عبقرية يجسدها المصرى لو أتاحت له الفرصة.. واجب على نشر

هذا الكتاب.. غير نادم وغير أسف على شيء قد حدث لى شخصياً أو قد يحدث.. راجياً من الله.. أن يكون تذكره.. ورده.. وعوده إلى تصور المأساة..

كنت أتساءل في غيظ وكمد عن كنه بعض قيادات مصر في تلك الفترة السوداء بالقوات المسلحة أو الوزارات والمجلس التشريعي.. أولئك الذين هم فعلاً أشباه رجال ومارجال.. أقارن بينهم وبين قادة هزمت دولهم في حروب شرسة كاليابان وألمانيا.. انتحر القادة العظام انتحاراً جماعياً.. لشعور كل منهم بأنه خذل بنى وطنه ولم يظفر بالنصر لهذا الوطن فلا يستحق الحياة..

أما أشباه الرجال من قادتنا أصحاب الحناجر الحميرية والأكف الغليظة والأعناق الأغلظ.. فقد هربوا من أتون الحرب أخذين معهم أبنائهم وأقاربهم.. وراحوا يتقلدون المناصب الرفيعة.. يتقلبون في الحرير والكراسى الوثيرة..

ترى؟؟ هل كان العيب في هؤلاء النفايات البشرية؟؟

بعد رحلة الحياة.. وجدت أن هؤلاء هم النتائج الطبيعي لنظام الحكم السائد.. ولم يكن وارداً في خاطرهم يوماً خوض غمار حرب جدية.. ناهيك عن التخطيط والتنظيم لها ثم قيادتها.. فهم بحكم التكوين والتكوين.. منسلخون تماماً عن واقعهم شاخصه أبصارهم دوماً إلى ولى نعمتهم الذى تعطف عليهم بالمنصب والجاه والنفوذ.. يحققون له إيماءاته.. يشنفون أذانه بما يحبه ويرضاه..

وبالتالى فلم تؤثر فيهم المأساة ولم تزلزل كيانهم.. فلم يروا زميلاً مقتولاً ولا صديقاً مبقور البطن يلفظ أنفاسه.. فقط سمعوا عنها.. كالمشاهدين في قاعات السينما.. سكت عنهم النظام الذى أفرزهم فلم يقدمهم إلى المحاكمة.. وأكاد أقسم بأن تلك المجزرة المأساة لو وقعت في دولة أخرى.. لصلب الشعب قاداته في الميادين العامة..

إن شخوص ووقائع هذا الكتاب.. حقيقية.. حقيقية تماماً.. لا زال يعيش بيننا كثيرين ممن وردت أدوارهم.. لكن الأسماء مستعارة.. فقد تمس سطور زميلاً يعيش.. أو استشهد وواراه التراب..

والله ولى التوفيق

صبحى محمد عبد الله البيطار

١٩٩٠/٣/٢٥

الفصل الأول

الطريق إلى الفن..

متهدج الانفاس مشئت العقل بالكاد استطاعت أقدامى أن تحملنى إلى حجرة
الاستراحة الصغيرة.. بالكاد استطعت أن أمد أطراف أصابعى لأقبض على أكرة الباب..
فتحت الحجرة الصغيرة التى تتسع فقط لسريران معدنيان صغيران لا يتجاوز
عرض كل منهما الـ ستون سنتيمراً... موضوعان إلى جوار الحائط متقابلين فلم يتركا
بينهما فراغاً ألهم ممر بعرض خمسون سنتيمتراً وبطول الحجرة..
انبعث شىء كالغناء من جهاز راديو عنيق ربط حوله زوج من حجارة البطارية
بواسطة خيط مطاطى أكبر حجماً من الراديو ذاته..
ألقي إبراهيم المجلة من يده ورمى نظيرة متسائلة..
-.. إيه الزعيق ده.. كان التسبيح ده ليك إنت ٩٩..
لازالت رأسى تقطن.. فلا أكاد أسمع إلا صدى التقريع الذى نلتته من الرائد ظريف
قائد الكتبية الذى لم أراه مذ جاء إلينا.. هزرت رأسى موافقاً إبراهيم.
-.. ليه.. عملت إيه ٩٩..
-.. أبداً.. دخلت عظمت.. ولسة ها أقول ملازم محمود مختار.. وراح طالع فى طلعة
رهيبة يا أخى.. خلانى مش قادر أنطق..
أخذ إبراهيم فى الضحك.. ضحكات متراصلة.. أدمعت عيناه.. وصدره يعلو ويهبط..
قائلاً بين الشهقات:
- إضرب المربوط.. يخاف السايب..
من خلال الضحكات استطرده.. وأنا وإنت يا بنى المربوطين فى الكتبية دى..
أنا بقالى أربع شهور غايب.. ولسة مابقاليش دقيقة..
ألقيت بنفسى على السرير المواجه لإبراهيم.. ارتطمت رأسي بالحائط.. فارتكزت على
مرفقى.. وساقاى مدلاه من السرير..
-.. عشان تبقى تسمع كلامى.. أهو لى سمعت كلامى ماكانش ده حصل..
صحت معترضاً: .. يا بنى إنت قلت حاجة..
ده أنا يا دوب لسة حاطط شنتطى وواخذك بالحضن.. وعلى طول قلت أروح أقدم

نفسى للقائد الجديد..

-.. يا أخى الغربية إننا دفعة واحدة.. وأصحاب.. وجينا الوحدة دى مع بعض
ورغم كده.. الى حصلك ده من شوية.. حصل معايا برضه.. وب نفس الشكل تقريباً..

-.. يا أخى الواحد بقى فى نص دومه.. صمت قليلاً ثم استطردت:

اتمسح بأخوك الأرض يا أبو خليل..

-.. ولا يهملك يا مخ.. كلنا لها..

شردت بعيداً.. أصبحت كلمات إبراهيم تداعب حافة شعورى.. ووعى.. فلا أنا
منصرف عنه كلية.. ولا منتبهاً له انتباهاً كاملاً.. شئ إنتابنى كالملل.. وما هو بالملل..
وكما زادت كلمات إبراهيم تدفقاً.. كلما زادت المسافة بينى وبينه.. ارتدت رغماً عنى
إلى القاهرة.. صور كومضات البرق تملأ صفحة الخيال.. تشدنى.. وما بين لحظة
وأخرى تصطدم عيناى بالحائط الكالح أمامى.. فارتد بسرعة..

-.. من يوم ما جه الرائد ظريف وهو على الحال ده.. كل حاجة غيرها.. قائد السرية
الأولى نقله الثانية.. العسكرى محمدى.. بدال العسكرى حسنين.. صول الأفراد.. خلاه
صول التعيين.. عامل رعب لكل الضباط قبل العساكر.. بس يا خى الى مجنى.. إنه
ما بيديش جزاءات..

اختفى صوت إبراهيم فجأة.. تنبعت على صوت ارتطام كعب حذاءه الثقيل ببلاط
الحجرة.. شاخطاً إلى الباب.. حولت رأسى إلى حيث ينظر.. كان النقيب سمير واقفاً يسد
فتحة الباب الضيقة.. وقد يكون من المناسب وصف النقيب سمير..

قصير القامة بالنسبة لحجمه العام.. قمحى اللون.. يمتاز بكثرة شحم أسفل ذقنه..
ذى رقبة غليظة تحملها كتفان ضيقتان.. لا يتناسب مع امتلاءه ردفه.. وتلك الأرداف
لا تتناسب أيضاً مع نحول ساقيه وذراعيه.. فى الثلاثين من عمره.. غزت جيوش الشعر
الابيض رأسه مبكراً.. حليق الذقن دائماً.. يفوح من خلاياه عطر (الأولدسبايس)..
كان مرجعاً لا يأتبه الخطأ من أمامه أو من خلفه فى أسعار كل شئ قابل للبيع
والشراء.. وقد تكون أشهر صفاته على الإطلاق هى الصبر.. وطولة البال..

لقى على النقيب سمير نظرة متهمكة.. فقفزت واقفاً إلى جوار إبراهيم.. متزاحمين فى

الحيز الضيق.. فأشار بيده أن أقرب.. وما أن اقتربت مواجهاً له. حتى ابتدرنى موبخاً..

-.. إيه يا ح الضابط محمود.. كده تكسفنا وتقصّر رقبتنا قدام القائد الجديد؟
-.. يا فندم.. عاوز أعرف.. أنا عملت إيه؟؟

أشار بيده أن أصمت بشكل رتيب كسول.. وأخذ يفتح عيّناه ويفلقهما مع رفع يده اليمنى وخفضها في تتابع ألى..

-.. عيبك يا ح الضابط محمود.. إنك تبقى غلطان وتحاول تبرر غلطك.. كنت أعلم أنه إذا ما بدأ النقيب سمير في الكلام مع ضابط صغير.. فلن يتوقف أبداً.. وكنت متعباً.. مهوداً من السفر.. ستة وثلاثون ساعة بلا نوم.. استعداداً للسفر ثم رحلة القطار من القاهرة إلى العريش.. ثم السير حاملاً حقيبتى الثقيلة على الأقدام من محطة العريش إلى معسكر الوحدة.. فقررت أن أتكم أنا أولاً.. وليكن.. ما يكون..
-.. أنا عملت إيه.. يزعل الرائد ظريف بالشكل ده؟!؟

لقى النقيب سمير علينا موعظة طويلة.. بينما إبراهيم يقف متمللاً ضجراً وكلماً أحس سمير بقلقتنا انبسطت أساريه.. ورويداً.. ورويداً.. بدأت أنسى وجودى.. ووجود سمير وإبراهيم.. وأخذت أركز تفكيرى في لا شىء.. ومن خلال الانفصام عن الوجود خيل إلى أنه توقف عن الكلام.. فبادرته بنفس السؤال:

-.. يا فندم عاوز أعرف بالضبط.. أنا.. عملت إيه؟؟

رفع يده اليسرى مفرودة الأصابع وبيده اليمنى أخذ يحصى أخطائى..

-.. أولاً.. حضرتك دخلت مكتب القائد دون التسلسل القيادى..

-.. بس يا فندم حضراتكم كنتم كلكم في اجتماع..

-.. ثانياً.. دخلت مكتب القائد بدون كاب.

كانت ثانياً هذه كصاعقة وقعت على رأسى.. في لحظة سريعة نظرت خلفى فوجدت الكاب اللعين قابلاً يكاد يسقط ما بين السرير والحائط.. وحينما وجدنى صامتاً انبرى منتصراً قائلاً:

-.. شفت.. سكت إزاي.. غلطان.. غلطان مش كده؟؟

زادت ابتسامته اتساعاً مع صمتى فاستطرد.. ردد.. غلطان ولا.. لا؟؟

.. غلطان يا فندم..

..ليه؟؟

ليه؟؟ سؤال غريب.. مهما انتحلت من أعذار فمصيها المناقشة الدائرية التي لن تنتهى.. والحقيقة إننى أول من يعلم أنه لا يمكن تبرير ذلك الخطأ إلا بسبب واه ضعيف.. فهذا الكاب يزن ثلاثة أرباع الكيلو جرام.. وحرارة الجو لا تطاق.. وأنا مجهد مكدود.. حضرتت توأ من بين أهلى بعدما مكثت بينهم أربعة أشهر متصلة.. بعدما غبت عنهم خمسة أعوام.. فكنت حزيناً غير قادر على التركيز.. فرددت باستسلام..

..غلطة..

.. ثالثاً.. رفعت إيدك بالتحية العسكرية دون لبس الكاب..

مرة أخرى الكاب.. استطرد النقيب سمير.. ردد.. غلطان ولا لا..

.. غلطان..

وعلى غير العادة أو التوقع كان اليوم مشغولاً.. رغم إنفاقه ساعة كاملة فى هذه «الداخلية المركزة».. فأنهى المحاضرة قائلاً:

.. القائد بيحذرك يا محمود.. غلطة كمان.. والعواقب إنت مش قدها.. ما تنساش إنك لسة ملازم.. يعنى ضابط كده.. وكده.. اسمك مكتوب فى كشوف الضباط بالقلم الرصاص.. هزة واحدة كده.. باستيكة.. هوب.. تطيرك..

.. حاضر.. آخر مرة يا فندم..

استدار النقيب سمير.. فتنفسنا الصعداء.. إلا أنه دار على عقبيه قائلاً: ..

— على فكرة.. النهاردة بس تنام هنا.. ومن بكرة الصبح تروح تستلم سرية الرشاشات الثقيلة.. وقعت على الجملة وقع ثقيل.. فلقد أنفقت أربعة أشهر بالقاهرة أدرس المواصفات السلكية واللاسلكية.. لأصبح ضابط إشارة واستطلاع الكتيبة.. فلماذا كانت الدراسة إذن؟؟

.. بس يا فندم أنا أخذت فرقة إشارة ولسة راجع النهاردة..

.. دى أوامر القائد..

رددت الردة الضحكات المنتشية الخارجة من أعماق جمع مبتهج..
-.. عن إذنكم أقوم.. أحضر العشاء..

قالت عنايات تلك الكلمات ورفعت جسداً مترهلاً.. يبرز في مؤخرته ردفان ضخمان قويان.. والآن.. قد يكون مناسباً أن تلقى نظرة عامة على هذا الجمع الذى لا يحمل للدينا همًا..

عنايات هانم فى أواخر الثلاثينيات.. بيضاء البشرة.. شقراء الشعر.. ذات عينان خضراوتان ووجه أملس به مسحة من جمال أخذ فى الرحيل.. وجسد كما سبق القول بدين.. وإن كانت رشيقة الحركة كالغزال.. رحل عنها زوجها منذ بضع سنوات ورثت وابنتها عنه قطعة صغيرة من الأرض الزراعية بإحدى قرى الوجه البحرى.. وإن كان أخ للزوج الراحل الأستاذ كمال هو المتولى شئون تلك التركة المتواضعة.. ولما كانت عنايات هانم لا تفقه شيئاً فى إدارة أعمال المزارع.. فلقد ألت التركة عملياً إلى الأستاذ كمال.. مقابل دفع مبالغ دورية كريع إلى أرملة أخيه.. وبالتجربة تعلمت عنايات أن المبلغ الذى تجود به الأرض لا يتوقف على أسعار الحاصلات وأسعار الكيماوى والبذور.. بقدر ما يتوقف على رضا كمال.. لذلك فقد كان دوماً يقابل من أسرة شقيقه الراحل بأسمى آيات الترحاب..

ورغم ابتسامة عنايات هانم الدائمة.. وضحكاتهما التى تزلزل الجدران.. إلا أن هناك شيئاً فى بريق عينيها.. يشع فيقع بين الناس مواقع شتى.. ولم يستطع أحد قط من معارفها الكثيرين تأويل ذلك الإشعاع بشكل قاطع.. النائم أحياناً.. والناعم أحياناً أخرى.. ربما كان حزن عميق على الفقيد الراحل.. أو على أيام العز التى ولت ولن تعود لكنه كان شيئاً أعمق وأدق.. حزن مشوب بالسخط.. سخط على ذلك الراحل العزيز والذى كان عليه ألا يرحل.. ويتركها فى زهرة الشباب..

أما الأستاذ كمال.. أو أونكل كمال.. كما تناديه ابنة أخيه سحر.. فهو جد مختلف أسمر الوجه.. غزير الشعر.. أجعده.. حليق الشارب متأنق إلى أبعد حد.. خفيف الحركة.. ذى عينان سوداوتان.. تتحركان فى محجريهما تعويضاً عن حركة رأسه.. بينما تشعان بريقاً يلخص حياة الفلاح النازح إلى المدينة لتلقى العلم والتحصيل.. بما فى

ذلك من الطيبة المشوبة بالدهاء.. المختلط بالمكر الفطرى..
كان يتمنى أن يكون ضابطاً للشرطة.. إلا أن إصابته بعمى الألوان كانت سبباً في
رسوبه طبياً حينما تقدم.. للكلية.. ولقد تحول إلى كلية الحقوق ومع ضالة راتب
موظفى الحكومة.. فقد تضاعف أيضاً اهتمامه بالتخرج منها.. وكرس كل وقته
للإشراف على الأراضى الزراعية.. والسفر إلى القاهرة لقضاء حوائجه البريئة.. وغير
البريئة..

أما عن علاقته بعنايات هانم فهى جديرة بالتأمل..
تزوج الشقيق الراحل من عنايات هانم رغم أنف الأهل بالبلدة هناك.. لذلك فقد
ترسب في أعماقه ضرورة رفضه لها.. رفضه لانتسابها إلى أسرته المحافظة.. ولقد اتهم
الفقيد بالبلبة والسذاجة.. لوقوعه في حبال عنايات هانم ومن ثم زواجه منها.. ولقد
تداولت الشائعات قصة فحواها أنها غررت به.. فورطته.. فلم يجد مفرأ غير الزواج
منها.. ولقد كانت - في زعمهم - سحرى ثمرة هذا التغير..

وعلى الرغم من أن عنايات أبدت الاهتمام بكمال أثناء حياة أخيه.. وتأكدته من حب
أخيه لها.. ورغم أنه يكاد بقسم بأنه لم يرى عليها ما يشين.. إلا أن هناك حاجزاً غير
مرئى بين كمال من جهة.. وبين عنايات هانم وسحر ابنة أخيه من جهة أخرى.. وحينما
مات الشقيق.. سقط هذا الحاجز سقوطاً جزئياً.. مع سقوط تركة أخيه كلها بين يديه..
الأرض.. والزوجة.. وابنة الزوجة.. ورغم ذلك لم يغادره إحساسه بأنه يقطع جزء من
لحمه مع كل دفعة نقود يدفعها إلى عنايات.. مع شعور دائم بالدهشة حينما تقع عيناه
على سحر.. وقد تحولت إلى زهرة ربيعية المفروض أن تكون في محل ابنته ذلك
الإحساس بالبنوة المشوب بالحنان والإيثار.. أبداً لم يتغلغل إلى وجدانه..

أما ثالثهما فقد كان حسن بك أو أونكل حسن..

رجل ناهز الخمسين من العمر.. تزوج شقيقة عنايات.. شوشو ذات الخامسة
والعشرين ضدان تلاقيا ضد قانون الطبيعة.. إلا أن قوى التجاذب بينهما كانت شديدة
لدرجة حولتهما إلى وجهى عملة.. إن كانت شوشو هى الوجه.. كان حسن بك هو
خلفية الصورة.. التى تعطى لها الظلال والمعنى..

حسن بك طويل القامة.. فارغ الطول.. شديد النحافة.. خفيف الشعر.. غائر العينان

يصبغ شعيرات رأسه بصفة مستمرة.. وبصفة مستمرة أيضاً.. يظهر في منبت الشعيرات اللون الأبيض.. شديد الثراء.. وصل في عمله إلى درجة المدير العام.. خدوم يبذل أقصى جهد في خدمة الآخرين.. بشرط معرفة الطريق إلى إقناعه.. ولم يكن هذا الطريق.. إلا شوشو.. وكان يملك من الصفات العقلية والنفسية ما يجعله دائماً سعيداً هادئاً.. هدوء كامل وإن تزلزل العالم.. عقل بارد يفكر بهدوء ما الدنيا لديه إلا شيك وبئك.. على قدر رصيدك إسحب شيكات.. يصرفها البنك على قدر الرصيد لا أزيد ولا أقل..

بهذه العقلية وهذا المنطق تزوج شوشو.. فالإنسان لديه شكل.. ومضمون.. المضمون يعنى الفكر والطموح.. وغرائز الحب والكراهية..

أما الشكل فهو الغلاف.. المقاييس الجسمانية.. والقيم الجمالية.. ومستويات الأنافة.. وزواجه من شوشو أقنعه أنه يملك الشكل.. يرعاه.. وينفق عليه ببذخ.. أما مضمونها فلا يملكه.. ويعرف تماماً أن رصيده لا يسمح له بغير امتلاك الشكل..

— الإنسان عمره فيه كام يوم عشان يعيش في نكد؟؟

كان ذلك شعاره الدائم.. بل الجملة الأثيرة لديه.. يقولها كتقرير حقائق.. ألف حقيقة.. وحقيقة.. فلا شيء في العالم يساوى الحياة ساعة في نكد؟؟

إن جرس الباب.. ولا زالت الجدران تردد صدى ضحكات الجمع المبتهج.. توجهت عنايات هانم إلى الباب بسرعة في خطوات لها دبيب.. دلفت سحر.. متهدجة الأنفاس من أثار صعود السلم قفزاً.. وتوجهت إلى أمها بالسؤال:

— هو عندنا ضيوف يا ماما..

— مين يا عنايات.. انبعث صوت حسن بك المتمهل..

— مين يا عنايات.. مين جه الساعة دى؟؟.. تعالت تساؤلات كمال.. ربت عنايات

كتف ابنتها في حنان وقالت هامسة..

— ده عمك كمال وأونكل حسن.. ثم رفعت صوتها..

— أبداً يا جماعة.. دى سحر..

دلفت سحر إلى الأنترية..

.. أنا سحر يا عمى.. مساء الخير يا أونكل.. دون كلام.. أدار حسن بك خذه إليها
فمالت عليه تقبله محدثة صوتاً مسموعاً.. ثم ألقت جسدها النحيل على فوتيه وراحت
تشارك وجدانياً الضاحكان..

.. ما تتكلم يا حسن بك.. سكت ليه؟؟ فأشار حسن بك من طرف خفى إلى سحر..
فاستطرد كمال..

.. هى فيها حاجة دى.. والنبي لا تكمل يا حسن يا بيه.. ثم رفع عقيرته منادياً.. يا
عنايات.. عنايات.. هرولت عنايات أتية من المطبخ ممسكة بيدها فوطة صغيرة تجفف
يديها.. فأدار حسن بك رأسه إلى عنايات بهدوء..

.. عاوز يسمع يا ستى حكاية شوشو واللى عملته الجمعة اللى فاتت وإحنا رايعين
الفيوم..

كالبالونات المنتفخة انفجرت كل من عنايات وسحر فى ضحكات متصلة دمعت لها
العيون وراحتا ترددان.. ياه.. ده كان حته فصل..

.. والنبي يا عنايات خليه يحكى.. إلح كمال..

فأخذتا ترجوان حسن بك أن يقص عليهم النادرة التى وقعت الأسبوع الماضى فى
حضورهما وتنازل حسن أخيراً وأخذ يقص:

.. كنا يا سيدى يوم الجمعة اللى فاتت رايعين الفيوم.. وخالتك شوشو يا سيدى
ماسكة الكولمان وهات يا قربة.. تسيب الكولمان تمسك الترمس.. تسيب الشاى تاكل
برتقال.. المهم قبل ما نوصل الفيوم كده بثلاثين كيلو.. طلبت منى الوقوف علشان
تعمل تواليت..

انفجر ثلاثتهم فى ضحكات متواصلة.. فى حين راح حسن بك يكبت شبح ابتسامة
تولد على شفثيه.. هذأت الضحكات وانتظروا أن يكمل حسن بك.. مستعدين للضحك
من جديد.. استطرد حسن بك..

.. قلت ادخل الصحرا.. أبص يمنى.. أبص شمالى.. الأرض غرز.. والعرييات
رايحة جاية.. جاية رايحة.. أقول لها يا شوشو امسكى نفسك.. أبدأ.. فاضل ربع ساعة
ونوصل.. أبدأ تتحایل عليها عنايات.. تتحایل عليها سحر.. أبدأ.. تواليت يعنى تواليت..

أعمل إيه؟؟ رحت راكن العربية على جنب وفتحت غطاء الموتور كأنها عطلانة.. ووقفت عنايات على جنب وسحر على الجنب الثانى.. وأنا وقفت أراقب الطريق.. وخالتك شوشو راحت مقرفصة فى دواصة العربية وعملتها.. بعد ما خلصت جينا نركب.. العربية يا أبو كمال.. عايمة عوم.. قاطعته سحر وقد أمسكت أنفها قائلة.. والريحة.. إف..

انفجر الجميع فى نوبة جديدة من الضحك.. ومن خلال الدموع الضاحكة خرجت كلمات تطلب المزيد.. هىء.. وبعدين..

إبدأ.. رحت فاتح شنطة العربية وواحد كوز.. وشمرت كامى.. وفضلت أنزح المية نزح.. واللى زاد وغطى بقى.. واحد سواق تاكسى وقف جانبى وقاللى: أى مساعدة يا باشمهندز.. -ممثلاً تلك الكلمات بالصوت والحركة- إنخرط الجميع مرة أخرى فى الضحك.. ثم استطرد.. وكان حته يوم..

-.. أما شوشو دى.. عليها فصولات.. ردد كمال تلك الكلمات ولا زال يتخيل شوشو جالسة القرفصاء.. فى حين حسن بك مشمرأ عن أكماله ينزح ماء البول بكون.. نهضت عنايات.. وجلس الباقون.. كمال يدخن فى هدوء.. وحسن بك يستحلب شيئاً فى فمه بلذة كبرى.. وسحر.. تفكر فى لحظاتها الأخيرة.. لحظات وداعها.. لحمود مختار.. بصوت مرتفع أعلنت عنايات هانم تمام تجهيز العشاء.. تدعو الضيوف.. نهض الجميع فى تكاسل.. حتى التقوا جميعاً حول منضدة الطعام.. نظر كمال بطرف عينيه إلى ابنة أخيه.. وهو يلوك مضغطة.. ومن خلال فمه النصف ممتلئ تساءل بلا اهتمام..

-.. كنتى فىن يا سحر؟؟..

تبادلت سحر مع أمها نظرة سريعة.. وقذفت بقطعة من اللحم إلى فمها.. تمضغها لتعطى لنفسها فرصة للتفكير والرد.. دارت عينا عنايات هانم فى محجريهما بين حسن بك وكمال.. وقررت بكلمات سريعة:

-.. كانت مع تحية صاحبته.. بتوصل أخوها المحطة..

بدأ الاهتمام يعلو وجه كمال.. رويداً.. رويداً.. في حين بدأت أذننا حسن بك في
الارتفاع لتتبع الحديث الدائر..
-.. أخو تحية.. مين ده؟؟
-.. ده.. ضابط مؤدب قوى.. وابن حلال.. من عيلة كلها ناس طيبين..
-.. عمرى ماشفته؟؟
ضحكت عنايات ضحكة مفتعلة وأردفت:
- حاتشوفه فين بس يا كمال؟؟ ده شغله في العريش.. ويادوب إجازة كام يوم كل
شهر..
- طيب يا عنايات.. (تناول كوباً من الماء وأخذ يرشف منه بصوت عالى)..
-.. سحرليه توصله.. هو من بقية عيلتنا؟؟
-.. الله يا كمال.. جيران.. أخته كانت رايحة توصله محطة القطر.. راحت معاها
سحر.. فنيها إيه دي؟؟
رفع حسن بك رأسه ناظراً إلى كمال.. الذى صمت عن الكلام..
-.. بقولك إيه يا بو كمال..
-.. الأمر يا حسن بك..
-.. هى سحر.. لما وصلت الضابط ده.. رجعت ناقصة رجل.. وللا إيد؟؟
-.. لا..؟؟
-.. خلاص.. يا أخى.. حاتنكد على نفسك وعلينا ليه؟؟ هو العمر فاضل فيه كام
يوم يا بو كمال؟؟
وانتهزت عنايات نجدة حسن بك فأنبرت تقول..
-.. والنبي يا كمال.. لو شفت محمود مختار ده.. لازم تحبه.. واندفعت سحر تؤيد
أمها..
-.. أه.. والنبي يا أونكل.. ده محمود.. مؤدب.. وكويس قوى.. قوى.. وكان قد
توصل إلى لب المشكلة التى كمال بالملعة من يده قائلاً:
-.. تكونيش ناوية.. تجوزيه للبت..

-
- ..-.. وليه لا؟؟؟
- ..-.. ليه لا؟؟؟
- ..-.. أيوة.. يا ريت.. مركز.. مرتب.. عيلة..
- ..-.. أيوة يا عنايات.. بس البنت لسة صغيرة.. ما كملتش ١٧ سنة..
- ..-.. يعنى حاي تجاوزها النهاردة.. أهى لسة قدامها كام سنة لغاية الثانوية العامة..
- بعدين تتجور على مهلها..
- ..-.. يا عنايات يعنى البنت ح تحمض.. لما تفتح عينها على الحاجات دي؟؟؟
- ..-.. أمرك غريب يا كمال.. آمال نسيب الجدع لغاية لما يطير من إيدنا؟؟؟
- لف المنضدة صمت عميق.. لا يقطعه إلا صوت مضغات الأفواه.. وأخيراً فتح كمال فاه قائلاً:
- ..-.. طيب..
- أخرج عليه السجائر ناول كل من عنايات وحسن بك واحدة.. وأشعل لنفسه أخرى وراح الجميع يدخنون في تلذذ.. صامت..
- نهضت سحر.. وانهمكت في رفع بقايا معركة الطعام.. ثم غادر كمال وحسن بك الدار على موعد بلقاء قريب.. شريطة أن تكون شوشو برفقة حسن بك..
- دلفت الأم وابنتها إلى حجرة النوم.. ارتديا ثياب النوم ودلفتا إلى السرير.. سبحت الغرفة في ضوء خافت.. وانقلبت كل منهن على جانبها لتواجه الأخرى..
- ..-.. إحكى لي يا سحر.. عملتي إيه؟؟؟
- ..-.. في إيه يا ماما؟؟؟
- ..-.. يا بت في كل حاجة.. من أول الساعة عشرة الصبح لغاية دلوقت..
- ..-.. رحت عند تحية الصبح..
- ..-.. إيه.. وكان محمود هناك؟؟؟
- ..-.. أيوه..
- ..-.. وبعدين؟؟؟
- ..-.. قعدنا نتكلم..
-

.. في إيه..؟؟

.. في كل حاجة..

مع فضول أمها.. راحت تلعب مع أمها لعبة التخابث.. وقد ارتسمت على فمها ابتسامة طفولية خبيثة.. رفعت عنايات كفها وضربت سحر ضربة خفيفة على ردفها قائلة.. يا بت إتكلمي..

.. حاضر.. حاضر يا ماما.. محمود كان لابس البيجاما.. قابلني بابتسامة حلوة خالص.. كنت حاطير من الفرحة.. تحية كانت معنا على طول.. قعدنا نتكلم.. محمود نجح في الفرقة الى كان بيدرسها.. وطلع الاول.. علشان طول عمره شاطر.. بس كان زعلان علشان مسافر.. أنا فضلت وراه لغاية لما ضحك وبعدين ساعدته في توضيب شنطة السفر.. كان كل ما ينسى حاجة أفكره بيها.. وكان مبسوط.. كانت عليه مامة محمود هي كمان زعلانة علشان محمود مسافر.. بس فرحت لما ضحكته.. اتغدينا كلنا مع بعض.. وبعد الغدا نزلت أنا وتحية معاه عشان نوصله المحطة.. قعدنا في بوفيه المحطة يطلع ربع ساعة.. كان محمود ساكت.. وأنا بس اللي بتكلم.. البدلة حلوة قوى عليه يا ماما.. النجوم على كتفه بتلمع.. والكاب.. ماشى قوى يا ماما مع شنبه الاصفر.. وبعدين طلب منى نمرة التليفون..

.. وأديتها لو طبعاً يا سحر؟؟..

.. طبعاً يا ماما.. وهو قال لتحية قدامي إنه حايصل بى علشان يتضمن عليهم.. وبعدين ركب القطار.. وسافر..

.. هه.. وبعدين؟؟..

.. بقولك سافر.. وبعدين إيه..

.. طيب.. عملتى إيه.. لغاية لما جيتى هنا؟؟..

.. رجعت تانى مع تحية على بيتهم.. كانت زعلانة خالص.. محمود كان مالى عليهم البيت.. كان بينام جنبها.. هي دلوقت حاتبقى لوحدها.. وتانت وأونكل مختار قالوا إنه حايوحشهم خالص.. أنا قلت لهم.. إن محمود حايصل بيهم عندنا.. وإحنا ناخذ منه ميعاد يتكلم وتكون مامته وباباه عندنا يكلموه.. عند هذا الحد.. لم تتمالك عنايات

نفسها.. فهبت جالسة.. ومرت بيدها على شعر سحر في حنان قائلة:
 -.. أهو كده بقى يا سحر يا بنتى.. لما أمه وأبوه ييجو لغاية هنا.. تبقى الحكاية
 رسمى خالص..
 -.. حكاية إيه يا ماما.. الله..؟؟..

مع خيوط الفجر هبيت من نومى هادىء الأعصاب مستريح العضلات نشطاً مملوء
 النفس بالرغبة فى العمل.. استويت جالساً على حافة الفراش.. مستنداً على مرفقى
 الأيسر ماداً يدي اليمنى مفرودة الأصابع إلى ضلوع إبراهيم النائم فى السرير المقابل..
 -.. إبراهيم.. إبراهيم.. قوم.. الصبح طلع..
 تناءب إبراهيم وتمطى كقط نائم.. وفتح نصف عين متسائلاً:
 -.. هى الساعة كام دلوقت..
 -.. قربنا على ستة ونصف..
 بدون كلام سحب إبراهيم البطاطين على رأسه.. وراح يغط فى النوم مرة أخرى..
 مدتت.. أصابع قدمي أسفل السرير فى محاولة لاصطياد الشبشب.. تناولت فوطة
 الوجه والقينها على كتفى.. إنحنيت أسفل السرير وجذبت حقيبتى أخذت أقلبها رأساً
 على عقب منقباً عن أدوات نظافتى الشخصية.. فرشاة الأسنان.. معجون الأسنان..
 فرشاة حلاقة الذقن.. ماكينة الحلاقة.. قلبتها عدة مرات وفشلت فى اكتشاف مكان
 أمواس الحلاقة.. فمدت يدي الكز إبراهيم فى جانبه.
 -.. إبراهيم.. عاوز موس حلاقة..

دون أن يرفع رأسه أو يتكلم.. مد يده خلال الأغطية وأشار أسفل سريره.. إنحنيت..
 وتناولت حقيبة إبراهيم.. فتحتها ثم دسست يدي أنقب عن الأمواس.. فحولت عاليها
 سافلها ثم دفعتها مرة أخرى أسفل سرير إبراهيم منكوشة خارجة الأحشاء.. فتحت
 الباب وخرجت ومن خلال الفتحة الضيقة هاجمت وجه إبراهيم حزمة من أشعة
 الشمس آتية من الشرق.. فبدأ يشعر بلسعة حرارة أزاح البطاطين عن رأسه.. وتململ
 قليلاً.. وبدأ يفتح عيناه رافعاً يده يحجب بها ضوء الشمس المباشر.. ثم استوى جالساً

دافعاً البطاطين على شكل كومة بلا معالم ونظر إلى سريري.. قائلاً:
 .. الله يخرب بيتك يا محمود يا مختار..
 ثم إنحنى يرفع حقيبته خارجة الأحشاء.. ليستعد لطابور الصباح.. دلفت عبر الباب
 وأنا أجفف وجهي.. وشعر رأسي الخفيف بشدة..
 -.. صباح الفل يابو خليل..
 -.. صباح الهباب يا حضرة الضابط زفت.. هو إنت يا بنى ضابط ولا بيع لبن؟؟..
 عاوز تقوم إنت.. فز.. بس ما تقلقنيش يا أخى..
 -.. هو الطابور الساعة كام؟؟..
 -.. نوبة ضباط الساعة ثمانية إلا ربع..
 -.. طيب يا أخى.. يا دويك سلسة عاوز تحلق ذقنك.. وتلبس..
 -.. يا بنى الحاجات دى تاخذ منى دقيقتين.. ولما أتزنق دقيقة واحدة.. أصحى
 بدرى ليه يقى؟؟..
 -.. بدرى إيه.. فز بقى..
 مستسلماً.. مبرطماً.. خرج إبراهيم.. وأخرجت أنا.. أقول معتنى بكيه.. منشى
 الياقة.. وحذاء يلمع.. وطاقيه رأس جديدة تماماً.. وأخذت ارتدى ملابسى.. ثم تناولت
 ثلاثة أقلام جاف مختلفة الألوان.. وضعتها فى جيب ذراعى الأيسر.. وخرجت إلى الهواء
 الطلق..
 رحت أتجول فى أنحاء المعسكر.. كمن يتذكر.. فأربعة أشهر بالقاهرة للدراسة كانت
 كافية كى أنسى اسمى.. وليس معالم المعسكر فقط.. هذا مطبخ الجنود.. ذلك المبنى
 الكالح الذى تعلوه مدخنة صدئة وصهريج أكثر قذارة وصداً للوقود.. هذه الغرفة..
 هى مخزن التعيينات.. وتلك مخزن السلاح الشخصى.. وهذه للمهمات وتلك للذخيرة..
 أما تلك الساحة الواسعة التى تصطف فيها السيارات فهى الحملة.. شددت الخطى إلى
 الحملة.. وما أدراك ما الحملة.. أغرب خليط من البشر فى أى وحدة عسكرية على
 الإطلاق.. إلا أننى كنت أحمل مودة خاصة لسائقى الحملة.. خاصة العريف بسطاوى..
 ذى الشارب الأحمر والقامة المديدة..

.. بتشتغل إيه فى الملكية يا بسطاوى..
 .. جمال يا فندم..
 .. جمال؟؟.. وإيه اللي جاب الجمال لسواقة اللوارى يا بسطاوى؟؟..
 .. أهى كلها سواقة يا فندم..
 .. يا واد سواقة الجمل زى سواقة العربية؟؟..
 .. أيوة يا فندم.. الجمل علشان يمشى يتعلف.. والعربية بتتعلف.. الجمل لازم يشرب.. والعربية بتشرب.. الجمل بتاعى يفهمنى وأفهمه.. والعربية كمان.. تفهمنى وأفهمها..
 ولقد قام بسطاوى بتعليمى عملياً قيادة اللوريات أثناء خدمتنا معاً فى صدر الحيطان.. إن علاقة الضابط بجنوده.. تختلف من سلاح إلى سلاح آخر داخل القوات المسلحة.. لكنها أقوى علاقة وأمتن رابطة فى وحدات المدفعية المضادة للطائرات.. فالموقع عبارة عن دائرة لا يتجاوز قطرها الستون متراً فى هذه المساحة الضيقة يعيش أكثر من سبعون إنساناً.. معظمهم من الجنود ومعهم ضابط واحد أو إثنان.. فالجنود جيران الضباط الأقربون.. وهم أقرب إليه من بناته.. الضابط يسمع زفرات الجنود.. يأكلون.. وينامون ويشربون متجاورين.. علاوة على التواجد الدائم لتلك الوحدات منعزلة عن باقى القوات لأنها التى تقوم بحمايتها.. وأيضاً بعيدة عن بعضها البعض.. فهى جزر بشرية منعزلة.. هذا الانعزال يزيد الضابط عزلة.. تلك العزلة المتزايدة تقربه أكثر وأكثر من جنوده.. وتصبح أدوار كل من بالموقع محفوظة محددة.. وبالتالى يدار العمل فى المواقع بالمعرفة الشخصية الوثيقة ما بين الضباط والجنود.. بالحب والتفاهم أكثر من استخدام السلطة.. بذلك يصبح القائد أخاً للجنود.. معلم لهم أكثر منه أمر.. صديقاً أكثر منه متسلطاً.. وطالما الخدمة الإجبارية تشمل أبناء مصر كلهم.. فموقع المدفعية إذن يشتمل على كافة عناصر الشعب.. فالجمال إلى جوار النجار.. والتلميذ الفاشل إلى جوار المتعلم.. واللص إلى جوار الواعظ.. ولا أسرار فى موقع المدفعية المضادة للطائرات.
 كان جندي الحراسة الذى انتهت نوبة حراسته مؤخراً.. خالعاً ملابسه باستثناء

الداخلية منها قذرة كالحثة والحذاء البيضاء مباعداً ما بين ساقيه منحنيًا ممسكاً كوزاً به ماء بيد وبالأخرى صابونة يسكب الماء ويحك شعراً كالليف..
أما باقي الجنود ففي حالة هرج ومرج.. وقد وقف الرقيب التابعي وعيناه نصف مغمضة وسترته خارج بنطاله.. وقد تدلى البيهريه على جبهته صارخاً.. مهدداً.. متوعداً..
ووقع بصره على فرفع يده بالتحية العسكرية..

— حمد الله على السلامة يا ح الضابط محمود..

— الله يسلمك يا تابعي..

ورفع عقيرته صائحاً.. إجمع.. إجمع.. إجمع إنت وهو..

وبدأ الجنود السائقين يتجمعون في شكل طابور.. وما هو بالطابور.. يرتدون ملابس لها علاقة تشبه بعيد بالزى العسكري.. فلا يتفق إثنان منهما في لون أو شكل أو تفصيل.. هذا يلبس حذاء.. والآخر صندل.. والثاني حذاء كاوتشوك.. أما الأحذية البيضاء التي هي في الأصل سوداء اللون لامعة.. فقد كانت في أقدامهم بيضاء.. إلا من بقع زيتية هنا.. وهناك.. إنبرى التابعي صائحاً..

— لليمين.. در..

ودار الطابور لليمين كالمآلة غير منتظمة الإيقاع.. فلا يدور الثاني حتى يدور الذي أمامه.. وهكذا.. صحت قائلاً للتابعي:

— والله يا تابعي ده ولا طابور الأسرى..

شدت خطاى إلى أرض الطابور متجاهلاً تبريرات التابعي التي لا طائل ورائها..
تجمعت سرايا الكتبية.. في أرض الطابور بينما وقف الضباط ثنائيات يتجاذبون أطراف الحديث.. فبادرنى الجميع بالتحية.. ولحت النقيب محمد عمار.. الذى تربطنى به علاقة حميمة.. زمالة يشوبها العرفان.. ذلك أنه أول من عملت تحت قيادته.. وقد علمنى دروس عملية وإنسانية لن أنساها أبداً.. بالنسبة لى كان صديقاً ألجأ إليه فى الملمات توجهت إليه هاشاً.. فقابلنى ماداً ذراعيه وعلى شفثيه ابتسامة عذبة مرحبة..

— ازيك يا محمود يا مختار.. إيه أخبارك.. وأخبار مصر..

— الحمد لله يا فندم.. والله مصر عاوزاك..

.. وحشنى.. بعد الطابور إبقى تعالى.. عاوزك..

.. حاضري يا فندم..

ارتفع صوت البروجى لنوبة ضباط.. تجمع الضباط من أرجاء المعسكر.. وبدأنا نصطف مواجهين لطوابير السرايا.. وكل منا ينظر إلى يمينه يحدد موقعه الذى تسمح به أقدميته..

جاء الرائد ظريف قائد الكتيبة يضع تحت إبطه عصا ذات كعب نحاسى لامع.. وإلى جواره النقيب سمير.. رئيس العمليات.. فى حين وقف الملازم إبراهيم ممسكاً بورقة وقلم يحصى أعداد الجنود مابين موجود وإجازة وخلافه.. وسرعان ما رفع إبراهيم رأسه وشد قامته وصاح:

.. كتيبة.. صفا.. إنتباه.. ثابت..

عم أرجاء الكتيبة صمت مطبق الجميع شاخصاً إلى الامام.. دار إبراهيم على عقبيه.. وقطع المسافة بينه وبين النقيب سمير عدواً.. وقف قبالة ومد إليه يده بورقة التمام ضارباً الأرض بكعب الحذاء رافعاً يده بالتحية العسكرية قائلاً.. تمام يا فندم الكتيبة.. دار على عقبيه مرة أخرى وفى خطوات واسعة وقف إلى جوارى..

صاح النقيب سمير.. كتيبة.. صفا.. إنتباه.. ثابت.. حضرات الضباط.. تفضلوا..

وبدأنا نتحرك كل أمام جنوده وتداخلت صيحات الضباط على سراياهم هنا وهناك.. سرية.. صفا.. سرية.. إنتباه..

بعدما هدأت الحركة صاح النقيب سمير.. ثابت.. ثم دار على عقبيه وأخذ يعدو إلى حيث قائد الكتيبة.. تمام يا فندم الكتيبة.. ثم دار على عقبيه ووقف مواجهاً طابور الكتيبة..

رفع القائد صوته منادياً.. كتيبة.. صفا..

تنفسنا الصعداء.. فالوقوف إنتباه مدة طويلة من شأنه الضغط بشدة على فقرات العمود الفقرى.. إلا أنه استطرد بصوت أكثر ارتفاعاً..

.. إ.. ن.. تباه.. طبعاً كلكم عارفين إن الكتيبة داخلة مسابقة ضرب نار مدفعية.. عاوز الأطقم تبذل أقصى مجهود فى التدريب.. طبعاً المنظر اللى شايفه ده ما يطمئنش

أبدأ.. العساكر زى الشحاتين.. الجزم قذرة.. القوايش تندهن طين أخضر.. عاوز المنظر ده يتغير.. حضرات الضباط واخدين تلقين كامل باللى يعملوه.. ورفع عصاته مهدداً..
دلع مش عاوز.. دلع.. على طول.. وأشار بعصاته كسيف قاطع.. على طول دبح..
أقل غلطة من هنا ورايح ع السجن على طول..
-.. كتيبة.. صفا.. إنتباه.. دور..

رفع النقيب سمير يده بالتحية العسكرية صائحاً.. دور..
قمنا بالخروج بطوابير الجنود إلى أماكن التدريب حول الكتيبة.. وفى الساعة التاسعة.. اجتمعنا ثانية فى ميس الضباط..
جلس الرائد ظريف على رأس المائدة.. مطرقاً متجهماً.. جلسنا نحن مطرقين وضع جنود الميس لكل منا طعامه.. عدس ساخن وجبن.. وبيض.. بدأ القائد الأكل.. وتبعناه ناكل صامتين.. لم يكن الرائد ظريف يأكل كما نأكل.. بل يلتهم الطعام التهاماً.. دون أن يأخذ أقل فرصة لمضغه.. وفى دقائق أنهى طعامه.. وصفق بيديه صائحاً..
-.. القهوة يا جندى..

ووضع بين شفتيه سيجارة وراح يدخن ويرقبنا صامتاً.. فى حين أخذ يداعب شعيرات شاربه بين أصابع يده اليسرى.. رغم انكفائى على الطعام إلا إننى كنت أشعر بنظرات الرائد ظريف تخترق جلدى..
-.. أرجو يا حضرة الضابط محمود إن دى تكون آخر مرة.. أنا هنا ما أحبش الحال المائل.. الحال المائل أنا كفيل أعدله.. فاهم..

-.. فاهم يافندم..

-.. بالمناسبة النقيب سمير بلغك بمركزك الجديد؟

-.. أيوه يا فندم..

-.. أيوه إيه بس.. عرفت حاتحط المدافع فى؟؟

-.. لا يا فندم لسة..

نهض الرائد ظريف وتوجه إلى نافذة الميس التى تطل على وادى العريش فى امتداده اللانهاى.. وأشار إلى أن أنهض.. فقفزت إلى جواره..

.. شاييف التبة العالية الى هناك دي؟؟..

- أبوه يا فندم.

.. ده موقعك.. عاوز الموقع بكرة الصبح يكون جاهز. وأحب أفهمك حاجة علشان تكون على نور.. أنا مش من القادة اللي يخلصوا شغل المكاتب.. يعنى فى أى وقت حاتلاقينى على دماغك.. مفهوم؟؟..

.. مفهوم يا فندم..

صمت القائد.. وأخذ ينظر خلال النافذة.. وأنا أقف لا أدري ماذا أصنع..

- واقف ليه.. ما تروح تنفذ الأمر..

لم يسبق لى قيادة هذه السرية.. ولا سرية مشابهة.. ولم أقم منفرداً باحتلال موقع جديد.. وقد كان درس الأمس بليغاً فلم أفتح فمى أطلب مشورة.. إلا أن النقيب محمد هب واقفاً كنجدة من السماء، حيث قال موجهاً كلامه إلى القائد:

.. عن إذن سيادتكم أروح أقدم محمود للسرية.. وأروح معاه لغاية الموقع.. ولقد كان يتمتع بنفوذ غير عادى.. ذلك لدماثة خلقه وحب الزملاء له.. علاوة على توليه مركز قلب هجوم فريق كرة القدم باللواء..

.. طيب يا محمد.. روح معاه.. وفهمه.. وبعدين روح سريتك..

.. حاضر يا فندم..

درنا على عقبيننا.. وخرجنا من الباب إلى أرض الطابور.. وجاءنا صوت القائد صائحاً

.. إيه.. ناويين تباقوا هنا؟؟.. فخرج الضباط مرة واحدة يتدافعون.. خطوات قليلة ووقف النقيب محمد وصاح منادياً على سرية الرشاشات.. ثوانى قليلة واجتمعت السرية على رأسها الرقيب دسوقى..

.. تمام يا فندم السرية..

.. خمس دقائق.. خمس دقائق بالعدد السرية تجهز للتحرك..

.. للتحرك.. استعد.. انصراف.. صاح دسوقى فتفرقت السرية..

.. روح يا دسوقى هات التابعى وتعالى.. وإنده على حلمى من سريتى.. جاء التابعى.. ووقف قبالة النقيب محمد مذعوراً كالأرنب.. ابتدره محمد قائلاً:

.. روح يا تابعى جهز سبع عربيات.. بقولك إيه.. أحسن سبع عربيات عندك..
ورفع قبضته في وجه التابعى مهدداً.. ودينى يا تابعى لو عربية منهم عطلت لأجيبك
أربطك في المدفع تجره إنت.. فاهم؟؟
هرول التابعى لينفذ الأمر.

وحينما وصل الرقيب حلمى همس محمد في أذنه بكلمات قليلة.. فشد خطاه إلى
الحملة وخرج راكباً لورياً ضخماً واختفى به خلف المبنى..
سرعان ما خرجت من بوابة الحملة ست لوريات..
وفي خلال ربع الساعة كان هناك ستة لوريات كل منهم محملاً بذخيرة مدافع
ومهمات الجنود وأطلق المدافع.. يجلس قائد كل مدفع إلى جوار السائق.. يجر خلفه
مدفعاً رشاشاً ثقيلاً رباعياً.. قفز محمد في أول لورى وأنا إلى جواره.. بدأ الطابور
الخروج من البوابة..

.. يا فنندم أنا نزلت مصر أربع شهور علشان أخذ فرقة إشارة وأرجع ضابط
إشارة واستطلاع في الكتيبة.. المدافع أى ضابط يمسخها..
.. يا محمود يا مختار.. ده قرار قائد الكتيبة..
.. طيب الكتيبة بعثاني ليه أخذ فرقة.. وأغيب أربعة أشهر؟؟
.. والله.. هو.. حر..

دربنا حول معسكر الكتيبة وبدأنا في الولوج إلى وادى العريش..
أثارت السيارات سحباً كثيفة من الغبار.. بدأنا نقترّب من الموقع المحدد.. ضغط
محمد على دواسة الفرامل.. فوقفت السيارة.. ووقف الطابور خلفه.. أخذنا ننظر إلى
التبة.. دارت رأسى وأنا أقول..

.. يا نهار إسود.. دى يا فنندم مقابر..
.. أه يا أخى صحيح.. دى مقابر العريش..
نزل من السيارة صائحاً.. يا سمان.. جاءه جندي أسمر تتلأل أسنانه البيضاء من
خلال فمه المبتسم.. وتحت إبطه تليفون ساحباً خلفه سلك ميدانى..
.. أفندم..

.. هات قائد الكتيبة ع التلفون..

- حاضر يا فندم.. وأخذ يدور بيد التلفون دورات متصلة.. ألو.. عاوزين حضرة الصاغ.. لليوزباشى محمد.. بسرعة يا بدوى.. إنتزع محمد السماعه من يد السمان وصاح:

.. أنا محمد يا واد يا بدوى.. هات حضرة الصاغ.. دقيقة واحدة..
أيوه يا فندم.. أنا محمد لا خير يا فندم.. أنا بتكلم من الموقع الى سيادتك حددته للضابط محمود مختار.. التبه طلع عليها مقابر.. أيوه.. الظاهر إنها مقابر العريش كلها..

حول محمد رأسه ينظر إلى الأفق.. ثم استطرده.. لا يا فندم.. مفيش ولا حته عالية خالص.. مش ممكن نخط الموقع الناحية الثانية.. الخطة تختل؟؟.. لازم هنا.. أمر سيادتك..

ألقى السماعه إلى يد السمان.. فتساءلت قلقاً..

.. إيه يا فندم.. حأحط الموقع جوة المقابر دى؟؟..

.. أيوه؟؟.. ثم استطرده.. بدال ما تقف تفتح كده.. ارسم الموقع وإبدأ الحفر..

.. حفر.. ده إحنا كده حاننبش القبور..

.. بعدين نتكلم يا محمود.. بعدين.. ثم رفع صوته ملوحاً بكلتا يديه.. تقدم.. هدرت المحركات وبدأت السيارات وخلفها المدافع فى الاصطاف أسفل تبة المقابر..

.. الأطقم تجهز للاحتلال..

صعدت إلى التبة وبدأت ومعى الدسوقى فى تخطيط مواقع المدافع ورسم شكل كل دشمة مدفع على الأرض ليبدأ الجنود فى الحفر.. متفادياً ما أمكن شواهد القبور تحولت السرية إلى خلية نحل.. وحركة.. وارتفعت الكواريك تحفر الأرض.. وماهى إلا ساعة حتى تحولت ياقه أفورولى المنشاه إلى قطعة من العجين المختلط بالوخل والعرق اللزج.. لم يتبقى إلا تحديد محل إقامة قائد الموقع.. الذى هو أنا.. وعبثاً نحاول إيجاد مكاناً مناسباً وسط الموقع.. ولم يكن هناك مكاناً مناسباً غير إحدى المساحات أسفل التبة مباشرة.. إلا أنه يتوسطها قبر مبنى بالطوب.. فلم يكن هناك بدأ من وضع خيمتى فوق

هذا القبر..

.. يا حلمى.. عاوز أتفرج على خيمة ح الضابط محمود.. مش حاقولك ساعة زمن واحدة.. وحابص من الشباك..

تركنى النقيب محمد على وعد باللقاء مساءً.

قبل حلول الظلام كانت جميع أعمال الحفر والجهيز قد تمت.. واختفت المدافع في دشمها وتلال الذخائر في حفرها.. والجنود تحت مشمعات السيارات.. ولقد جهز حلمى خيمتى على أفضل وجه ممكن.. وقد أقرضنى النقيب محمد حاجتى من الأثاث.. إلا أنه لم يكن لدى منضدة سوى مبنى القبر..

أخيراً دخلت خيمتى.. وأخرجت حاجياتى من الحقيبة ووضعتها في الدولاب المعدنى الصغير.. ووضعت كتبى على القبر المجاور للسير.. كما وضع مصباح كيروسين للإضاءة.. ولم أكن يوماً لأحلم بأننى ساكون من ساكنى القبور.. التى دوماً ما تبعث في نفسى رهبة وخوف عميق.. ما أن هبط الظلام حتى اجتاحتني شعور جارف بالهلع.. وأخذت أدور.. وأدور بين أرجاء الخيمة.. جف حلقى.. وتملكنى دوار.. وانطلقت كالزوبعة خارجاً.. كل شئ يلفه الظلام.. لا أكاد أرى أصابعى.. على مسافة بعيدة هناك أضواء المدينة.. وفي الجهة المقابلة.. أضواء معسكرات العريش.. وأنا وحدى يلفنى الظلام والهلع صحت منادياً..

.. يا خدمة.. يا جندى يا خدمة..

.. أفندم..

حددت مكان جندى الحراسة من خلال إتجاه الصوت.. أخذت أصعد التبة.. أتفقد دشم المدافع والجنود.. أبعد عن نفسى التوتر.. هب الرقيب دسوقى يرافقنى في جولتى القصيرة..

.. حمد لله على السلامة يا فندم.. شرفت السرية..

.. شكراً يا دسوقى.. إنت ليه ماعينتش خدمة على خيمة قائد الموقع..

.. حاتطلع حالاً يا فندم.. يا دوب بس لسة مخلصين شغل..

.. خلى السمان يتصل بالنقيب محمد ويجيب التليفون فوراً..

حاولت تحديد اتجاه خيمتى فى الظلام.. وقد استعدت رباطة جأشى وهدرتى..
دخلت الخيمة جلست على طرف السرير منتظراً.. جاءنى السمان وتحت إبطه التليفون..
ماداً إلى السماعه قائلاً.. النقيب محمد ع التليفون يا فندم..
—..ألو.. مساء الخير يا فندم.. أنا لسة منتظر سيادتك..

—.....

.. لا.. يعنى حضرتك نازل بكرة.. لا.. لا.. إجازة سعيدة بإذن الله..

—.....

—.. فى رعاية الله يا فندم.. وألف شكر.. مأمورية سعيدة بإذن الله.. خرج السمان..
وبدأت فى خلع ملابسى.. وارتديت بيجاما للنوم.. سمعت صوت خطوات جندى
الحراسة فى الخارج.. وعلى رتابه وقع الخطوات.. رحت فى سبات عميق..

مضى على أسبوع وأنا وحيداً فى الموقع لم يفكر أحداً من الضباط فى زيارتى..
واقترنت علاقاتى مع العالم الخارجى على التليفون.. لا عمل لنا إلا التدريب.. من
السابعة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر.. ورغم أن السرية بها ستون جندياً.. إلا أن
هذا العدد نظرياً فقط على الورق.. فعادة لا يحضر طابور التدريب إلا ثمانية أو تسعة
جنود على الأكثر.. فى حين أن باقى الجنود موزعين مابين أطقم خدمة قتال على المدافع..
وبين جنود حراسة.. وجنود طلبة.. وهنا تجدر الإشارة إلى جنود الطلبة..

إن جندى الطلبة هو ذلك الجندى الذى يقوم بخدمات عامة تستفيد منها الوحدة
كلها، فالطلبة يجلبون المياه فى جراكن يحملونها على الأعناق من مسافة بعيدة.. وهم
الذين يحضرون طعام الجنود بالموقع مجعاً فى حاويات يحملونها ثنائيات.. وهم الذين
يقومون بنظافة الأرض والبقول من عوالقها.. وقد يكون من أطرف المشاهد تلك التى
لمجموعة من الجنود الطلبة المقبلين على كومة من الأرض ينظفون بعضه ويهدرون
معظمه..

.. ولاشك إن الوحدة النظيفة المظهر هى تلك التى لديها من ينتقى جنود الطلبة
ويديرهم بكفاءة.. ولقد كان نصيب سريتى من جنود الطلبة الذين يخدمون الكتيبة هو

نصيب الأسد..

وماذا عساك تقول كل يوم لمدة ثماني ساعات في شرح مدفع بسيط التكوين؟؟
لجنود يعملون فعلاً على المدفع لمدة ثلاثة أو أربع سنوات متصلة.. فحكماء طاقم
المدفع يقوم بشرحه.. والضابط يقف يستمع ليتدخل لزيادة إيضاح أي نقطة قد تكون
غامضة!!!

وبالتكرار يتحول الطابور إلى إسطوانة.. يلقيها العريف على مسامح الجنود.. الذين
لا يسألون.. في حين يراقب الضابط الموقف ضجراً.. ويزجر أحدهم.. أو يصدر أمراً
تافهاً لقطع الملل..

أما بالنسبة لخيمتي.. فلقد قدم لي أهل الميت خدمة مادارت بخلافهم أبداً.. تحول القبر
فعلياً إلى مكتب.. وضعت خلفه كرسي.. وفوقه الكتب والأقلام والدفاتر والتليفون.. أما
ليلاً.. فقد كانت تنتابني لحظات أتمنى فيها أن يهب الميت من قبره ملتفّاً بأكفائه البيضاء
لنتبادل أطراف الحديث..

العريش مدينة صغيرة.. والسبب ما.. موتها كثير.. ويومياً كانت تهل علينا
طواير جنازية.. بكل ما في الموت من رهبة وجلال.. وبكل ما يلازمه من حزن وألم..
بعد انصرام أسبوع تبلى شعوري تماماً.. وأصبحت صيحات الولولة أناشيد في أذني
بلغات أخرى لا أفهمها.. ولقد كانت تجربتي الأولى مع الموت.. والموتى.. في هذا المساء..
أويت إلى فراشي مبكراً.. نمت أحلم.. بأبي.. وأختي.. وسحر.. صعدت من يثر
النوم إلى شبه اليقظة مع صوت سيارة تكافح الرمال الناعمة آتية.. وسرعان ما توقف
صوت المحرك بالقرب من الخيمة.. فتحت ضلفتي الخيمة.. وسلط على وجهي ضوء
مصباح قوي.. أخفيت عيني كالفأر وجاءني صوت إبراهيم-مساء الخير يا مخ..

.. أهلاً يا أبو خليل.. جبت البطارية..

.. يا بني فيه حد يشترى بطارية بأربع حجارة؟؟ دي عاملة زى كشاف الديزل..

.. أعمل إيه يا إبراهيم يا أخويا في الهوده ما ينقش بطارية صغيرة الواحد عشان
يمشى لازم يشوف قدامه بكيو.. وأهو الواحد برضه يحس إن فيه ونس..

.. ونس.. تحط موقع جوة المقابر وتقول ونس.. والى زيك يابني عاوز ونس.. ده

الواحد يدخل خيمتك دى جتته بتتلبش.. عامل مقبرة مكتب.. وعاوزنى أصدق إنك
عاوز ونس..

أخذ يدور رأسه فى أرجاء الخيمة.. ثم إردف بامتعاظ قائلاً:

-.. أنا عارف إنت إزاي عايش هنا..

-.. يعنى حانعمل إيه يابو خليل.. أوامر القائد يا سيدى..

-.. على رأيك.. الله يكون فى عونك يا مخ..

-.. عملتوا إيه فى المسابقة؟؟..

-.. قصدك يعنى ضرب نار المدافع؟؟..

-.. أيوه..

-.. لا.. دى مش مسابقة.. ده تدريب سنوى.. مجود تدريب عادى.. -

-.. أmaal ليه سمته مسابقة؟؟..

-.. علشان بيبقى فيه ترتيب من الكتيبة الأولى.. والثانية.. وفيه جوائز.. وكمان فيه
جزاءات..

-.. وأنا.. مدافعى حاتشترك يا إبراهيم..

-.. لا يا بنى.. الرشاشات السنة دى لا.. من كل سرية مدافع.. حاناخذ مدفعين..

-.. طيب وده كلام؟؟..

-.. بينى وبينك.. لا مش كلام.. من كل ستة مدافع بيضرب إثنين بس.. كل مدفع
بيضرب سبع طلقات.. وعلشان الكتيبة تجيب تقدير كويس.. لازم يضرب على المدافع
أحسن عساكر.. الى هما الحكمدارية الناس الى فاهمة وضربت قبل كده.. يعنى فيه
عساكر عندنا دخلت الجيش من ثلاث سنين.. وهاتخرج عمرها ماسمعت صوت مدفع
بيضرب..

-.. طيب وباقى المدافع إزاي نختبرها؟؟..

-.. يا سيدى عننا ما اختبرناها.. باقولك إيه.. إلبس هدومك بسرعة..

-.. خير يابو خليل..

-.. فيه مؤتمر دلوقت فى سيما العريش.. ومعايا العربية برة أهى..

-
- .. وأنا.. جى معاكم..
- .. أيوه يا سيدى.. الفريق محمد فوزى رئيس الأركان جى المؤتمر وكل الضباط الى مش نوباتجية لازم تحضر.. يالله بقى.. بلاش لكاعة..
- فى دقيقتين كنت مستعداً.. بينا يابو خليل..
- لقد كانت رغبتى فى الخروج من الموقع عارمة.. وكنت مستعداً للتوجه إلى أى مكان خارج الموقع حتى ولو كان مؤتمراً للفريق فوزى..
- فتحن نعرف الفريق فوزى عن بعد.. كما يقولون من بعيد لبعيد.. فقد كان مديراً للكلية الحربية أثناء دراستى بها.. ولا أذكر أننى نظرت إلى عيناه إلا مرة واحدة.. ذلك أثناء كشف الهيئة بالكلية.. عيون صارمة.. عميقة.. ووجه حفرت عليه السنين أخاديد طويلة عميقة.. فى انتظام عجيب.. حتى غداً وجه سيادته مستطيلاً فيه جمود وقسوة.. ولقد كان لا يعرف فى الضبط والربط لائحة لائم.. فالمخطيء الذى يسوقه بسوء طالع له.. فالطرد من الكلية أمر قائم.. والرسوب أمر مفروغ منه.. ورغم تخرجنا من الكلية.. إلا أن سطوة سيادته علينا كانت شيئاً قديماً بالنسبة لنا.. فوق مستوى إرادتنا.. وأكاد أجزم.. بأننى لولا ظروف هذا الموقع اللعين.. لانتحلت ألف عذر للتخلف عن الحضور لهذا المؤتمر الموسع..
- وصلنا أخيراً إلى حيث سينما المعسكرات.. اللوريات والعربات الجيب تصطف فى صفوف منتظمة أمام السينما.. وقد تناثر بعض رجال الشرطة العسكرية يقومون بتوجيه السيارات للانتظار فى شكل هندسى منتظم..
- على البوابة الرئيسية حلقات من الضباط.. وعلى أطراف أصابعنا تقدمنا من حلقة ضباط كتيبتنا الرائد ظريف يقف وحوله النقيب سمير وباقى الضباط والجميع فى مستوى أناقة غير عادى.. نظر القائد إلى النقيب سمير هامساً..
- .. كله تمام يا سمير؟؟..
- .. تمام يا فندم مفيش حد ناقص..
- واجهنا القائد مخاطباً إيانا معاً:
- .. كل واحد يقعد فى كرسيه ولا حركة.. ولا ضحكة.. الى بيدخن ينسى السجائر
-

خالص أى محاضر يتكلم نسمع.. وبس.. حد يقول أى أسئلة مالناش دعوة..
فاهمين؟؟..

-.. فاهمين يا فندم..

-.. عاوز اليوم ده يعدى على خير.. اللي حايعمل حاجة كده ولا كده.. ورفع يده
اليمنى فى جوهنا مهدداً قائلاً.. يشرفنى لا أوريه.. لم يعلق أحدنا بكلمة.. فماذا عسانا
نقول؟؟.. فكلنا ينشد السلامة..

الجو العام يسرى فيه شيئاً كالكهرباء.. والتوتر.. وألف سؤال وسؤال يتردد فى
رؤوسنا جميعاً.. ترى.. بماذا سوف يخبرنا الفريق فوزى.. ورحت أردد هامساً بينى
وبين نفسى.. يارب أستري يا رب..

امتلات صالة السينما بالجنود والضباط.. وانتقى لنا القائد مكاناً فى أحد الأجناب
يعلوه مباشرة مصباح كهربائى محطم.. وبجانبنا تماماً مكبر صوت.. قال القائد
منشراحاً.. أهو كده.. نبقى سامعين كل حاجة..

بعد قليل صعد العميد قائد اللواء إلى خشبة المسرح الذى وضعت عليه بعض
المناضل العالية والكراسى.. والميكروفونات.. صاح قائد اللواء بصوت جمهورى..
..... إنتباه..

وقف الجميع قفزاً.. وعم السينما صمت مطبق كامل.. ومرت لحظات ثقيلة.. دار
قائد اللواء على عقبه وواجه الباب الجانبى.. رفع يده بالتحية العسكرية.. فى حين اقترب
الفريق فوزى ومعه لفيف من كبار الضباط والمساعدين.. جلس أولاً.. ثم جلس باقى
كبار الضباط.. رفع الفريق فوزى يده اليمنى وأخفها عدة مرات أمام إيانا
بالجلوس.. بدأت حركة الجلوس العام.. كالتيار الكهربائى تسرى من الصفوف
الأمامية إلى الخلفية..

بدأ صوت الفريق عميقاً قوياً عن التدريب.. والروح المعنوية.. وعن حرب قواتنا
المسلحة فى اليمن.. وأنذرنا سيادته بأن لواءنا سيسافر إلى اليمن فى منتصف شهر
مايو.. أى خلال خمسة عشرة يوماً من اليوم..
وأخيراً وصل سيادته إلى النقطة الأساسية من المؤتمر كله حيث قال:

.. نحن بلد فقير.. فقير.. ونحن أول من يساعد على ضغط نفقات الدولة إلى الحد الأدنى معنى ذلك ضغط استهلاك وقود السيارات.. أى سيارة تخرج دون داعى قوى.. الشرطة العسكرية ستقوم بالقبض عليها فوراً.. أى مشوار يروحه الضابط يمشى.. المشى رياضة.. الذخيرة.. يجب إقلال استهلاك الذخيرة.. لو تمرين ينضرب أربع طلقات.. يبقى كفاية اثنين.. لو شديتو حيلكم على التدريب بدون ذخيرة حاتوصل لأحسن نتيجة..

كان معنى كلمات سيادته إننى لن أغادر موقعى عملياً إلا للتوجه إلى اليمن.. ولن أطمع فى زيارة زميل أو صديق.. فمن ذا الذى يقطع ثلاثة كيلو مترات فى وادى العريش سيراً على الأقدام.. لزيارتى؟؟.. وحمدت الله بأننى سوف أسافر إلى اليمن.. وكنت مستعداً للسفر إلى الجحيم بدلاً من هذا الموقع الذى كرهته من أعماق قلبى.. وأخيراً وصل سيادته إلى آخر المؤتمر ملقياً بالجملة التقليدية..

.. أى أسئلة؟؟.. وراح يتطلع إلى الوجوه.. الجميع فى صمت مطبق.. ووجدنا أحد الأيادى ترتفع.. وتحركت الرؤوس لترى هذا الفدائى صاحب هذه اليد المرفوعة.. لمح السيد الفريق فصاح به قائلاً: اتفضل..

.. يا فندم الأيام دى.. القطارات بتتأخر علشان السكة الحديد فيها تصليح.. والتأخير ده بيضيع يوم من الإجازة الشهرية.. علشان كده بنرجو سيادتك فى يوم زيادة فوق الإجازة..

.. اسمك.. ورتبتك.. وحدثك..

فتح أحد مساعدى الفريق فوزى نوتة صغيرة وأخذ يدون ما صاح به الضابط من بيانات.. ولقد كان أحد ضباط المحطة العسكرية وليس زميلاً لنا من اللواء.. استطرد الفريق فوزى..

.. يحرم من الإجازة لمدة ثلاثة أشهر.. حتى يتم إصلاح الخط الحديدى.. وأشار له بيده أن يجلس.. ثم استطرد.. أى أسئلة؟؟.. وبالطبع لم تكن هناك أى أسئلة..

انتهى المؤتمر.. وخرجنا من السينما مطرقين.. نظر إلينا القائد ظافراً وقال:

.. شافين؟.. وكان يقصد ذلك الضابط التعس الذي وجه السؤال.. وكان لسان
حالى يقول:

.. الله يكون فى عونہ..

كما حضرنا إلى المؤتمر.. رجعنا أنا وإبراهيم جالسين جوار سائق اللورى..
صامتين.. وحينما وصلنا إلى خيمتى وأضأت مصباح الكيروسين ابتدرت إبراهيم..

.. مالك يا أبو خليل..

.. أبداً.. بس خبر وحش قوى..

.. إيه.. الجزء الذى خده الضابط ده.. الله يكون فى عونہ..

.. لا.. السفر..

.. السفر لليمن؟.. ده أحسن خبر سمعته فى حياتى.. عل الأقل حاسب المقابر
دى.. وكم ان المرتب حايترضب فى ثلاثة.. والواحد يعرف يتجوز..

.. طيب نحاربهم ليه؟..

.. هما مين..

.. نحارب فى اليمن ليه؟..

.. من إمتى اتعلمنا نسال يا أبو خليل؟..

.. بس الحرب دى حرام..

.. لا.. بقولك إيه.. بلا حرام.. بلا حلال.. متدخلش المشيخة فى الجيش..

.. مشيخة إيه؟.. مسلم يقتل مسلم.. الاثنين فى النار..

.. بقولك إيه يا وله.. أمر ولازم حايتنفذ.. روح احتل موقع فى مقابر العريش..
حاضر.. روح احتل موقع فى اليمن حاضر.. الى يعترضك افتح عليه النار.. حاضر..
حاجة مش عاوزة مناقشة..

.. فعلاً.. ما فيهاش مناقشة.. نهض إبراهيم.. وأردف.. طب عن إذنك..

اختفت جلبة سيارة إبراهيم.. وجلست حائراً.. فقد كانت لهجة إبراهيم مليئة
بالأسى.. لكننى لم أستطع فهم منطقه..

إننا كالسيارة.. محرك وعجلات وفرامل وبنزىن قائد السيارة هو الوحيد الذى

يتحكم فيها أين تتجه.. ومتى.. وكيف.. وكل الضباط والجنود ماهم إلا تروسا صغيرة في تلك السيارة.. كيف يكون لها رأى في كيفية واتجاه توجيهها؟؟؟

وقفت تحية تحتضن حقيبة المدرسة بين ذراعيها كطفل صغير.. رفعت رأسها إلى أعلى منادية.. سحر.. سحر..

صديقتان.. منذ مدة طويلة.. جمعت بينهما سنوات الطفولة المبكرة.. زميلتا دراسة من المدرسة الابتدائية.. ثم الإعدادية.. ثم الثانوية.. دائماً معاً.. في الجد واللهو معاً.. والمذاكرة معاً.. وكثيراً ماتدخلت عنايات هانم لدى إدارة المدرسة لنقل إحداهن إلى فصل الأخرى ليجتمع شملهن.. ورغم هذا الترابط بين الصديقتان إلا أن ظروفهن مختلفة كل الاختلاف..

تحية لها أخ.. هو الملازم محمود.. أما سحر فلا إخوة لها.. تحية تعيش بين أبويها.. وسحر تعيش مع أمها فقط.. مات أبوها وتركها طفلة صغيرة.. تحية تعرف معنى عطف الرجل الأب.. أما سحر فالرجال بالنسبة إليها سواء.. أونكل كمال.. أو أونكل حسن.. كلاهما رجلا يحذب عليها.. ويعطف.. وإن كان حذبا وعطفاً من نوع مختلف.. عن ذلك الإشعاع العجيب الذي ينبعث من عين عم مختار أو أونكل مختار كما تحب أن تناديه سحر..

وهذا الفرق الشاسع ما بين تانت عليه أم تحية وعنايات أمها.. فتانت عليه في طريقتها البيضاء وثوبها المنزلي البسيط وتصرفاتها.. يعطيها إحساس بالأمومة الأبدية.. تلك النظرات الحنون المنطفئة.. غير تلك النظرات البراقة اللامعة التي تشع من عيني عنايات..

برزت سحر من خلال الممر الضيق الذي يفصل الشارع عن المنزل.. بخطوات قصيرة سريعة رشيقة.. أصبحت إلى جوار تحية.. يسبقها نهزداً متمردان مشرثيان نميا قبل ميغادهما كثيراً..

تشابكت الأيدي.. سارتا معاً على الطريق إلى المدرسة..

-.. كنت لازم أوصلك إمبراح يا سحر.. علشان إتأخرتى قوى عندنا..

.. ولا يهكم.. ما أنا قلت لماما..
 .. قلتى إنك جيتى معايا نوصل محمود؟؟..
 .. طبعاً.. هو إحنا غرب عن بعض يا تحية؟؟.. وبعدين محمود ده زى أخويا..
 وأونكل مختار زى بابا تمام..
 غمر تحية طوفان من الحنان.. فقد ضربت سحر على وترها الحساس.. اليتيم.... يتم
 سحر.. الذى غير قلوب أسرة مختار.. أصبحت سحر من خلال هذا المدخل.. وهذا
 المدخل فقط.. جزءاً من الأسرة..
 بدأت مجموعات التلميذات تتزايد.. يسرن فى مجموعات متشابهة.. متشابهة الأزرق
 اقتربت ليلي فهمى وصاحت.. سحر.. تعالى..
 .. تركت سحر يد تحية وألقت إليها بابتسامة.. ومالت فى اتجاه ليلي..
 .. مين يا سحر الضابط الحلو اللى كنتى ماشية معاه إمبارح ده؟؟..
 .. حلو يا ليلي والنبي؟؟..
 .. قمر.. والبدلة حاتنطق عليه.. واللا الكاب.. الكاب حاياكل من جبينه حته..
 لكزتها سحر وهى تكبح خروج ضحكة سعيدة.. حيلك.. حيلك..
 .. حيلي ده إيه يا بت.. هو أنتى ناوية تكوشى ع الكل؟؟..
 .. أكوش.. إيه أكوش دى يا ليلي..
 .. خشى فى عبي يا بت..
 .. أخش إيه.. وأكوش على إيه..
 .. إيه.. الواد جاركم ده بتاع معهد التربية.. إيه جاستعبطى؟؟..
 .. مين.. قصدك مصطفى؟؟..
 .. الله.. هو اسمه مصطفى؟؟.. اسمعى يا بت.. خليكى إنتى فى بتاع الكورة ده..
 وإدبنى الضابط..
 .. نعم يا ختى.. وتصاعدت الضحكات المكتومة..
 .. طيب بلاش.. هاتى بتاع الكورة.. وخليك الضابط..
 ضحكت سحر من الأعماق.. كأنها تردد كلمات حسن بك.. هو العمر فيه كام يوم

عشان نعيش في نكد؟؟..

سحر تحس بشكل ما بالضيق.. هي في السابعة عشرة.. تحمل على كتفها حملاً ثقيلًا.. إحساس مبكر بالهرم.. نتج عن الخوف المرضي من المستقبل إن قلق عنايات المزمّن وخوفها الدائم من انهيار مستوى معيشتها.. انتقل بشكل ألي إلى سحر.. فالقلق من الأمراض المعدية.. خاصة إذا كان مزمنًا.. الأمر الذي جعل تفكيرهن مبرمجاً بشكل طبيعي للبحث عن الحل.. والحل البديل معاً وفي نفس الوقت وعند مواجهة أى مشكلة.. مع جرس المدرسة.. انتظمت الفتيات في الفصول.. إلا أن طيف محمود مختار ظل مسيطراً على رأس سحر.. لا تدري هي كيف.. ولا لماذا..

إن القلب الأبيض الصغير.. قليل التجربة.. وقلة التجربة أقصر الأمور للضلال.. هي إلى جوار محمود تصبح في قمة السعادة.. وحينما تلتقى بمصطفى تطير من الأرض.. مع محمود تشعر بالأمن والأمان.. مع مصطفى تشعر بالحرية والانطلاق.. كل منهم يعطيها جانباً تحتاج إليه مصطفى يعطيها الابتسامة.. وأحلى الكلمات.. التي تفهم بعضها.. وتجهل ما وراء معظمها مع مختار تسبح في حلم المنزل.. والزوج.. والاستقرار.. لكن من تحب؟؟.. ما الحب؟؟ ما تقوله ماما.. البيت والزوج.. والفلوس.. والاستقرار؟؟.. أو ما تمارسه شوشو.. الانطلاق والضحك.. والملابس والسهرات.. والعمر فيه كام يوم علشان الواحد يعيش في نكد؟؟.. إنها يقيناً لا تدري حقيقة هل هي تحب أم لا؟؟

الحب عند عنايات.. يجب أن يكون خطوة على الطريق إلى الأمان.. حب ذى مدلول شامل هولامى.. غير محدد المعالم بشكل قاطع.. مرن.. ورغم هذه الهولامية إلا أن شروطه تكاد تعطيه شكل مجرد.. شكل مادي بحت.. ورغم حاجز الأمومة.. أصبحت سحر على يديها.. امرأة مضموناً.. امرأة تحاول أن تفكر.. وأن يكون لها منطقة حدود خاصة.. يدور في رأسها الصغير ألف سؤال.. هذه الأسئلة لم يكن ليستطيع الرد عليها إلا تانت شوشو.. المسافة العمرية بينهما لا تتجاوز الثماني سنوات.. ذلك بالإضافة إنها خالتها بحكم القرابة.. فهي الصديقة الكبرى بحكم الواقع.. هي التي أجابتها.. وأدخلتها إلى عالم المرأة.. ورفعت حجب الغيب والأحلام عن ثنائية العلاقة.. الرجل..

والمرأة.. تلك التركيبة العفوية غرست شيئاً في سحر.. القلق.. مع سنين الطفولة.. مع معرفة مبكرة لأسرار الجنس.. تلك الحياة مع أرملة ضجرة في جانب وزوجة كهل منغلقة إلى أبعد الحدود.. وكهل يريد أن يعيش بدون نكد بأى ثمن.. ومهما كان الثمن.. تحية كانت شاخصة ببصرها إلى السبورة السوداء تتابع خطوط متقاطعة لمثلثات ودوائر.. ترسمها مدرسة الهندسة.. أما رأسها فقد رحل بعيداً..

.. ودعت محمود.. الصديق والأخ.. لم تكن تقدر قبل الأمس كم كان هاماً بالنسبة لحياتها.. يوم كان محمود بالكلية الحربية كانت طفلة صغيرة.. وبعد تخرجه من الكلية وزياراته للمنزل كالضيوف.. تعودت على العلاقة البعيدة.. حتى بعد تخرجه سفره الدائم جعله بالنسبة لها ضيف.. هو أخ.. لكنه عملياً ضيفاً يأتى.. كى يرحل سريعاً.. أربعة أشهر قضاها محمود إلى جوارها.. يخرجان معاً صباحاً.. ويعودان ظهرًا.. تذاكر.. ويذاكر هو.. هالة الضيف التى كانت تحيطه.. إنزاحت قليلاً.. وظهر خلفها أخيها الإنسان.. تلك الساعة في يدها.. هدية محمود في عيد الميلاد.. بحكم النشأة لم تتعود على هدايا عيد ميلادها.. الأسرة لا تعرف الهدايا.. فقط تعرف الاحتياج ملابس.. كتب.. مصروف.. كل شىء مجاب وفي توقيته الملائم.. حتى الأساور الذهبية.. تشتريها أمها.. قائلة: علشان البنت تبقى مستورة..

أما الهديا.. فتلك أول مرة.. ومن أخيها..

انتهى اليوم الدراسى.. كما دخلتاه الصديقتان.. خرجتا منه.. لا يدريان شيئاً عما قيل.. افترقتا كما تجمعتا أمام منزل سحر.. وحثت تحية خطاها إلى المنزل..

ضغط على الجرس.. جاؤبتها وقع أقدام أمها.. فتحت الباب وقد غطت وجهها بالطرحة البيضاء.. أهلاً يا ضنيا..

قرأت في صوت أمها.. صدى دموع.. أو صوت الباب بشدة وألقت حقيبتها.. وألقت نفسها في أحضان أمها.. التى انخرطت في البكاء.. فبكت تحية هى الأخرى.. فبكاء أمها أمر فوق طاقتها على الاحتمال.. تلك السيدة.. دائماً ما تختزن أحزنها داخلها.. أما خارجها ولاسرتها.. فالابتسامة الدائمة.. من خلال دموعها راحت ترجو أمها..
-.. ماما.. والنبي.. ما تعيطيش.. بلاش عياط.. قوليلي مالك...

أبعدتها عنها.. وبطرف الطرحة مسحت دموعها.. وربتت ظهر ابنتها في حنان..
 -.. خلاص يا تحية.. أنا بطلت أعيط.. كفاية إنتى بقى..
 -.. طيب قوليلى.. فيه إيه..
 -.. أروح أجهزلك الغدا..
 -.. لا.. قولى الأول..
 جذبت أمها من يدها وجلستا على كنبه الأنتريه متجاورتين..
 -.. إيه بقى.. فيه إيه..
 -.. عمك يا تحية..
 قفزت تحية فزعة صائحة.. عمى شعبان؟؟.. ماله..
 -.. خدوه..
 -.. مين خدوه يا ماما؟؟
 -.. جه البوليس الحربى بالليل.. وحدوه ع السجن..
 -.. السجن ليه؟؟
 -.. آل م الإخوان المسلمين..
 -.. وهو عمى شعبان من الإخوان المسلمين؟؟
 -.. أبداً.. ده حتى عمره ماركعها..
 -.. وهما بياخدوا اللى بيصلوا بس؟؟
 -.. بيصلوا.. على ما بيصلوش.. أهم نازلين فى الناس لم..
 تلفت تحية حولها متوجسة.. أمال بابا فين..
 انخرطت فى بكاء مر.. ومن خلال دموعها إنسابت كلماتها ضارعة..
 -.. راح يشوف لعمك تصريفة.. وللا واسطة تطلعه م الرامية دى.. ورفعت يداها إلى
 السماء شاكية ضارعة..
 -.. ليه يارب بس.. ده إحنا بنعبدك.. وعمرنا ما عملنا فى حد حاجة وحشة.. نتبهدل
 على آخر الزمن.. يارب هات العواقب سليمة يارب..
 رن جرس الباب رنات متصلة.. قلقة.. فارغة الصبر.. نظرن معاً إلى الباب فى خوف

ووجل.. وارتفع صوت عليه بالدعاء والرجاء..

-.. يارب استرها معنا يارب.. يارب استرها معنا يارب..

نهضت تحية وفتحت الباب.. دخل الأسطى مختار مكفهر الوجه..

في الخمسين من العمر.. نحيف.. طويل القامة.. حفرت سون المعاناه أخاديد على
صفحة الوجه.. كأنها تتصافح متحالفة.. على تمزيق الملامح والوجدان..

بدأ وحيداً في هذه الدنيا بعد فقد أبويه.. حتى أصبح يملك ورشة خراطة يعمل بيديه
فيها.. عرف معنى المعاناة.. فتعلم كيف يمسح أحزان من يتعاملون معه..

ألقي بنفسه على أول مقعد.. وأخذ يجفف العرق المنهمر من خلاياه بالمطر.. أخذ
صدره يعلو ويهبط.. فأسرعت تحية بإحضار كوب من الماء.. ودفعها في جوفه مرة
واحدة.. ولا زال مستمراً في تجفيف العرق..

-.. خير يا ابو محمود.. عملت إيه؟؟

-.. خير؟؟ والخير حاييجي منين..

-.. عملت إيه..

-.. ولا حاجة.. وأنا حاقدر أعمل إيه يعني..

-.. طيب يا خويا.. قللي بس عملت إيه..

-.. م الصبح لف يا أم محمود.. لما رجلى ورمت..

جلست تحية تحت أقدام أبيها تفك عنه أربطة حذاؤه.. وحررت قدمي أبيها من
الحذاء والجورب..

-.. سألت الناس والجيران.. شكلهم إيه.. لا بسين إيه اللي خدوا شعبان قالوا شرطة
عسكرية.. رحت الشرطة العسكرية سألت.. محدش جاوب.. رحت القسم.. معندهم مش
فكرة.. النيابة.. ولا عندهم خبر.. ولاد الحلال دلونى ع السجن الحربى الى فى مدينة
نصر.. رحت..

-.. رحت السجن الحربى برجليك ياسى مختار؟؟

-.. آمال كنت أسيب أخويا مرمى.. فضلت ألف حوالين السجن.. لا عارف أكلم
عسكرى.. ولا أنا عارف أقابل ضابط.. إحترت يا أم محمود.. وإحتار دليلي.. رحت

راجع تانى.. وفضلت أدعى ربنا.. إنى ألقى محمد زميل محمود إبننا الحمد لله.. كلمته فى التليفون لقيته.. شرحت له الموضوع.. الرجل الله يكرمه كان لسة بشنطة هدومه واصل م السفر.. راح واخذ تاكسى وجيللى على طول.. خدنى ورحنا ع المخابرات..
-.. رحت المخابرات كمان.. والله حرام ياسى مختار..

-.. يا حاجة هو أنا رايح أسرق.. أنا رايح أسال عن أخويا.. المهم.. دخلنا مكتب آخر أبهة.. عليه يطلع ست سبع تليفونات إيشى أحمر.. وإيشى أبيض.. وإيشى له زراير.. قاطعته عليه محتجة نافذة الصبر.. إحنا دلوقت فى التليفونات.. وللا فى المخابرات؟؟

-.. المهم.. محمد ميل على الضابط اللى قاعد وكلمه فى ودنه كلمتين.. التقت الرجل وقاللى أقعد.. قعدت.. إيه الحكاية.. قلت له.. اسمه إيه.. ساكن فى.. يشتغل إيه.. قلت له.. وهو بيكتب قدامه كده فى ورقة صغيرة.. طلب نمرة تليفون.. وفضل يتكلم يطلع ربع ساعة.. وشوشه.. وأنا قاعد على نار.. عمال أدعى ربنا يسترها معانا.. المهم.. حط السماعة.. وراح قايل.. أخوك م الإخوان المسلمين يا حاج..
-.. مش معقول يا بيه.. ده شعبان لا يعرف فى الدين.. ولا يفهم فيه حاجة.. ده يا بيه.. عمره ماضى..

-.. ممكن.. يكون ما بيصلش قدام حد.. علشان يستر نشاطه؟؟
-.. يا بيه ده من البيت للورشة.. ومن الورشة للبيت..
-.. بيقد على قهوة.. مش كده..
-.. كلنا بنقعد على القهوة يا بيه.. يادوب الشيشة.. وكباية الشاى وسلام.. سلام..
-.. إيه الجمعية اللى اشترك فيها..
-.. جمعية.. جمعية إيه يا بيه.. ولا عندى خبر..
-.. لكن إحنا بقى عندنا خبر.. أخوك مشترك فى جمعية اسمها الجمعية الإسلامية للبر والإحسان..

-.. أبوه يا بيه.. ده صندوق بنلم فيه تبرعات علشان نشترى لمؤاخذه عربية حانوتى وخشبة.. اللى يموت م الناس الغلابة.. الصندوق يتولاه.. إكرام الميت دفنه يا بيه..

.. عربية وخشبة.. وللا أسلحة.. ومفرقات.. ومنشورات..

.. أسلحة إيه يا بيه.. علشان ندفن الغلاية..

.. عموماً.. التحقيق هو اللي يثبت الكلام ده.. وأنا قهمت من كلامك إنك إنت كمان مشترك في الجمعية دى.. صح..

.. مضبوط يا بيه.. أنا دفعت عشرة جنيه..

.. أه.. لولا إنك جى برجليك هنا مع النقيب محمد.. كان اعترافك ده كفيلاً يخليك تحصل أخوك.. لكن أنا بحذرك.. مالكش دعوة بأى جمعية.. خليك في حالك وبس.. وما تنساش إن ليك ابن ضابط تخاف عليه. يعنى تهمة زى دى.. توديك وتوديه في ستين داهية.. فاهم..

هزيت راسى إنى فاهم.. أخذ محمد يدى وقمنا نمشى وإحنا عند الباب سمعته يقول:

.. أخوك ده.. إنسائه خالص.. في الوقت المناسب حانديك خبر تحضر محاكمته..

فاهم.. إنسى خالص.. إنك جيت هنا.. أو شفتنى.. وخليك فاكرك كويس إننا بنعرف كل حاجة.. عن كل واحد..

صمت الأسطى مختار.. متعجباً كيف للمخابرات معرفة كل شىء.. عن كل إنسان؟؟..

كان جهاز المخابرات من التضخم بحيث كل فرد فيه يراقب الناس.. ويراقب في نفس الوقت زملاؤه.. فهذا الجهاز جزء من النظام.. ولكل نظام أجهزته.. وعلى حسب فلسفة كل نظام ولاستمرارية حياته.. تتحدد احتياجاته.. من النظم المساعدة.. وكان نظام المخابرات بهذه الضخامة.. يدل دلالة قاطعة على القلق.. القلق من بتر استمرار النظام الأكبر فجأة.. ولخفض احتمال المفاجأة.. فقد لزم نشر العيون والأذان في كل موقع محتمل أو غير محتمل.. للحصول على أدنى فكرة تحرك ضد النظام.. بكل وسيلة.. وبأى وسيلة..

.. ومن هنا يبدأ انهيار قيم الروابط الإنسانية.. فالرأى يكبت.. لأن مصيره الوأد.. وفي غياب الآراء الجيدة.. تسود الآراء العفنة.. وكل ذى سلطة يصبح فليسوفاً.. مفكراً..

ذلك لأنه لم يعد على الساحة رأى إلا رأيه.. ولا رؤية إلا رؤياه.. يتحول الشعب إلى قطعان.. تسير بعصا القيادة.. تنشُد متطلبات الحياة وبمرور الأيام.. تنمو القطعان.. وتتكاثر.. من حيث لا تدري.. كدفاع طبيعي لبقاء النوع.. الذى أصبح لا يفكر.. ولا يهتم بالآخرين.. ولا يعمل.. فهناك من يفكر بدلاً منه.. والكلام يصبح.. أجدى من العمل..

وتبدأ الشعارات فى الارتفاع.. عالياً.. وعلى أرض الواقع نقيضها.. يرتفع شعار الحياة.. وإلى جواره يتهاوى الناس.. يزدادون فقراً.. يرفع شعار العلم.. وسجن الفكر قائم.. تبرز من زوايا العدم.. وجوه بشرية.. تمسك المياخر.. والمسايح.. تسبح باسم قائد النظام.. اسطوانات تدور بالسِّن بها دماء.. لا تعى.. ولا تفهم.. وغير مطلوب منها.. أن تعى.. وأن تفهم..

وفى هذه المسيرة الجهنمية.. يتحول ذلك الجزء من القطيع الأعلى صوتاً.. والأقوى تصفيقاً.. من حُمَلائه صغيرة.. إلى كباش كبيرة.. لها القدرة الأكبر على الإجتراح واختزان.. كل القوة.. وكل الثروة..

فى ذلك اليوم الذى ألقى فيه بشعبان إلى السجن الحربى.. بات جلياً أمام أسرة الأسطى مختار.. إن القوقعة على الذات أمر مطلوب.. أما مساعدة الآخرين فأمر محفوف بالمخاطر.. فكان وعداً أمام الضمير.. نحن وإبننا محمود ومستقبله أولاً والناس لها الله..

حتى شعبان.. له الله.. وإن كانت مسألة مساعدة سرتة مالياً.. باتت هى الأخرى محفوفة بالخطر..

بعد سبعة أيام كانت وحدات اللواء.. مستعدة للرحلة الطويلة.. قمت بإخلاء السرية من الموقع.. وجمعت احتياجات كل طاقم مدفع فى رصات.. جلست مع الجنود فى انتظار قدوم السيارات لنقل السرية.. والانضمام إلى باقى السرايا.. لتسير الكتيبة كلها فى النهاية كطابور واحد.. أن أوان الرحيل أخيراً بعد سبعة عشر يوماً متصلة مع ساكنى القبور..

استعد الجنود للرحيل وتركوا إلى جوار دشهم مدافعهم المهجورة براعم خضراء..
فإن سلوتنا الدائمة في الصحراء.. هي البحث.. وبعث اللون الأخضر فيما حولنا..
تحويل صفرة الصحراء الأبدية.. إلى خضرة مؤقتة.. إن الجندي الفلاح حينما يؤخذ
بعيداً عن قريته ليعمل في باطن الصحراء.. تنتابه أحاسيس الاغتراب والضياح.. يمتلكه
شعور دائم بفقد عزيز.. في عقله الواعي قد يكون هذا العزيز الأب أو الأم.. أو الزوجة أو
الأولاد.. كل هؤلاء وإياه تلفهم خضرة الحقول.. فيكون أول ما يفعله هذا الجندي هو
غرس حبة فول.. أو بذرة خروع إلى جوار مدفعه.. يقطع من نصيبه قطرات من المياه
يروي بها النبتة الصغيرة.. وكأنه يزرع إلى جواره رائحة الأهل والأحباب.. وحينما
ترى عيناه البقع الخضراء تتناثر من حوله يشعر بالأمان وحينما ينام.. كأنه يستظل
بطيف الأصدقاء بالقرية..

أتت السيارات اللورى مثةرة سحابة الغبار.. توقفت كل سيارة أمام طاقمها دقائق..
وكننت على رأس سريتي في اتجاه قيادة الكتيبة.. فغداً نركب القطار إلى السويس..
بمجرد انحرافنا يميناً في اتجاه معسكرنا.. لمحت النقيب سميح يقف محاولاً بكل ما
أعطاه الله من قدرة على الصياح.. تكديس اللوريات في صحن أرض الطابور.. في حين
كانت السيارات تنهمر كالطر على طول الطريق.. أشار لي أن أقف بطابوري.. توقفت
بالسبعة لوريات.. منهم ستة يقطرون مدافع.. فكان الطابور طويلاً جداً.. ولما كان
المفروض الدوران مباشرة للدخول إلى صحن الكتيبة.. فقد انحرفت لورياتي يساراً..
وابتلعت أكثر من نصف عرض الطريق الضيق.. نزلت من اللورى.. ووقفت أدخن
بهدوء.. ناظراً إلى ما يحدث من دربكة أمام عيني..

سرعان ما أتى طابوراً لكتيبة مدفعية ميدان في الاتجاه المقابل.. حاول قائد الطابور
الاستمرار في المسير.. إلا أن ضيق الطريق أجبره على التوقف..

في نفس الوقت جاء من خلفي طابور آخر.. لكتيبة مشاه.. حاول المرور يساراً..
سياراتي.. فوقف وجهاً لوجه أمام طابور مدفعية الميدان.. ومن خلف طابور المدفعية
أتى طابور دبابات..

اختلط الحابل بالنابل.. وحدث الشلل التام.. توقفت جميع السيارات في تكديس

عجيب.. كاد ضباط المدفعية يمسون بتلابيب ضباط المشاة.. وهؤلاء يتصايحون مع ضباط المدرعات.. ترك النقيب سمير بوابة الكتبية الضاربة الفوضى.. متوجهاً إلى الضباط المتشاجرين يحاول إصلاح ذات البين.. إلا أن قائد كتبية المدفعية والذي كان عصبى المزاج صاح فيه أمام الحشد كله قائلاً:

-.. كله منك إنت.. مش عارف تسيطر على عشرة خمستاشر عربية وحاتودينا في ستين داهية.. علشان غبارتك..

لم يعطى فرصة الرد للنقيب سمير.. بل إندفع كالزوبعة ومعه ضباطه إلى مكتب قائد الكتبية الرائد ظريف.. الذى خرج دون غطاء رأس ممسكاً عصاته يرغى ويزيد صائحاً: يا تابعى.. يا رقيب تابعى..

-.. أفندم.. جاء الصوت المرتعش من أقصى المعسكر..

-.. تعالى.. إجمع هنا..

أتى التابعى مهرولاً ووقف قبالة الرائد ظريف رافعاً يده بالتحية العسكرية..
-.. إيه ده.. إيه الزحمة اللى إنت عاملها دى.. العربيات والمدافع متكومة كده ليه سبع أيام حبس.. وبعد خمس دقائق كمان إن ماكانتش العربيات دى تختفى من قدامى خمس أيام كمان..

-.. يا فندم سيادة النقيب سمير قال تقف هنا..

-.. خمس دقائق.. فاهم.. غور..

هرول التابعى صائحاً فى السائقين أن اتبعونى.. وقفز فى اللورى الذى يسد المدخل والطريق.. رجع للخلف قليلاً.. ثم دار فى مساحة ضيقة.. فاتحاً ثغرة فى التكدس الحادث.. واختفى خلف المعسكر.. ووراءه سيل من السيارات المكدسة بصحن أرض الطابور.. رجع مرة أخرى يعدو ليقف على البوابة.. ليقفز فى سيارتى ويقودها.. وخلفه باقى طابورى..

ماهى إلا خمسة دقائق حتى خلى معسكر الكتبية من تكدسه.. وبدأت طوابير المشاة والمدفعية السير فى سلاسة..

رمى الرائد ظريف النقيب سمير بنظرة نارية.. صائحاً: هو أنا.. لازم أعمل كل

غشى.. ما أقدرش أعتمد على واحد فيكم خالص.. أنا عاوز أعرف إنت شغلتك
 متيية؟؟ محسوب على بس رئيس عمليات؟؟..
 عملي نصيبه حضرتك عاوز تحاكمنى؟؟ كل الوحدات دى تتعطل يكون مين
 غيرى أنا؟؟.. لكن الحق على أنا لازم أشرف عليك فى كل حاجة..
 باقندم حضرتك قلت أنا عاوز الكتيبة كلها فى صورة طابور.. ومش عاوز أى
 تدخل جوة خالص..
 لبعأ.. حاتلاقى ألف حجة.. وحجة.. يا حضرة النقيب اللي عاوز يشتغل..
 شاييف.. مجرد شاويش.. قام بالشغل كله فى خمس دقائق.. وإنت بقالك
 ساعات بس معطللى الدنيا..
 أقندم أوامر سيادتك..
 راجل روح كده..

النقيب سمير حائراً يعتصره الألم.. ودخل مكتبه مرة أخرى..
 يب سمير من الضباط الذين يستفادون من تجاربهم.. وتجارب الآخرين.. فهو
 عند السلامة.. والسلامة هى.. رضى القائد.. فرضى القائد فى رأيه هو الطريق
 لارتفاع درجات.. وطريقة النجاح فى ذلك هو دراسة القائد عن كثب.. لمعرفة
 رغباته.. يأقلم نفسه بحيث يصبح مكملاً له.. وليس مساعداً.. فقدراته العلمية
 لا تسمح له أن يكون مساعداً للقائد فى شئون قيادة الوحدات.. أو الإحلال
 حالة غيابه.. فإذا ما غاب الرائد ظريف لسبب ما.. فالنقيب سمير هو القائد
 مانون.. ولكن للصدفة الغريبة.. يمرض سمير.. وتؤول القيادة إلى النقيب محمد..
 يع الرائد ظريف.. فيتولى القيادة.. ويشفى سمير.. وليس معنى ذلك إن النقيب
 أن خالياً من المواهب.. بل العكس هو الصحيح.. فهو مضياف وذواق من
 "ول.. له ذوق رفيع فى الإشراف على وجبات الطعام وتقديمها بطريقة جذابة
 ولا شىء يساوى تلك القدرات فى إضفاء لمسه من التحضر على الحياة الجافة
 الأهل والزوجة.. فالقائد يتفرغ للقيادة.. والتدريب.. والتخطيط.. ومناقشات
 ولا يحمل همماً للطعام والشراب.. وأمور الضيافة..

.. ولقد عرفت الرائد ظريف قائد الكتيبة خلال الاسبوعين الماضيين بشكل أكثر قرباً.. فهو رغم مظهره المتجهم دائماً.. يملك قلباً عطوفاً رقيقاً.. وفي رأسه عقلاً منظماً أفضل ما يكون النظام.. هو موسوعة علمية ثقافية أو يكاد.. دائم التفوق على أقرانه.. ورغم ميله إلى الصراخ.. إلا أنه لا يوقع جزاء.. ولقد كانت يد القط في توقيع الجزاءات في الكتيبة هي النقيب سمير..

لأول مرة منذ سنوات.. يجتمع ضباط الكتيبة كلهم مرة واحدة سوياً في الميس.. مصادفة لا تحدث إلا كل عدة أعوام.. وفي ظروف من العسير تكرارها.. رغم معرفتنا الجيدة بعضنا لبعض.. عبر المقابلات الثنائية.. أو عبر أسلاك التليفون.. في هذا المساء.. انضم إلينا ثلاثة وجوه جديدة.. ملازمان مجندان تخرجاً منذ أربعة أيام من كلية الضباط الاحتياط.. وملازم أول..

قام قائد الكتيبة بإعادة توزيع الضباط على السرايا.. وأشار إلى قائلاً:
-.. من النهاردة إنت يا محمود بتتفرغ لقيادة الكتيبة.. حاتمك الإشارة والاستطلاع زى ما إنت عاوز.. معاك مصطفى للحملة.. وفاروق للشئون الإدارية..
-.. شكراً يا فندم..

رن جرس التليفون الموضوع قريباً من يد القائد.. تناول السماعة.. واعتدل في جلسته.. وكل دقيقة كانت ملامحه تزداد توتراً.. انتقل توتره إلينا.. وأصبحنا وجدانياً نتابع المكالمات..

-.. أيوه يا فندم.. لا يافندم ماسمعناش الراديو.. سيادتك عارف طول النهار مشغولين في عملية التجهيز للتحرك باكراً.. إيه.. حاضر يا فندم.. مفهوم يا فندم.. مع السلامة..

تساقطت قطرات العرق من وجه الرائد ظريف.. وسقطت السماعة من يده.. بكلمات مترددة سأل النقيب سمير:

=.. خير يا فندم.. سيادة العميد طالب سيادتك ليه؟؟..

-.. الراديو أذاع في نشرة الساعة خامسة.. إن إسرائيل حشدت إحدى عشرة لواء على حدود سوريا.. وأن مصر سوف تقوم بواجباتها كاملة..

.. وقائد اللواء أصدر تعليمات برفع درجة الاستعداد القتالية..
ساد الميس صمت مطبق.. الكل في تفكير عميق.. في لا شيء..
إنهار حلم السفر الطويل.. وبدلاً من قتال القبائل المتمردة في اليمن.. يبدو أننا سوف
نقاتل جيش إسرائيل... -
إنبعث صوت وقوف دراجة نارية.. وبعد قليل.. دخل أحد جنود الشرطة العسكرية
توجه إلى الرائد ظريف مباشرة.. ونارله مظروف مغلق.. ودفتر صغير تناول قلماً ووقع
على الدفتر.. دار الجندي على عقبيه وانصرف بدراجته محدثاً ضجة كما جاء..
أصدر الرائد ظريف أوامر أن تعود السرايا إلى مواقعها مرة أخرى فوراً ثم إعادة
التجمع في الفجر باكراً.. للمسير إلى طريق رفح لاحتلال مواقعنا الحصينة في منطقة
جرادة.. وأمرني أن أظل مع الضابط عبد الستار الملازم أول الجديد والذي عين قائداً
للموقع بدلاً مني.. إلى أن يتم التحرك..
هدرت المحركات.. اشتعلت معسكرات العريش نشاطاً..
قفزت إلى جوار السائق وعبد الستار إلى جوارى يلازمى كظلي.. وانطلقت خارجاً
من البوابة كما جئت عائداً إلى نفس الموقع الذي تنفست الصعداء حينما غادرت.. على
ضوء مصابيح اللوريات لاحت الشواهد من بعيد.. وعلى سفح التبة أوقفت اللوريات..
انتشرت المدافع.. في شكل دائرة.. وبجوار كل مدفع الساندات الخشبية لصندوق
اللورى مغطاه بالمشمع.. كمبيت مؤقت للجنود..
عم أرجاء المقابر نشاط مفاجئ.. وقام الدسوقي بإقامة مشمع سيارتى على
الأرض وجهاز بداخلها زوج من البطاطين متقابلين لنومى وعبد الستار..
ارتكز عبد الستار على أربع ودخل زاحفاً إلى المشمع.. درت دورتين أو ثلاثة لتفقد
الموقع.. هدأت الحركة ووقف جنود الحراسة كل في مكانه.. زحفت داخلاً أسفل
المشمع.. مددت يدي في الظلام.. وفتحت حقيبتى.. تناولت منها الكشفاف الكهربى..
سبح الحيز الضيق في ضوء قوى.. تأملت عبد الستار الذى كان يتضجع على جانبه
الأيمن مرتكزاً على مرفقه.. قصير القامة.. ربع.. ذى شعر أجعد كثيف.. يصل إلى أسفل
الجبهة.. حاجباه ثقيلان معقوفان متلامسان فوق أنفه الكبير.. في حين أن فمه مستطيل

مطبق.. ورقبته غليظة قصيرة.. له أذنان كبيرتان.. تزددان كبيراً بشحمتي الأذن المتدليتان كالأقراط.. عيناه.. سوداوتان.. عميقتان.. فيهما شيئاً غير مريح.. بحيث كنت أشعر.. بنفاذ نظريتهما إلى ماتحت الجلد.. شئ ما في عبد الستار هذا جعلني أنفر منه.. رغم عدم سماعي صوته حتى هذه اللحظة.. كنت أتمنى أن يذوب هذا الجليد مع لحظات الود والتعارف.. فقلت:

.. أهلاً يا ح الضابط عبد الستار.. معلش بقى.. أصلك جيت في ظروف مش تمام..
والا كنا قمنا بالواجب..

لم يرد التحية.. لكنه أشار إلى خارج المشمع بيده متسائلاً:

.. دى مقابر يا مختار..

.. أيوه..

.. أنا لو كنت عارف كده ما كنتش جيت خالص..

افتعلت ضحكة قصيرة معترضاً

.. ما كنتش جيت؟؟ ده برضه كلام؟؟.. يعنى هو أنا اخترت المقابر دى تكون

موقع.. وللا خطة الدفاع هى اللى أجبرتنا على كده..

.. بس أنا بقى.. ما أروحش حتة مش عاوزها..

كان يتكلم بلهجة قاطعة.. ينهى مقطع الجملة.. وينظر مباشرة فى أعماقي.. ترتفع أذناه.. ليلتقط سؤال التالى.. ليقذف بالرد قذفاً فى وجهي.. لم يكن يتكلم كما يتكلم إبراهيم.. أو النقيب محمد.. كان كلاماً.. مختلفاً.. ومنطقاً مختلفاً.. ولم يكن هناك ما يقال.. قطع رده البارد شحنة الحرارة التى حاولت إدخالها إلى مهجعنا الصغير.. ضغطت زر المصباح.. فعم الظلام..

.. تصبح على خير.. أدت له ظهرى محاولاً النوم.. وأحس وكأن نظراته تخترق ضلوعى.. وصوت أنفاسه تتردد.. مع السكون المطبق تحولت زفراته إلى سمفونية شيطانية من الشخير الرتيب..

.. مع خيوط الفجر.. كان لا يزال فى سبات عميق.. خرجت زاحفاً.. أستنشق هواء الصباح.. جاء أحد الجنود بصفيحة مملوءة بالماء.. وزحف إلى حيث كنت أنام وخرج

وبيده الفوطه والصابونة.. إنحنيت مباعداً ما بين ساقى فأخذ يصب الماء البارد على رأسى.. سرت برودة الماء إلى رأسى فضاع منى طعم النوم.. وجففت رأسى وأخذت أدخن..

ناديت الرقيب دسوقى.. الذى جاء نشيطاً يضرب الأرض بكعب حذاءه.. وأصدرت أوامر بدء التحرك..

راح يرفع أطراف المشمعات صائحاً زاجراً المتكاسلين.. خرج الجمع المتكاسل واصطف في صورة طابور.. قررت أن أتطوع بإخبار الجنود ماذا يدور حولهم.. فقد علمتني التجربة.. أن الجندى يجب أن يعرف.. مباشرة من قائده.. فإنه لو عرف لعمل بطاقة أكبر.. ووعى أعمق.. وإن تجاهله ضباطه.. فهو لا محالة سوف يستقى الخبر اليقين من مصادر أخرى..

وقفت أمام الطابور وصحت منادياً.. سرية.. صفاء.. إنتباه..

طبعاً كلكم عارفين إننا المفروض النهاردة كنا نسافر ع اليمن.. لكن درجة الاستعداد القتالى ارتفعت إمبراح.. والنهاردة بإذن الله.. الكتيبة كلها.. واللواء كله حايتحرك إلى مواقعنا في جريدة.. عاوز إنضباط.. البلد باين عليها داخلة حرب.. و... قطع على حبل أفكارى صوت خطوات آتية من خلفي.. درت دورة سريعة فلمحت عبد الستار.. يسير في تمهل وقد وضع يده في جيوبه.. وأخذ ينظر إلى حذاءه.. استطردت قائلاً: حضرة الضابط عبد الستار.. ضابط جديد في الكتيبة.. وهو من النهاردة.. قائد السرية بدالى..

ثم وجهت كلامى إلى الدسوقى قائلاً.. إبعث دلوقت هات التعيين.

وفوراً عاوز السرية تكون جاهزة للتحرك.. إنصراف..

ركض الجنود في اتجاه المشمعات.. وخلال دقائق كانت الوريات محملة.. والمدافع مجرورة.. والأرض فضاء..

جاء السمان مهرولاً.. والتليفون تحت إبطه والسماعة في يده.. صائحاً:

-- سيادة القائد عاوز سيادتكم.. تناولت السماعة من يده وتكلمت مع الرائد

ظريف.. الذى أمرنى أن أترك السرية تحت قيادة عبد الستار وأتوجه إلى قيادة الكتيبة فوراً..

بسعادة بالغة أمرت أحد الجنود بتجهيز متعلقاتي الشخصية وقفزت إلى أحد اللواري أمرأ السائق التوجد بى إلى الكتيبة.. والعودة مرة أخرى.. لم ينطق عبد الستار بحرف واحد منذ أمس.. مع بدء تحرك اللورى.. فوجئت به يقفز إلى جوارى كقط البرارى أمرت السائق بالتوقف منزعجاً.. ووجهت كلماتى إلى عبد الستار:

-- رايح فين يا حضرة الضابط..

-- قيادة الكتيبة..

-- يا عبد الستار الحالة طوارىء.. ومش ممكن تسبب السرية وتمشى..

-- فى داهية الموقع بعساكره بمدافعه مش قاعد فى المقابر دى ولا دقيقة واحدة..

-- يا عبد الستار يمكن تتحاكم كده..

-- للجدع يحاكمنى..

-- إئت حر.. ذنبك على جنبك..

أشار إلى السائق قائلاً: خليه يطلع..

-- إطلع يا بنى..

سار اللورى يشق الغبار متوجهاً إلى قيادة الكتيبة.. كنت سعيداً إذ وقع هذا العبد الستار فى شر أعماله.. فلاشك عندى أن الرائد ظريف سيوقع به الجزاء الرادع الفورى حينما يعلم بتركه موقعه دون أوامر..

وصلنا إلى مقر القيادة.. قفزت من اللورى قبل إكمالهِ الدوران.. ركضت إلى مكتب القائد.. كان يتكلم فى التليفون باهتمام شديد.. فى حين راح النقيب سمير يتابعه مشاركاً.. وجدانياً بتعبيرات الوجه.. المتوافقة مع انفعالات القائد.. ما أن وقع بصره على حتى وضع راحة يده على ميكرفون التليفون قائلاً: أقعد ع التحويلة.. واشتغل عليها بنفسك.. اتفضل.. خرجت من مكتب القائد.. ورحت أتسكع بين المكاتب فى حين دلف عبد الستار إلى مكتب القائد.. وأخذت أنتظر عاصفة التقرير.. وخروج عبد الستار محسوراً مقهوراً مطروداً ولكن طال انتظارى..

شدت خطاى إلى غرفة التحويلة.. وماهى بغرفة..

حفرة رطبة كالحلج الجدران.. ذات سقف من الحديد المقوس المغطى بخيش مقطرن أسود. في مواجهة الباب تحويلة صغيرة ذات عشرة خطوط تليفونية متصلة بتحويلة أخرى بواسطة سلك للاستعاضة عن تحويلة أكبر.. وأمام المنضدة دكة خشبية بدلاً من الكراسي.. وعلى اليمين لوح من البلاستيك الشفاف مثبت على حامل خشبي مرسوم عليها خريطة ودوائر حمراء وزرقاء تمثل مطارات إسرائيل.. ومطاراتنا.. وخلف الخريطة يقبع جندي بيده قلم شمعي أصفر اللون وعلى أذنيه سماعات رأس تتصل بجهاز استقبال لاسلكي.. حيث يقوم بتسجيل خطوط سير الأهداف الجوية.. الصديقة منها.. وتلك الخاصة بالعدو..

جلست على الدكة مواجهة التحويلة.. فتحرك الجندي المكلف بالخدمة يساراً ورجحت أحملي في البوابات الصغيرة التي تسقط إذا ما طلب أحدهم المخاطبة.. كذلك الساعات التي يخرج منها ديك عند كل دقة ساعة..

سقطت البوابة الصغيرة المكتوب عليها.. القائد.. دخلت على الخط قائلاً:

..أفندم..

..إديني الملازم إبراهيم عثمان فوراً..

طلبت إبراهيم وأوصلته بالقائد.. واستغرقت تماماً في عمل السويتش..

بعد نصف ساعة جاءني إبراهيم حزينا يحمل حقييته.. وقد تدلت كتفاه كالعجائز.. ابتدرته منزعاً.. خير يا أبو خليل.. مالك..

..أبدأ.. افتقلت من سريتي.. وحاروح سريتك إنت..

..ليه.. عبد الستار خلاص استلامها..

..لا.. القائد اتصل بي حالاً.. فقال لي أسلم كل حاجة للضابط شكري الضابط

المجدد الجديد.. وأروح فوراً سرية الرشاشات..

أصبحت في قمة الانفعال والسخط.. فوجدتني أصبح قائلاً:

..يا أخي أنا مش عارف البني آدم عبد الستار ده إيه؟؟ رزل كده.. وسمع.. ودمه

تقيل على قلبي.. ساب الموقع ومشى ولا همه.. كأن الجيش ده بتاع أبوه.. أقوله

حتتاكم يا عبد الستار.. يقول.. الجدع يحاكمني؟؟؟

.. أيوه يا سيدى.. أصله.. كوسة..
 .. كوسة.. كوسة إيه..
 .. واسطة يا سيدى.. قريب قائد المدفعية اللي في مصر.. وكان بعته علينا في الكتيبة
 علشان يروح اليمن ويستفيد..
 .. وكان في أنهى داهية قبل ما ينحدف علينا..
 .. كان في سكرتارية الإدارة يا سيدى..
 تساءلت عن تلك القوى التي يملكها عبد الستار ليحرك نفسه في وحدات الجيش في
 الوقت الذي يريد.. والمكان الذي يختار.. في حين إننا جميعاً نسير على الخط المستقيم
 والويل لنا إن نحن تجاوزناه قيد أنمله..
 .. والبيه بقى حايشتغل إيه؟..
 .. حايقعد مؤخرة في العريش بعدما ننتقل موقع جراداة..
 معنى ذلك أن عبد الستار لن يشارك في رحلة احتلال موقع جراداة..
 وأعمال الحفر والتجهيزات الهندسية والتعب المقيم بل سيمكث في قيادة الكتيبة
 حيث النوم على السرير.. والطعام الساخن.. والماء القراح غير المخلوط بالسولار
 والبنزلة لا لسبب إلا لأنه قريب قائد المدفعية في القاهرة..
 .. معلش يابو خليل.. السرية كويسة.. والعساكر ممتازين.. ومعاك الرقيب
 دسوقى.. راجل صعيدى جدع من الى تقدر تعتمد عليهم.. وخلاص أديك حاتمشى من
 المقابر الى مخوفاك.. وخلي عيد الستار هنا.. بإذن الله الفئران تاكله حته.. حته..
 خرج إبراهيم.. متوجهاً إلى موقع سرية الرشاشات.. تكلمت مع الرقيب دسوقى
 أوصى بإبراهيم خيراً..
 لمحت راديو ترانزستور خلف التحويلة.. رحت أعبث به حتى انطلق صوت أحد
 المذيعين المشهورين بالحماسة.. يلقي خطبة طويلة.. انتظاركاً للمؤتمر الصحفى الكبير
 الذى يعقده السيد رئيس الجمهورية.. والذى يرد فيه على تساؤلات العالم بالنسبة
 لتأزم الموقف على الحدود العربية الإسرائيلية.. المذيع كان معبراً.. صوته يتدفق حماسة
 مشيراً إلى أوجه قوة الجيش المصرى.. والجيش العربية.. انتقلت حماسة النبرات عبر

الأثير لتشعل النيران في أجسادنا.. وتكلم الزعيم.. الصوت القاطع الواثق.. المعبر.. يتحدى إسرائيل.. ومن يقف وراء إسرائيل.. فنحن طلاب حق.. وحققنا حق حياة.. وإن طلبوا الحرب فنحن لها.. إن حاربونا في الأرض حاربناهم في الأرض والبحر والجو أيضاً.. نسيت نفسي.. نسيت إبراهيم.. تلاشت صور الأحباء من مخيلتي.. أمي وأبي.. وأختي وأصدقائي.. حتى شبع وصورة عبد الستار نسيتها.. تلاشت المرنثات والذكريات.. أصبحت لا أشعر حتى بوجودي ذاته إلا من خلال نبرات الزعيم.. توالى أسئلة رجال الصحافة.. تقابلها ردوداً حاسمة قاطعة سافرة من شفاه الرئيس امتلات روحى حماسة.. سرى الخدر في أوصالي.. ورحت أعلو.. وأعلو.. واتسامى.. أصبحت أكبر حجماً مما أنا بكثير.. أكمات سترتي ضاقت فجأة.. وبرزت من خلالها عضلاتي النابتة تواء فجأة مع كلمات الرئيس.. لم أكن أتصور أنني أنتمى لجيش هذه قوته.. وتلك قدرته.. كم نحن أقوياء لكننى لا أدري.. دارت في رأسي معركة ومعركة.. أخرج منها منتصراً.. رافعاً راية مصر عالية خفاقة.. وجسدى مخضب بالدم..

رحت الهم كائننى أعدو في سباق طويل رغم جلوسى.. أظعن بالسونكى وألقى القنابل اليدوية.. مدافعنا تضرب طائرات.. تنفجر في الجو.. أو تهوى على الأرض حطام.. تحت خوزتى الصلبة أحمل ظلال الأمل.. والرجاء لمصر.. وللعرب.. إن شعوراً بالفخر والقوة والجبروت ملأنى.. هل ممكن لإسرائيل أن تفكر في محاربتنا.. اليوم.. منفردة؟؟

ليت الحرب تأتي.. لتكون حرباً مقدسة.. حرب إبادة.. لتلقى بإسرائيل في البحر ونرجع الفلسطينيين إلى أراضيهم.. صاح أحد الجنود فرحاً..

-.. الله وأكبر.. الله أكبر.. أهو كده يا ريس..

لم أعلق.. لكننى رميت الجندي بنظرة استحسان.. تبعته موجة عارمة من الهرج والفرح.. قفز على أثرها جندي اللاسلكي يلقي السماعات عن رأسه ويتعانق مع زملاؤه فرحاً.. بالانتصار القريب.. إحساس طاغ بالقوة ملأ النفوس.. وأعطاهم جرعات مركزة من النشوة والأمل..

انتهى المؤتمر الصحفي.. وأخذ المذيع المشتعل حماسة بعيد من كلمات الرئيس

فقرات.. وفقرات.. نسمعها.. وكأنها جمرات نار تلقى في دوراتنا الدموية فتشعل
القلوب ناراً.. واندفاعاً.. فداءً للزعيم.. وللوطن..

إنتابت بوابات التحويلة فجأة موجه نشاط غير عادية.. كل الخطوط تتكلم مع
بعضها البعض.. وكان عدم سماعى لكلمات من هنا.. ومن هناك أثناء عمليات التوصيل
أمرأ مستحيلاً.. كانت جميع المكالمات تدور حول خطاب الرئيس في المؤتمر الصحفى
الكبير.. الكل سعيد.. الكل فرح.. الكل يشتعل حماسة.. الجميع إنتابتهم حمى الرغبة
العارمة في القتال فوراً.. تحولنا إلى مرده.. أسود جسورة مربوطة في سلاسل قوية
تريد الفكاك..

— جاءت من قيادة اللواء إشارة تعلن أن التحرك فوراً إلى جردة.. في طريق العريش
رفع.. ودارت عجلة الجيش بكل قوتها.. وسرعتها..

رن جرس الباب.. هرولت سحر وفتحت.. دلفت شوشو هانم وأوصدت الباب
خلفها بشدة.. طبعت على خد سحر قبلة سريعة.. كطابع البريد..
عنايات هانم تجلس في روب منزلى أنيق.. من الساتان المحلى بإطار دانتيل أبيض
متماوج.. وتحت إبطيها إبرتا تريكو وبين ساقها كرة كبيرة من الصوف وإلى جوارها
بداية بلوفر تعمل فيه بهمة ونشاط.. انزلقت نظارتها الطبية حتى وصلت إلى أرنبة
أنفها.. فبدت عيناها مع انكسار الضوء أكثر إضراراً مما هي فعلاً.. تقدمت إليها
شوشو مادة ذراعيها منحنية تحتضنها قائلة:

—.. إيه يا أختى.. معرفش أخباركم غير من حسن وللا إيه؟؟..

لأزالت سحر ممسكة بيد شوشو.. التى أردفت.. شوية يا سحر.. لما أشبع من
ماما.. ضحكك سحر قائلة:

— ما أنا عارفة.. يبقى حانقعد للسنة الجاية.. خلو شوية عواطف لبعدين.. ضج
ثلاثتهم في الضحك.. جلسن متقابلات.. يتبادلن النظرات الصامتة..

—.. إيه يا عنايات.. لا سؤال.. ولا حتى تليفون.. أسبوع ما أعرفش عنكم حاجة؟؟..
غطسانة فين؟؟..

-.. أبدأ يا شوشو.. أصل كمال الأيام دى هنا.. تلاقينا ملبوخين.. ومشغولين ع الآخر.. نطقت عنايات بتلك الكلمات.. وعلت وجنتاها حمرة مفاجئة.. ولم تخب تلك التغيرات عن عيني شوشو الخبيرة.. فجوابتها بنبرة ذات معنى قائلة:

-.. ما كمال طول عمره بيبجى.. اشمعنى المرة دى فيه دربكة.. يكنش؟؟.. وغمزت بعينها غمزة ذات معنى..

لقد كانت عنايات سامة.. لا تود أن تفكر..

إن كمال مصدر دخل الأسرة ذلك الدخل هو حق لها وابنتها وهى على وعى كامل بذلك.. ولكن هل كل صاحب حق يمكنه الحصول عليه؟؟

إن النوايا مهما كانت مخالصة أو طيبة لا يمكنها حل مشكلة.. ناهيك عن الدخول فى صراع وكسبه إن النوايا الطيبة سبب بلا فعل يرهق كاهل حامله ولا نفع منه.. حقها وحق ابنتها فى ميراث زوجها الراحل مجرد مقبض السيف أما النصل فقد كان كمال.. كلما قامت عنايات بشحنة.. كان أكثر مضاء.. أى أكثر سخاء.. فكانت مضطرة إلى شحذه.. عن طريق المداينة وإرضاءه كانت إشارة شوشو تلك هى صب الزيت على النيران المشتعلة فعلاً.. فزادتها اشتعالاً..

إن شوشو فى رأى عنايات لازالت صغيرة.. لم تجرب قسوة الحياة وشدتها.. إذ كيف لها معرفة مشاكل عنايات؟؟..

إن لها زوجاً ثرياً.. يملك عربة أتت لها مسكناً فاخراً.. حتى إن مات فسوف تراث مالاً وفيراً.. ومعاشاً كبيراً.. يغنيها دائماً عن التفكير فى الغد.. إنها لم ولن تفكر فى معنى نفاذ المعاش فى منتصف الشهر.. وإحصاء الأيام الباقية لإعادة دورة القبض لشهر آخر..

تلك الحسابات التى تصدع رأس وزير مالية لم تجربها.. فإدارة حياة كتلك هى أقصر طريق لانقصاص العمر.. دائماً فى انتظار أول الشهر.. فكل شهر يمضى لن يعود.. يرحل.. ويأخذ معه شهراً من العمر.. وقطعة من النضارة والشباب لذلك فهى لن تفهم مطلقاً طبيعة العلاقة مع كمال.. بكل رفضه لهم.. واحتياجهم إليه..

مالت شوشو بدلال على سحر.. والنبي فنجان قهوة من إيدك الحلوة يا سحر..

نهضت سحر.. واختفت خلف الجدران..

قفزت شوشو قائلة: التليفون.. حملت التليفون وسحبت السلك ورائها إلى الصالة..
في حين راحت عنايات تنهمك مرة أخرى في أعمال التريكو.. عادت سحر تحمل صينية
عليها فنجانان من القهوة.. وضعتها على منضدة صغيرة بالقرب من أمها قائلة:
القهوة.. يا ماما..

انبعث من الصالة صوت ضحكة مكتومة وصوت شوشو يحاول الهمس وإن سمع
الاثنان محادثتها.. جاية.. خلاص حأجي.. نص ساعة بالكثير.. وعادت تاركة التليفون
في الصالة.. تتهدى فوق حداثها ذى الكعب العالي والواصل إلى ماتحت الركبتين..
تبادلت المرأتان نظرات منقطعة.. كإشارات التلغراف.. وكأنهما يتبادلان حديثاً
مركزاً.. وصلت رسالة عنايات إلى شقيقتها الصغرى كاملة.. فلم تملك شوشو إلا الرد
المقنع..

-.. هو إحنا حانعيش كام مرة.. نعيش في نكد ليه.. هو العمر فاضل فيه كام يوم؟؟
قالت تلك الجملة محاولة تقليد طريقة وصوت زوجها حسن بك..
واستطردت.. -.. مش هود ده كلامه..

ابتسمت عنايات.. وضجت شوشو بالضحك..
رن جرس التليفون رنات طويلة.. متصلة.. ألقت عنايات شغل التريكو من يدها..
ووجمت شوشو قليلاً ثم صاحت: ده تركك..
اردفت عنايات متوجسة.. يارب اجعله خير..

هرولت سحر إلى التليفون ترفع السماعة.. -ألو.. أيوه.. النمرة صح.. العريش..
قفزت من الأرض فرحة صائحة.. ده لازم حمود يا ماما.. لازم محمود..
-.. طيب على مهلك شوية.. هاتى التليفون هنا..
-.. إزيك يا محمود.. عامل إيه..

راحت المرأتان ترقبان سحر.. وكلهن أذان صاغية.. وحملت لها شوشو كرسيّاً
تجلس عليه..

-.. أيوه يا محمود.. كلهم كويسين.. أخبار.. أخبار إيه.. إحنا ما بنشترش

جرايد.. لا.. كلهم كويسين وبيسلموا عليك.. عاوز تكلم ماما وبابا وتحية.. إمتى..
 حاتتصل تانى النهاردة.. الساعة كام.. حاضر.. حالبغهم.. حاضر.. حاضر يا محمود..
 حايكونوا موجودين.. مع السلامة.. مع السلامة..
 -.. كان عاوز إيه يا سحر..
 -.. أبداً يا ماما.. ببسلم عليكى.. وعاوز يطمئن على مامته وباباه وأخته تحية.. وهو
 حايكلم النهاردة بالليل الساعة ثمانية..
 تابعت شوشو الحديث دون دراية بالموضوع.. فتدخلت قائلة:
 -.. حافضل أنا زى الأطرش فى الزفة؟؟ مين محمود ده؟؟
 -.. حضرتك متعرفيش محمود يا تانت..
 -.. لايا تانت معرفوش..
 تدخلت عنايات فى المناقشة دون اهتمام متعمد قائلة:
 -.. ده واحد ضابط أخو واحدة صاحبة سحر.. ناس جيران من زمان.. إنما طيبين
 خالص..
 -.. وإنتى يا عنايات عملتى بيتك مكتب تليفونات؟؟ ده إيه الكرم اللى على سهوة؟؟
 ده إنتى ياختى محرمة الجيران تدخلك..
 -.. لا.. بس الناس دول حاجة ثانية..
 -.. لابقى.. أفهم.. ووضعت سبابتها اليمنى فى جانب رأسها..
 -.. أبداً والله.. مفيش..
 -.. ما أنا عارفاكى.. الواحد مايخدش منك عقاد نافع..
 تناولت شوشو فنجان القهوة.. شربته على دفعتين وردته إلى الصينية مرة أخرى
 ومدت يدها تتناول يد سحر جاذبة إياها إلى حجرة النوم.. قائلة:
 -.. تعالى يا بنتى.. إنتى اللى أعرف أتكلم معاكى فى البيت ده..
 بسرعة تخلصت شوشو من حذائها الطويل وملابسها.. ولم يتبقى سوى ملابسها
 الداخلية.. استلقت على السرير.. وابتدرت سحر..
 -.. يه.. إحكى لى..

كان الضباط ذوى جاذبية خاصة بالنسبة لها.. كانت تحلم أن تتزوج ضابطاً.. لم يكن فارس أحلمها.. إلا ضابطاً ذى نجوم لامعة وشوارب مفتولة.. وحيثما نضجت تبلورت أفكارها.. أصبحت عملية.. وتركت أحلام اليقظة وفارس الأحلام اقتنعت أن أفضل زوج لامرأة هو أن يكون ضابطاً.. فالزواج منه يحقق للمرأة ما تنشده.. فيكون زوجاً صحيح البدن قوياً.. قام الجيش بالنيابة عنها بفحصه طبياً.. فهو سليماً معافياً يملأ العين.. والوجدان.. تلد منه أطفالاً أصحاء أقوياء..

وإن كانت تنشد رجلاً مستوراً في دينته وبعد مماته فهو أيضاً يحقق لها هذا الهدف.. بمرتبة الكبير حياً.. ومعاشه الأكبر ميتاً..

كانت لها تجربة خاصة مع أحدهم.. تعارفت عليه وأحبته قبل زواجها.. حيث كان في القاهرة للدراسة.. وكملبغ في حياتها فجأة.. اختفى فجأة.. وقد أخلف ورائه ضحكة طويلة.. تعلمت الدرس ووعته.. وأصبحت حذرة على الدوام.. من كل من يضع نجوماً على كتفيه..

إلا أن طيف ذلك الضابط المختفى لا زال يداعب وجدانها مابين الوقت والآخر.. وكثيراً ما قارنت لمسات زوجها الباردة الخشنة.. بلمساته الحارة الناعمة التي تغور منها الدماء..

-.. أبداً يا تانت ده ضابط آخر تحية صاحبتى..

-.. كويس.. إيه التليفونات.. وبابا.. وماما..

-.. بيتكلم من العريش.. وعاوز يكلم أخته وباباه.. وبيقول إن الحرب حاتقوم:

-.. مالناش دعوة بالحرب.. أمه وأبوه ببيجوا هنا ليه؟؟..

-.. الله يا تانت.. صاحبتى..

-.. إنت حاتلعبى على؟؟.. قوليلى يا سحر.. بتحبيه..

-.. والله مش عارفة يا تانت.. لما بيكون معايا.. بأحس إنى مش عاوزة أسويه.. ولما سافر.. مش عارفة بقى..

-.. إنتى كلمتينى عن واحد اسمه مصطفى فى معهد التربية.. أخباره إيه؟؟..

-.. جاءنا.. صباح الخير.. صباح الخير..

-.. بس أول إمبارح أنا شفتك معاه..
-.. أه.. قابله في السكة مشينا مع بعض لغاية هنا.. كان بيوصلني..
-.. طيب.. بتحيه؟؟..
-.. والله برضه يا تانت مش عارفة.. مصطفى حاجة.. ومحمود حاجة ثانية
مصطفى دايماً بيضحك.. محمود على طول مبوز.. مصطفى باحس إنه زى الزيق
محمود باحس إنه صريح وواضح كده..
-.. المهم.. إنتى بتميلى لمن فيهم أكثر..
-.. مش عارفة يا تانت.. بس ماما بتقول إن محمود مناسب للجواز إيه رأيك إنتى
يا تانت..
-.. هو اتكلم رسمى..
-.. لأ..
-.. أمال جواز إيه..
-.. ماما بتقول مش عاوزينه يطير من إيدينا..
-.. كويس.. والمطلوب منك إيه؟؟..
-.. ماما قالت لى لما يكون موجود في مصر.. لازم أروح عندهم كثير.. وأخرج معاه..
علشان أفهمه ويفهمنى أكثر..
-.. وإننى.. رأيك إيه؟؟..
-.. لما كان في مصر.. كان كل يوم بيقتلنى في حته.. وكنت مبسوفة..
-.. صاحبك تحية مالمحتش بحاجة كده.. ولا كده؟؟..
-.. أبداً يا تانت..
-.. طيب يا سحر.. خللى بالك من نفسك كويس.. الجواز مش كل حاجة والحب
برضه مش كل حاجة.. خليكى ماسكه العصا يا م النصف..
-.. مش فاهمة..
-.. أهو الضابط محمود موجود.. وإن ماكانش.. يبقى مصطفى موجود.. فاهمة يا
بنت..

وأخذنا في الضحك.. نظرت شوشو إلى ساعة يدها.. وقفزت مهرولة ترتدى ملابسها.. واندفعت خارجة.. ووراثا سحر.. تناولت حقيبة يدها.. واندفعت إلى الخارج رافعة يدها قائلة: باى..

انطوت سحر على نفسها تفكر في كلمات شوشو.. لم تساعدنا في الوقوف على أرض صلبة.. لقد تكلمت معها وهي عائمة على سطح الماء.. وتركبتها وقد سبحت في الهواء.. أخيراً.. توقفت عن التفكير تاركة مركب الحياة تسير.. تدفعها رياح الأمل والصدفة إلى حظها في الحياة..

جلستا متقابلتين يتناولان طعام الغذاء.. وقد أطبق صمت كامل على أرجاء المنزل.. إلا من صوت المضغ المتأد..

-..بعد الغدا يا سحر.. تقعدى تذاكرى.. وبعدين تروحي عند تحية.. علشان المكالمه بتاعة محمود..

-..حاضر يا ماما..

نهضتا واجمعتان.. عنايات إلى المطبخ.. وجلست سحر إلى منضدة صغيرة تذاكر.. أو تفتح كتاباً تنظر فيه..

في السادسة هرولت إلى الشارع شدت الخطى إلى منزل تحية.. ألقت نظرة عابرة إلى شبك مصطفى.. متمنية ألا يكون واقفاً هناك.. حتى لا تتأخر حتماً عن إبلاغ الرسالة.. طرقت الباب.. فتحت تحية وأدارت ظهرها فوراً قائلة: انتفضلى.. وصلت إلى غرفة الصالون وجلست تحية إلى مكتبها الصغير.. وإلى جوارها سحر.. اشتتمت رائحة غير عادية من التوتر تحيط بالعائلة..

الراديو صامت أمام تحية على غير العادة..

-..مالك يا تحية؟؟

وكأنها مستعدة للسؤال.. أخذت رأسها بين راحيتها وانخرطت تبكى.. ربت سحر رأس صديقتها في حب وحنان حقيقى.. وبدأت هي الأخرى في البكاء السريع.. حيث كانت من ذوات الدموع القريبة..

-..موضوع عمك شعبان برضه يا تحية؟؟

.. عم شعبان إيه .. إحنا دلوقت في محمود..
 غاصت روح سحر بين ضلوعها.. ماذا عساه يكون قد حدث لمحمود؟؟..
 لقد حادثته منذ فترة قليلة..
 قفزت سحر-صائحة.. محمود.. ماله؟؟.. ده لسه مكلمنى من العريش من شوية..
 رفعت تحية رأسها.. وغاصت الدموع من مآقيها.. وبدأت في الابتسام..
 تدفقت السعادة إلى العيون الحزينة فزادتها بريقاً.. تحول البكاء إلى ضحك.. ثم إلى
 حركة.. جذبت سحر تقبلها.. وساياني وساكته.. ماقلتيش ليه من أول مادخلتى..
 قفزت تحية صائحة.. ماما.. ماما.. بابا.. بابا.. وجرت إلى حجرة أبيها الداخلية تزف
 إليه خبر مكالة محمود..
 ماهى إلا لحظة حتى دخل الثلاثة مهرولين إلى حيث سحر.. أنست المفاجأة الحلوة
 الأسطى مختار وضع قدماه في الشبشب..
 لم تتمكن عليه من إحكام ربط الطرحة على شعرها.. بادرته قائلة.. قولى يا سحر..
 اتصل إمتى.. الساعة كام.. قال إيه.. صحته عاملة إيه.. وإيه حكاية الحرب دى.. قولى
 يا سحر.. قولى كل حاجة علشان أطمئن.. سيطر الأسطى مختار على أعصابه.. وأزاح
 يد زوجته عن كتف سحر.. وأمسك يدها الصغيرة.. وقادها إلى كرسي..
 .. أقعدى يا بنتى.. أقعدى يا سحر.. اتصل إمتى؟؟..
 .. الساعة اثنين يا عمى..
 احتجت عليه صائحة.. وليه كده يا سحر.. الساعة دلوقتى داخله على سبعة.. خمس
 ساعات.. وما تقوليش..
 .. أيوه يا تانت.. علشان حايتكلم النهارده كمان..
 اتسعت ابتسامة العائلة كلها وانبرت تحية متسائلة.. إمتى..
 .. أيوه يا تانت.. هو يا أونكل ببسلم على حضرتك.. وبيقول حايتصل الساعة
 ثمانية النهارده.. وعاوز يسمع صوتك.. وصوت تانت عليه كمان..
 تدخل مختار في الحديث.. وما اتكلمش عن الحرب..
 .. أيوه يا أونكل.. قال إن الحرب حاتقوم..

القي مختار ظرة على ساعة يده.. ووجه كلامه إلى ابنته قائلاً:
 -.. يا دوبك نقوم نلبس دلوقت يا تحية..
 اندفعت عليه تحتج على زوجها..
 -.. إيه يا بو محمود.. مش حاروح معاكم وللا إيه.. عاوزة أسمع صوته
 -.. لا.. لازم حد يكون في البيت.. يمكن حد يسأل وللا حاجة..
 طول المعاشرة تعلم الأزواج معاني.. مابين الكلمات.. ولقد فهمت عليه أن زوجها
 يأمرها بعدم التفكير في الخروج.. في هذه الأسرة العلاقات محددة بشكل قاطع.. الرجل..
 هو السيد.. هو الدنيا.. هو العقل.. ودائماً ما تردد في وجود أو عدم وجود مختار.. ده
 مختار المراكبى وإحنا الشيلة.. من غير نغرق.. كأنه زاهب إلى حفلة عرس.. ارتدى
 الأسطى مختار أفضل ثيابه.. كان يطير فرحاً.. وعين خياله تسبح به إلى حيث ابنه..
 الوحيد.. الذى يستعد للحرب.. والمشغول بين أكداش الخرائط والتليفونات.. يعطى
 أوامر.. ويتلقى أوامر ينفذها جيداً..
 وكيف سيتفرغ دقائق من كل تلك المهام الجسيمة ليتكلم معه.. الأسطى مختار..
 أباه.. في السابعة والنصف كان الثلاثة يواجهون باب شقة سحر.. تراجع مختار قليلاً
 إلى الوراء.. وأخذت سحر تضغط جرس الباب.. تتبادل مع تحية ابتسامة عريضة..
 تكرر الرنين مرة.. ومرات.. ولا مجيب.. بدأت تدق الباب بكلتا يديها.. في ضجيج عالٍ..
 ولا حياة لمن تنادى.. أخيراً.. وقفت سحر تنظر إلى الباب في يأس.. تراجع الثلاثة عائدين
 للنزول على السلم..
 فتحت الجارة باب الشقة المقابل.. سألتها سحر.. هى ماما خرجت يا تانت؟؟..
 ألقت الجارة نظرة باسمه على تحية والأسطى مختار قائلة:
 -.. لا يا حبيبتي.. ماما مخرجتش.. وكمان عندها ضيوف..
 -.. شكراً.. يا تانت.. لازم ماما نايمة بقي..
 داروا على أعقابهم ووقفوا مرة أخرى يضربون الباب بكلتا يديهم.. جاء أخيراً صوتاً
 مرتعشاً من الداخل.. إفتحى.. إنتى نايمة وللا إيه؟؟..
 -.. حد معاكى يا سحر؟؟..

-.. أيوه يا ماما.. أونكل مختار وتحية.. إفتحى بقى..
 -.. طيب دقيقة واحدة..
 غابت دقائق.. ثم فتح المزلاج من الداخل.. ولا زالت تنظم ملابسها..
 -.. أهلاً.. أهلاً.. اتفضلوا.. البيت ببيتكم..
 منكوشة الشعر.. حمرة الوجه.. فى حركتها وصوتها ارتعاشة غير مطمئنة..
 أدخلت الجميع إلى الصالون..
 ألقى مختار نظرة عفوية على البلكونة المجاورة.. كان كمال يقف يدخن فى هدوء..
 جلس مختار على الفوتيه.. كالجالس على الجمر أو الشوك.. شىء يطبق على
 أنفاسه.. أحضرت عنايات كوبان من الليمون المثلج..
 شعور طاغ بالاشمئزاز إجتاح مختار.. لا شعورياً مديدة وأمسك يد ابنته يضغط
 عليها.. نظرت إلى أبيها دهشة.. فهمت أن هناك شىء غير عادى.. شىء رهيب قد حدث..
 مرت اللحظات ثقيلة.. مملة.. والتليفون صامت..
 تعدت الساعة الثامنة والنصف لا صوت..
 نهضت سحر ترفع سماعة التليفون.. عادت متدلّية الزراعين.. تائهة..
 وكأنها تحدد مصير محمود.. التليفون مافهوش حرارة!!..
 دون كلام.. نهض مختار وتحية فى يده.. خرج من الباب وأوصده خلفه..
 بكل ذكاء ولباقة عنايات هانم.. صمتت فى مواجهة مختار.. أقنعها صمته المطبق
 ونظرتة الحزينة الثابتة أنه لا جدوى من أى كلام.. رسالته وصلتها كاملة.. جلس
 وخرج.. ولم تستطع إلقاء الشبكة..
 حينما أصبح مختار مع ابنته فى الشارع اختار كلمات قليلة تلخص ما بداخله:
 -.. تحية..
 -.. أقندم يا بابا..
 -.. البيت ده مش عاوزك تدخليه.. والبنت دى.. مش عاوزك تعرفيها.. لم تناقش
 أباهم.. بالغريزة ألت بأفكاره.. فالشىء الذى حدث فى منزل سحر.. لابد ويقرر أنها
 تحيا حياة مختلفة تماماً عن حياتها..

انبعث صوت سحر تنادى على تحية.. توقفت.. ووسع مختار خطاه.. واختفى في
ممر منزله..
وقفت الصديقتان متواجهتان.. شعاع مصباح الشارع ينير وجهيهما أمسكت سحر
يد صديقتها وضغطت عليها في رجاء صامت..
تحركت شفتا تحية بهدوء.. دون اتهام.. عاجبك كده؟.. بابا يقول إيه؟.. صمتت
سحر.. وانحدرت دمعتان.. وأنا.. ذنبي إيه؟..
ساد الشارع هرج أثناء مرور طابور طويل من السيارات العسكرية المحملة
بالجنود.. الفرخين الصائحين: حانحارب.. حانحارب..
وامتلات شرفات العمارات على الجانبين بالسكان يلوحون بأيديهم مشجعين
صائحين.. ربنا معاكم.. ربنا معاكم.. ربنا ينصركم..
تطوع مئات من الناس في رفع صوت الراديو بالاناشيد الحماسية..

مع خيوط الفجر.. وصلنا إلى موقع جريدة.. لم تتم لحظة واحدة.. رغم ذلك لم
يشعر أحداً منا بالتعب.. ضباطاً أو جنوداً.. حتى الطعام نسينا أن نتناوله.. كلنا نشرى
بما نحن فيه من أمل وثقة في النصر القريب.. على الرغم أن الحرب لم تكن ذات معنى
واضح في ذهني تماماً.. لكن قراءة الكتب العسكرية.. مع هذا الحماس غير العادي
اختلف اختلاطاً رومانسياً بأفلام الحرب والقتال.. فصنعت في رأسي مزيجاً مدهشاً..
من التبسيط الشديد.. وعدم الوضوح المطلق..
وأصبح الراديو صديقاً عزيزاً أضعه في جيب سترتي أستمع إلى الأناشيد الحماسية
والخطب التي تشيد بقوانا العاتية.. وعلى الطريق كان هناك طابوراً من أنصاف العراه..
لابسى بنطلونات رجال الصاعقة يجرون في طابور تدريبي صائحين:
صاعقة.. صاعقة.. عودة.. عودة..
كهدير الموج الصاخب.. كانوا بعض الفدائيين التابعين للشقيرى البطل الفلسطيني
الكبير!!..
جاءني جندي يدعوني لمقابلة القائد.. ومعى خرائطي وأدواتي..

لمت حاجياتى ووضعته بعناية فى حقيبة الخرائط الميدانية.. وقد قدلت من عنقى نظارة الميدان.. ووضعت على كتفى رشاشاً قصيراً.. حملت الخوذة فى يدى فقد قضت^{١١} وأمر بلبس الميدان الكامل.. وكانت الخوذة هى أشرعة الميدان على الإطلاق.. فهى من الصلب الثقيل.. مبطنة بالجلد.. القوى المتين.. وكانت من الثقل بحيث أنه يعد الدقائق الأولى من وضعها على الرأس.. تصبح عضلات الرقبة أقل انصياعاً للحركة.. وبعد مدة تصبح وكأنها جزء من الرأس تماماً.. فإذا ما خلعت أحدثت شيئاً كالتخلخل أعلى عظام الجمجمة.. الذى يؤدى إلى فقد التوازن لعدة ثوان..

الرائد ظريف يجلس فى سيارة جيب مرتدياً لباس الميدان الكامل.. بما فيه الخوذة.. وكان من الضخامة بحيث كمن طوله جالساً.. أعلى مما يسمح به ارتفاع سقف السيارة القماش.. فبرزت الخوذة من أعلى كنتو دائم..

انحدرت العربة إلى الطريق القريب وأخذت اتجاهها شرقاً إلى رفح.. على الجانب الأيسر بدت بقايا الخط الحديدى الذى كان يربط ما بين القاهرة وبيروت.. وخلفها على الأفق البعيد زرقة مياه البحر كالعيون العميقة..

انعطفت السيارة يمينا فى اتجاه الصحراء.. صاعدة قبة عالية.. على قمته وقف مجموعة من الضباط يمسون بإحدى أيديهم خريطة.. وبالأخرى يشيرون فى اتجاه الشرق..

قفز الرائد ظريف ليخرج من العربة.. إلا أن الخوذة انحشرت زوايتها فى عارضة المشمع فجذب مرة أخرى إلى الداخل.. منحنيًا مديدة يتحسس سبب الإمساك.. ثم مد يده الأخرى يعالج رباط الخوذة حتى خلعها خارجاً برأسه عالية ممسكاً بها بين يديه وضعها على رأسه مرة أخرى.. سار صاعداً القبة وأتبعه بخطوة..

التفت متسائلاً: جاهز بكل حاجة يا محمود.. الحرايط والبوصلة.. والنظارة.. وكله..
-.. جاهز بكله يا فندم..

-.. إنت عارف دلوقت إحنا رايعين فين؟؟..

-.. لا يا فندم.. أنا رسمت الشفاف اللى سيادتك أمرت بيه.. ولسة مخلص تلوين دلوقت حالاً..

.. عملت الجداول..

تلك الجداول عبارة عن حسابات مطولة طولاً كبيراً.. إلا أن نتائجها على جانب كبير من الأهمية.. فتحدد كم من المحتمل نحتاجه من ذخائر في أيام القتال الثلاثة الأولى.. من اليوم الأول قتال حتى اليوم الثالث.. مقسمة إلى ذخائر مدافع.. ورشاشات.. وبنادق وحسابات أخرى لتعيين الجنود.. وثالثة للمياه.. ورابعة للوقود.. وكنت بارعاً في هذه الحسابات براعة شديدة.. دقيقاً إلى أقرب طلقة بندقية..

رددت سعيداً فخوراً.. عملتها يافندم ونزلتها على الخريطة ولونتها..

.. زى مافهمتك يا مختار..

.. بالضبط يافندم..

.. هایل.. ربنا يسهل.. أنا قلتك إحنا رايعين فين دلوقت؟؟

.. لا يافندم..

.. إحنا رايعين استطلاع.. مع قائد اللواء..

.. حاضر يافندم..

حينما وصلنا إلى قمة التبة هبطنا مرة أخرى إلى وادى صغير.. حيث أعدت خيمة كبيرة.. حولها حلقات من الضباط.. منهمكون في نقاش حامى الوطيس.. كان قائد اللواء يجلس على عصا مجهزة لتكون كرسيّاً مؤقتاً.. يدخل البابيب.. وقعت عينا القائد على الرائد ظريف فهب واقفاً أخذاً عصاته في يده صائحاً:
.. اتفضلوا.. مشيراً إلى الخيمة..

هرول الضباط إلى داخل الخيمة.. تناول منى الرائد ظريف حقيبة الخرائط وأمرنى بالجلوس خلفه.. ثم فتح الخريطة وألقى عليها نظرة عابرة.. راضية..

الخيمة كبيرة الكراسى أشبه بالفصل الدراسى.. وفى مواجهتها جلس قائد اللواء وأمامه منضدة عليها مفرشاً من التيل وخلفه حامل كبير مثبت عليه الخرائط.. أشار إلى أحد الضباط.. الذى قام بتثبيت الخريطة.. وأخرج من جيبه شىء كالقلم.. جذب طرفه.. فتحول إلى مؤشر طويل.. يمكنه من الإشارة إلى المواقع المختلفة..

ولم يكن هذا الضابط سوى الرائد أركان الحرب عزت.. لم يكن مجرد ضابط أقدم

رتبة.. لكنه كان أملاً.. ومثلاً أعلى لكل الضباط الصغار... نال شهادة أركان الحرب وهو لا يزال برتبة النقيب.. وكان أحد الأعمدة الهامة لهذا اللواء أثناء خدمته السابقة منذ عامين باليمن.. فهو المخطط والعقل المدبر.. والمساعد الذكي للقائد.. ولهذه الجهود نال ترقية استثنائية إلى رتبة الرائد.. فكل دفعته من النقباء وهو فقط الرائد بينهم.. علاوة على درجة أركان الحرب التي يحملها.. كنت أنصت إليه مشدوها.

أخذ يشرح خطة الدفاع بإسهاب وثقة.. ضاعطاً على مخارج الالفاظ.. محدداً المواقع مستنتجاً احتمالات مناورات العدو.. بمنطق مقبول ومشوق.. والضباط من حولى.. (وكلهم أقدم منى رتبة..) صامتين يستمعون بلا تعليق..

إن كل ماحولى يهتف بالنجاح.. فلا يمكن أن يفكر عزت فى خطة ولا تكلل بالنجاح.. لا يمكن الا يضع لكل شىء حسابه.. ولكل موقف احتماله..

انتهى عزت من عرض الخطة.. أو المحاضرة عن الخطة.. ووجه سؤاله التقليدى.. أى أسئلة.. وبالطبع لم تكن هناك أى أسئلة..

ودلوقت حضراتكم معايا نشوف الأرض.. نهض قائد اللواء.. قائلاً.. صعدنا إلى قمة التل مرة أخرى..

وقف أحد النقباء يشرح طبيعة الأرض الممتدة أمامنا ويشير إلى نقاط معينة والقادج يتابعون مايقول على الخرائط يرسمون دوائر وخطوط.. محدداً طرق اقتراب العدو المحتملة.. وقوته التى من المحتمل تكريسها للهجوم.. ونراجع نحن أرقامنا مع مايقول.. ثم جاء رائد مهندس شارحاً محدداً أماكن حقول الألغام.. وكثافتها.. ودرجة استعدادها.. فقد تم زرع ألغام فى مواجهة اللواء بالكامل.. محاطة بالأسلاك الشائكة.. ولم يتبقى إلا قطع طريق العريش.. رفع.. حتى لا يكون هناك احتمال لإختراق مواقع اللواء.. وأعلن عن كميات من الأسمنت والطوب والحديد المقوس لكافة الوحدات لزيادة مستوى التحصينات بالمواقع.. وأخذ يتلو جدول الاحتياجات وكل قائد كتيبة بدون ما يخصه منها..

فى منتصف النهار.. انتهت أعمال الاستطلاع.. ووقف قائد اللواء خطيباً قائلاً:
 -.. إحنا أحسن لواء فى القوات المسلحة.. وده بشهادة الجميع.. الموقع الذى إحنا فيه

ده.. مش جديد علينا.. إحنا اللي حفرناه بإيدينا.. عساكرنا وضباطنا شافوا العذاب في تجهيزه.. خطة القتال بتاعتنا أنا راضى عنها تماماً.. والقيادة كمان راضية عنها.. كل واحد فيكم عارف دوره كويس قوى.. وكل عسكري حافظ حايعمل إيه.. وكل ضابط فاهم حتى حباية الرمل تنحط فين.. يعنى بالعربى كده مفيش عدو يعدى من هنا.. عاوز يعدى.. مفيش مانع... بس على جثثنا كلنا.. وأنا أولكم.. من الصبح بإذن الله.. عاوز زيادة التحصين تبتدى علشان نخلص منها بسرعة.. ونبقى مطمئنين أكثر.. وأكثر..

كمان عاوز توعية للجنود والضباط اللي في المواقع.. بالحالة من جميع جوانبها.. لازم شرح المؤتمر الصحفى بتاع الرئيس.. والمعاهدة مع سوريا.. والتزاماتنا.. عاوز روح معنوية عالية.. وأى صعوبات.. أنا موجود وشكراً.. ودلوقت بقى.. اتفضلوا.. هبظنا التبة العالية عدواً.. قفزت إلى العربية.. وجلس القائد إلى الكرسي الأمامى بجوار السائق.. ومد يده إلى الخريطة فقامت بثنيها مرة أخرى ووضعته بعناية بالحقيبة.. خلع الخوذة وألقاها بين قدمي.. وأخرج منديلاً وأخذ يجفف العرق.. هبت نسمة باردة أتية من البحر.. أدار رأسه متسائلاً:

.. فهمت يا مختار اللي إتقال كله ٩٩..

.. حفظته يا فندم..

.. تفكرنى بموضوع مواد التجهيزات الهندسية.. علشان نبعث نيجيبها..

.. حاضر يا فندم..

ابتسم ابتسامة راضية واستطرد:

.. بالمناسبة يا حضرة الضابط.. إبقى تعالى كل معانا في الميس الصغير.. بدال

ماتاكل لواحدك في اللورى..

كان مركز قيادة الكتيبة في منطقة جردة لا يعدو أن يكون ثلاثة حجرات صغيرة.. وما هي بحجرات.. لكنها ملاجئ تسمى باللغة العسكرية ملاجئ سريعة.. أما باللغة العادية.. فقد جرت العادة على تسميتها (ملاجئ قرد).. ذلك إنها عبارة عن قفص حديدى على شكل نصف دائرة.. له باب واحد ضخم متين يفتح من الداخل أو من

الخارج.. يغطي بطبقة من الخيش المقطرن.. ويدل في حفرة عميقة ثم يهال عليه التراب.. ويكون منظره قبل إنزاله الحفرة.. مطابقاً تماماً.. لقفص القردة.. بحديقة الحيوان.. وقد خصص للقائد ومعه النقيب سمير حجرة.. للنوم.. وكمكتب.. وأخرى لنومى ومعى ضابط الحملة وضابط الشؤون الإدارية.. والثالثة مجهزة كخرفة إدارة عمليات ثابتة بها التحويلة.. وأجهزة الاستقبال والإرسال.. وخريطة التسجيل.. يتصل الثلاثة حجرات معاً بواسطة خندق.. عملنا أثناء إنشاء المركز أن يتسع بقدر الإمكان ليتمكن وضع منضدة وعدة كراسى تصلح لتناول الطعام.. هذا الخندق بما فيه من منضدة صغيرة وبضعة كراسى.. هو ماتعارف على تسميته.. بالميس الصغير..

كان تناول الطعام بالميس الصغير الظليل المعزول عن الأتربة وجيوش الذباب.. أفضل ألف مرة من خوض معركة الطعام منفرداً.. بضندوق اللورى مع الكفاح.. ضد الذباب الانتحارى للحوح..

وصلنا إلى مركز القيادة.. لاح النقيب سمير مبتسماً فوق المركز.. فقابل الرائد ظريف فور نزوله من السيارة.. قائلاً:

.. سعادتك إتاخرت.. الأكل قرب يبرد..

ضحك القائد من أعماقه مداعباً سمير:

.. يا ترى طابخين إيه النهاردة؟؟

.. سمك دينيس مشوى.. وأرز.. وسلطة طحينية..

استطرد القائد ضاحكاً:

.. إلحقنى..

هبطاً سوياً إلى الميس الصغير.. أما أنا.. فقد ركضت إلى عربة القيادة.. وألقيت حاجياتى إلى الجندى المراسلة.. أمراً إياه التحفظ عليها.. وعدت سريعاً إلى الميس الصغير حتى لا تفوتنى الأكلة الشهية..

برز من جانب أحد اللواري ضابط الشؤون الإدارية.. والحملة.. وصاحا متسائلين..

.. على فين يا مختار؟؟

.. ع الميس.. ميت م الجوع..

.. خدنا معاك.. إحنا مرابطينك من زمان.. واقعين م الجوع.. ورحنا نتسابق إلى

الميس.. هبطنا بأقصى مايمكن من قدرة على الهدوء.. ودلفنا إلى ملجأنا الصغير.. وخرج كل منا.. ويده كرسى ميدانى.. وضعنا الكراسى حول المائدة وجلسنا فى هدوء بينما حام حولنا الجنود يضعون الصحف ورائحة السمك المشوى تشنف أنوفنا.. بعد اكتمال الأعداد صاح القائد:

..تفضلوا..

بينما بدأ النقيب سмир متمللاً مهموماً.. ينظر إلينا شذراً من طرف خفى.. انقضضنا على السمك كالقطط الشرهة.. ورحنا نأكل كالغيلان.. كان دسماً لدرجة سيولة السمن على شواربنا وذقوتنا.. ولم يتبقى من السمك إلا شوك أبيض مخلى من اللحم.. إنكبت على الأرض أخلطه بسلطة الطحينة ذات الليمون والتوابل تلك التى تعطى الأرض نكهة فريدة مع طعم السمك.. انتهيت من طعامى شبع من طعام شهى ساخن ولذيذ.. رحلت أدعو من كل قلبى للجندى الطاهى.. الذى أجاد فأبدع تحت شراف ذواقة خبير كالنقيب سмир..

فلتت من جوفى غصة عميقة.. فضحك الرائد ظريف قائلاً:

.. على مهلك يا مختار.. إشرب.. إشرب لا تفتس..

تناولت كوباً من الماء المثلج.. أخذت احتسبه فى رشقات متلذذة..

تلك الجلسة الأقرب إلى العائلية كنت قد حرمت منها منذ غادرت القاهرة..

أشعل الرائد ظريف سيجارة.. وسمح لنا بالتدخين.. أشعلت سيجارة واسترخيت تماماً.. وأنا أتلذذ بعد أكلة السمك الفاخرة.. وراح الخدر يسرى فى أوصالى..

رحت أرقب زملائى على المنضدة.. وقد جلسا صامتين مثلى.. وإن كانا يقاتلان ابتسامة خبيثة توشك أن تفضح سعادتهما..

بينما سмир يرقبنا غير راض.. وكنت مستعداً أن أقسم أنه لم يستمتع عشر ما تمتعنا به من لذة الطعام..

نهض القائد متوجهاً إلى حجرته وأوصد الباب دونه.. ألقى النقيب سмир الملعقة فجأة من يده وقدحت عيناه بالشرر ناظراً إلى عصيباً قائلاً:

.. إيه يا مختار.. إيه اللي جابك هنا.. الأكل مش بيروحك هناك فى اللورى؟؟.. ولقد

حذرت سؤاله منذ وطئت قدمي أرض الميس:
 -.. وإحنا في الاستطلاع.. الرائد ظريف أمرني أكل هنا.. وضغطت على كلمة أمرني
 ذلك.. أفحمه ردى.. وكان على وشك ترجييه نفس السؤال إلى الضابطيين الآخرين..
 فتراجع..

هبط النقيب محمد كالزوبعة.. وما أن شاهد آثار الطعام على المنضدة حتى طاش
 صوابه ووجه جام غضبه إلى النقيب سمير قائلاً:
 -.. طبعاً.. الناس هنا تاكل واللى في المواقع عندهم ماكلوا.. أنا حاءعرف أتصرف مع
 عساكر الميس كويس.. حيث كده بقى.. أول واحد يجيله الأكل لازم يكون أنا.. أه.. مش
 عالم تشتغل وعالم..

كان على وشك القول:-.. وعالم تاكل.. ولا تعرف عن الشغل شيئاً.. إلا أن صوت
 القائد الأمر.. جاء عبر الباب الموصد يدعو محمد.. صمت على مضض وتوجه إلى غرفة
 القائد..

بعد قليل خرج وكان جنود الميس لايزالون يرفعون الصحان.. فأمرهم بوضع
 نصيبه من الطعام حالاً على المنضدة.. جن جنونه.. حينما أخبروه أن نصيبه قد أرسل
 فعلاً منذ قليل إلى موقعه.. ركض خارجاً وأنا في أعقابيه.. متوجهاً إلى المطبخ..
 والمطبخ عبارة عن خيمة صغيرة كالحة.. بها منضدة مستطيلة عليها موقد غاز..
 وعدة أواني متعددة الأشكال.. تتماثل في إسداد قواعدها.. جلس الجنود يتناولون
 طعامهم.. هبط عليهم النقيب محمد قاطعاً جلستهم السعيدة.. كصراخ الشتاء.. وكان
 لغضبه تأثير على الجنود شديد.. نهض الجنود فزعين:

-.. مين فيكم بيعت غدايا على الموقع؟؟..
 كان سؤالاً محرّجاً.. والإجابة عنه من أحدهم متطوعاً.. أشد حرجاً.. لما قد يتبعه من
 عقاب بدني قاسى.. على شكل صفعات وركلات.. فوقف الجنود صامتين كان على
 رؤوسهم الطير كان أشدهم فزعاً رئيسهم.. العريف فاروق.. حكمدار الميس والذي كان
 يعمل قبل الجندية مساعد قصاب.. ولما كانت هناك علاقة ما بين القصاب والميس.. حيث
 يشتركان في اللحم.. رشح ليكون طباًخاً.. وبعد تجاربه العديدة الفاشلة التي دفعنا
 ثمنها فادحاً في شكل وجبات لا شكل لها ولا طعم.. ارتفعت مهاراته.. ليرقى إلى رتبة

العريف.. ويكون حكمداراً لميس الضباط..

طويلاً.. فارع الطول.. النسبة ما بين رأسه إلى خصره.. أكبر منها ما بين الخصر والخصر ذو قدمين.. كبيرين يحشرهما حشراً في حذاء كاوتشوك.. فكان إذا سار تمايل كجذع نخلة يحركها الهواء.. على رأسه طاقية ذات رفرف.. أقل قطراً من رأسه.. أصبحت كعرف الهدد.. كانت أشهر صفاته هي الخوف المرضي من الضباط.. فإذا ما وجه إليه أحدهم أقل لوماً.. أخذت فرائصه في الارتعاد.. بحركة اهتزازية واضحة تدعو للرثاء.. لذلك تجذب جميع الضباط لومه.. أو تقرّيعه.. وعرف الجنود عنه ذلك.. فكانوا يهددونه باختلاق أخطاء ينسبونها إليه ليبلغونها إلى الضباط.. فكان رغم قوته البدنية الخارقة.. ينخرط في البكاء..

— تقدم النقيب محمد بخطوة سريعة وأمسك بتلابيب فاروق.. وأخذ يجذبه ويرجعه إلى الوراء بعنف.. إمتنع وجه فاروق.. وبرزت عيناه من محجريهما.. وتدفق زبد أبيض من شديقه.. وأخذت فرائصه في الارتعاد والنقيب محمد يصيح:

— مالك يا واد.. إثبت يا عريف.. الله.. مالك يا واه..

ولم يكن فاروق في حالة تسمح له بالرد على سؤال محمد.. الذي لم يجد بداً من تركه.. حتى يعي ماحوله.. فأخذ يتكلم بهدوء..

— ما تخافش.. ماتخافش يا عريف فاروق.. بس زى ما أخرت الاكل روح الموقع هاته.. خمس دقائق بالعدد وتكون هنا.. فاهم..

كالقذيفة انطلق فاروق.. بخطوات سريعة مهولة.. واختفى في اتجاه موقع محمد.. وواجه باقى الجنود دافعاً قبضة يده في وجوههم قائلاً:.. حأوريكم..

دار على عقبيه يغادر الخيمة.. ووضع يده على كتفى مبتسماً قائلاً:

— لا مؤاخذه يا محمود.. لو الواحد معملش كده.. حايضيع..

— الحمد لله على السلامة يا فندم..

— الل.. لسة فاكر.. بالمناسبة..

— أيوه يا فندم..

— إنت مش ضابط الاستطلاع..

..ايوه يافندم..

..طيب.. يه أخبار العدو.. على حسك.. وأخذ يضحك..

توجهنا إلى الميس الصغير.. جلس محمد على رأس المائدة في انتظار الطعام.. بينما دخلت إلى القائد أذكره بموضوع المهمات الهندسية.. المطلوب إحضارها من قيادة اللواء..

أمرني بإرسال إشارة إلى جميع ضباط الكتيبة للاجتماع في القيادة مساء اليوم.. عدت مرة أخرى إلى مركز القيادة الثابت جلست إلى التحويلة أبلغ الإشارة بنفسى.. انتهى النقيب محمد من طعامه.. ودخلنا.. إلى ملجى.. جلست على سريري.. في حين استلقى محمد على سرير مصطفى المقابل لى.. ورحنا في نوم متقطع.. حتى إذا ما هبط الظلام.. خرجت إلى الهواء الطلق.. عمت الصحراء السكنية.. جلست على بعض أكياس الرمل.. وكان الملازم أول فاروق يعد المناضد والكراسى والمصابيح استعداداً لاجتماع قائد الكتيبة مع الضباط..

بدأ الضباط يتجمعون وأخذنا نتبادل الحديث الذى لم يخرج عن الحرب.. وإن لاحظ بعض الالفاظ الغريبة هنا.. وهناك.. فالإجازات متوقفة منذ عشرون يوماً.. وهناك من بلغ مكوثه دون إجازة مدة الشهرين.. وبالتالى اختفى كل أمل لى.. في القيام بإجازة.. فأنا آخر من عاد.. وبذلك.. آخر من يستحق القيام بإجازة.. صعد القائد من مركز القيادة.. تحت إبطه عصائه ويده دوسيه ونوته.. إلى جواره النقيب سمير.. جلسنا حول المنضدة.. وأخذ القائد يشرح الموقف الدولى.. وأبعاد الصراع المنتظر مع إسرائيل.. وراح يؤكد على واجباتنا ضابطاً.. ضابطاً.. باعثاً فينا الأمل.. مشجعاً لنا في إنجاز أعمال التحصين.. وإنبرى الملازم حسين.. ذلك الملازم المحند الجديد يسأل القائد عن إمكانيات تدخل الأسطول السادس في حالة نشوب حرب.. وفتح الرائد ظريف الدوسيه وتناول ورقة أخذ يقرأ منها بعض الفقرات المقتضبة من خطبة المشير عامر القائد العام في إحدى القواعد الجوية.. حيث سئل سؤالاً مشابهاً.. فأجاب بأن لدينا إمكانيات ضرب هذا الأسطول إن هو تدخل في الصراع..

وزاد الرد الحاسم حماسة الرجال فوق حماسهم.. وبدأ الضباط يتبادلون الآراء الحرة.. الثنائية، والتي تؤكد كلها قدرتنا على سحق العدو.. سحقاً.. نهض الضباط في

العاشرة.. كل متوجهاً إلى موقعه.. ولم يتبقى إلا هيئة قيادة الكتيبة ومعنا النقيب محمد.. وكان الرائد ظريف في أفضل حالاته المعنوية استرخى في جلسته.. يتكلم بصديق من القلب.. كلاماً.. يدخل القلب مباشرة.. سأله النقيب محمد إن كان قد اشترك في حرب عام ستة وخمسون.. فاختلفت ابتسامته وطافت في عينيه سحب داكثة.. ورد بصوت هادئ:

-.. أيوه.. اشتركت في حرب ٥٦.. في شرم الشيخ..

-.. ياريت سيادتك تحكى ذكرياتك عنها.. وتبقى استفادة..

راح القائد يدخن.. والمصباح يلقي على وجهه ضوءاً ضعيفاً.. على أثر ذلك السؤال ازداد بريق عيناه.. وتهذلت ملامحه في حزن عميق..
ماكنت أتصور أن الرائد ظريف يمكنه الحزن.. تلك السلطة.. تلك القوة.. والسمعة الزائفة الصيت.. كنت أظنها بمثابة الدرع الآوى له من الأحزان.. تصد عنه هجمات الذكريات المؤلمة..

-.. كنت أيامها ضابط صغير.. زى محمود مختار كده.. وفي سنة.. كان عندي أربع مدافع مضادة للطائرات.. كل مدفع يحتل موقع منفرد بعيداً عن المدافع الأخرى بمسافة كيلو متر..

يتكلم كأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً محت الأيام بعض حروفه شخصت عيناه بعيداً حيناً.. وحيناً آخر تتجول على صفحات وجوهنا.. بلا تركيز..-.. في اليوم الأول حاول المشاة الإسرائيليين الهجوم على المواقع.. بالعربات المصفحة والدبابات.. بعد ضرب كثيف ومركز بالمدفعية.. لكن بمجرد ما قربت الدبابات والعربات فتحنا النار.. إلى دمرنا.. دمرنا.. والباقي رجع يهرب تانى.. انسحبوا تانى يوم.. جت الطائرات الفرنسية.. طائرات ورا طائرات.. مدافعنا المضادة كانت قليلة.. انضربت كلها.. أصبح الهوا كله من غير حماية.. لا فوق طيران للحماية.. ولا على الأرض مدافع تبعد الطائرات.. أربعة وعشرين ساعة.. لا عمل للطائرات إلا تحميل قنابل.. وعلى اللواء تحدف.. إتحول اللوا كله إلى شعلة نار.. في اليوم ده قدرت أميز بين الطيار الفرنسي.. والطيار الإسرائيلي الفرنسي.. جبار.. مفترى.. زى مايكون عاوز يضرب المدفع بجناحه.. الإسرائيلي بيضرب في المضمون.

تانى يوم الصبح.. جاء الإسرائيليين بالدبابات والسيارات المصفحة.. ماكانش فيه مقاومة خالص.. كل المدافع انضربت.. وكل دشم الذخيرة انفجرت.. أصدر قائد اللواء أمراً عاماً بعدم المقاومة.. التى أصبحت لا تجدى.. لأنه مفيش سلاح مناسب للمقاومة.. المهم.. فى النهاية.. الى كان حى.. خذوه أسير..

عارفين يعنى إيه تكون أسير؟.. لا حقوق لك.. لا أمل.. لا حياة.. حياتك تنتهى فى ثانية واحدة.. لمجرد أن شكك لا يعجب أسيرك..

إذا شكل الأسرى مشكلة فى النقل كان قرار التخلص منهم برميهم بالرصاص هو الحل السهل.. حياة الأسر.. هى حياة الدقيقة.. بدقيقة.. توقع ضربك بالنار فى كل لحظة.. دون سبب.. دون مبرر..

.. قسمونا مجموعات.. وكنت فى مجموعة الملازمين.. جاءوا بالجنود.. قسموهم مجموعات.. على رأس كل منها ملازم.. وكلفنا بدفن شهدائنا.. أسرينا كانوا يهوداً من اليمن.. لهم شعور طويلة متهدلة على الأكتاف.. وأنوف معقوفة.. كالسنانير.. تهرق عيونهم بهريق الوحشية.. بأيديهم بنادق مثبت عليها السناكى.. موجهة دوماً إلى بطوننا.. وهناك كلاباً ضالة تنهش زملاؤنا الشهداء..

بعد ذلك أخذونا فى سيارات متهاكة إلى إسرائيل.. فى كل مستعمرة يتوقفون حيث تخرج النسوة والأطفال يتفرجون علينا ويبثقون فى وجوهنا.. حقداً وكراهية.. عشت فى الأسر بلا وعى.. على هامش الحياة والدنيا والأمل.. والغد.. وبعد شهور.. عدنا إلى القاهرة..

صمت القائد طويلاً.. كأن شريط الذكريات المؤلم يدغدغ روحه.. فى هذه اللحظة كان يعايش مامر به منذ إحدى عشرة عاماً.. جرح الأسر لازال يدمى روحه وكرامته وكبريائه.. لازال يقطر مرارة وأسى.. ورغبة قوية فى الثأر للكرامة المهذرة.. تدخل النقيب سمير فى ود قائلاً:

-.. سيادتك قاسيت كتير قوى معاهم يا قندم..

-.. قوى.. قوى.. قوى.. معندكش فكرة يا سمير.. لو عشت مليون سنة.. مش ممكن

أنسى الى حصل ده أبداً.. أبداً..

تدخل النقيب محمد متسائلاً:

-.. طيب.. وإيه رأيك فينا دلوقت يافندم.. لا فرنسا معاهم.. ولا إنجلترا ساندأ هم.. وأهى روسيا.. واقفة لامريكا زى القط للفار..

ضحك القائد طارداً جو الكأبة مؤيداً:

-.. دلوقت الوضع حاجة تانية خالص.. فى ٥٦ كنا بنحارب ثلاث دول دلوقت إحنا وهما.. وإحنا فين.. وهما فين.. النهاردة اللي ليه ثار عندهم لازم حاياخده.. ده اليوم اللي بستناه من حداثر سنة يا محمد..

كنت أتابع رواية الرائد ظريف بوجدانى وحواسى.. وخيالى.. الحرب والطائرات التى ترمى القنابل.. الكلاب تنهش الجثث.. الأسرى.. الصبية والنساء يبيثقن على وجوه الأسرى..

نقل القائد شريط ذكرياته إلى عقلى.. فرحت أرفض فكرة أن يأسرنى اليهود.. كيف لا أقتل نفسى إن تعرضت لموقف كهذا..

فى الايام التالية كان ضباط اللواء كمقاوى الأنفار.. يعملون بجنودهم الصبات الخرسانية وأعمال البناء والتحصين.. طوال النهار.. وكل منهم يحمل سلاحه على كتفه.. والراديو الترانزستو فى يده يسمع.. ويسمع جنوده الأناشيد الوطنية.. وصوت الرئيس.. فتردد جنبات لوادى بين وقت وآخر صوت جنود تهتف.. -.. الله وأكبر.. الله وأكبر.. حانحارب.. حانحارب..

فى أحد الايام قام الرائد ظريف بالمرور لتفقد التحصينات النهائية لسرايا الكتيبة.. وعلى الغداء عاد منشراحاً معتدلاً المزاج معلناً.. دلوقت بس أنا مطمئن على الكتيبة..

فجر اليوم التالى صحونا من النوم فزعين.. قفز ثلاثتنا فاروق ومصطفى وأنا معهم.. حفاه.. نستطلع تلك الجلبة والضجة غير العادية فوق مركز القيادة.. رأينا طابوراً طويلاً من اللوريات الجديدة تماماً.. تجر ورائها مدافع لازالت بشحم التخزين.. وقد اعتلى صناديق اللوارى جنود.. وماهم بالجنود.. طوال الشعر واللحى بلا خوذات على الرؤوس.. تظهر من تحت سترات أفرواتهم قمصان وفانلات ملونة تبادلنا نظرة متسائلة مع بعضنا البعض.. وعدنا أدراجنا نرتدى ملابسنا..

عدت مرة أخرى وببدي سيجارة.. ولازال النوم في جفوني.. تقدم منى رائد كبير السن أكثر من الخمسين.. في عمر والدى تقريباً.. أحمر الوجه بدين.. رفعت يدي بالتحية العسكرية.. فارتسمت على فمه إبتسامة مترددة.. وبدلاً من رفع يده بالتحية العسكرية.. مدها إلى يشد على يدي بحرارة كالصديق الحميم قائلاً: أهلاً.. أهلاً.. وسهلاً.. إزيكم.. عاملين إيه هنا..

اعترتني دهشة شديدة فرحت بدوري أسأله:

.. أي أوامر سيادتك؟؟

.. العفو.. أوامر إيه؟؟ أنا كنت بسأل حضرتك.. مش هي دي برضه الكتبية.. بتاع المدفعية المضادة للطائرات..

رحت أستعيد في سمعي مرة أخرى سؤاله.. بتاع المدفعية المضادة للطائرات؟؟ كانت اللهجة أبعد ماتكون عن تلك التي تعودت على التعامل بها في الجيش.. للعسكريين لهجة خاصة للتعامل فيما بينهم.. في كل مكان.. أما كلمات ونبرات هذا الرائد ومن أول انطباع توحى إنه رجل مدني مائة في المائة..

رددت عليه بالإيجاب.. فأردف في حياء..

.. يا هل ترى القائد بتاعها موجود..

.. أيوه.. القائد بتاعها موجود..

صمت متردداً.. فاستطردت.. سيادتك عاوز تقابله؟؟

.. بس مش عاوزين نضايقه..

هبطت الدرج مرة أخرى.. متوجهاً إلى مكتب القائد.. فقد دب النشاط في مركز القيادة وكان الرائد ظريف في ملابس الميدان الكاملة.. يتكلم باهتمام في التليفون.. فوضع يده على الميكروفون وسألني عما أريد.. فأخبرته بالمظاهرة التي بالخارج.. وإن هناك أحد الرواد العجائز يريده.. فأشار لي بيده أن أتى به..

وجهت الرائد العجوز إلى حيث مكتب القائد.. خرجت كي أتوجه إلى مكتبي في مركز القيادة المتحرك..

وقعت عيني على جنديان متماسكا التلابيب.. أحدهما يقبض على عنق الآخر بيده

صائحاً به: إنت فاكرك نفسك مين.. ده أنا أطلع... وتقوه بسباب بذىء.. هرولت إلى حيث يتعاركان.. وقبضت على أفقيتهما معاً.. صائحاً:

—.. إيه.. إنتم فاكركين نفسكم في الشارع.. بتتخانقوا مع بعض قدامى.. إنتم ملكية وللا إيه حكايتكم بالضبط..

رد أحدهم بلهجة شرسة متحدية.. لا.. إحنا احتياط..

لكزته بكوعى أسفل ذقنه وازددت ضغطاً على عنقه مؤيداً لما سوف أقول:

—.. لما تكون مين.. أمسح بيك الأرض.. ماإحناش في قهوة بلدى هنا.. تقف في حالك وتخرس.. إنتم من أى داهية؟؟

كنت أريد الضغط على عنق الجندي الشرس.. الذي أصبح رويداً.. رويداً.. أكثر سلاسة واستسلاماً.. أنا من طنطا..

وكان الآخر يتطلع إلى فراح يقول: وأنا من السنبلالوين..

لكزتهما معاً صائحاً.. إيه.. حانتصاحب؟؟ من أى داهية.. يعنى من أى وحدة؟؟

فردوا معاً بصوت خفيض:—.. من الوحدة.. دى..

تركتهما ورحت أنظر إلى طابور السيارات.. كان يجلس في كل سيارة زوج من الضباط على نفس شاكلة الجنود ينظرون إلينا وكان الأمر لا يعينهم..

أخذت أنظر إلى الجنديان ورفعت قبضة يدي في وجهيهما مهدداً:

—.. إحنا كلنا جيش.. كل واحد يحترم نفسه.. لو سمعت صوت واحد فيكم أو عيني وقعت على حد فيكم.. حادخله السجن على طول.. فاهمين؟؟

رددا معاً:—.. فاهمني.. يا بيه..

بيه؟؟ أصبحت بيه في وسط كتييتى.. في الصحراء.. والحرب على الأبواب.. يقولها جنود.. رددت حانقاً.. بيه إيه يا ملكى إنت وهو؟؟.. فيه حاجة في الجيش اسمها يافندم..

مسمعتوش عنها؟؟..~

—.. سمعنا يا بيه..

رددت.. اسمها يافندم..

أمرتهما بالانصراف.. بعدما تأكد لي.. أنهما يحتاجان الالتحاق بمركز تدريب

ليتعلمون ألف باء الجنديّة..

جاءنى أجد جنودى يدعونى لمقابلة القائد..

كان الرائد ظريف يجلس على مكتبه مطرقاً.. إلى جواره جلس سمير صامتاً.. فى حين
جلس أمامهما الرائد العجوز متلفتاً حوله فى إعجاب.. رفعت يديّ بالتحية العسكرية..
فنظر إلى الرائد ظريف قليلاً ثم قال:

.. روح يا محمود مع سيادة الرائد وريه المواقع كلها.. ومركز القيادة المتحرك
وأكد لقادة المواقع إن ميعاد التجمع هنا الساعة خامسة بعد الظهر..

تساءلت دهشاً.. مؤتمر يافندم؟؟

.. لا.. تجمع بالقوات.. علشان التحرك التكتيكى..

معنى التحرك التكتيكى ببساطة هو العزال الكامل.. نقل كل متعلقات السرايا..
للانتقال إلى مكان آخر..

.. حانرجع العريش تانى ياقندم..

.. لا.. حانطلع قدام..

تعودت على الموقع.. تعاملت مع كل شبر فيه.. كدت أصادق حبات الرمال عرفت
مسالكه ودروبه.. حتى نباتاته البرية.. أسبوعان من العرق حتى بات الموقع قوياً
حصيناً.. كل جنديّ وضابط يحفظ واجباته.. حتى أسلاك التليفونات التى مددناها عبر
الرمال.. أستطيع الوصول إليها فى الظلام.. إن طول المعاشرة تخلق بين الجنديّ
والأرض نوع من الألفة.. وكان انتقلنا من هذا الموقع.. إلى حيث لا أعلم.. شئ لم أكن
أتوقعه.. ولم يتوقعه أحد.. ولا حتى الرائد ظريف.. خرجت من الملجأ.. صامتاً والرائد
العجوز خلفى.. سألته عن سيارته.. فأشار إلى لورى ضخم محملاً بأكداس من
الحاجيات الثقافية القيمة.. ألواح مهترئة من الصاج.. وقطع طويلة من الأخشاب
العتيقة.. برزت من جانب اللورى قطعة خشب ضخمة من فلنكات السكك الحديدية..
وقبع فوق هذه الكومات جنديّ.. كمن يركب جمل..

فتح الرائد العجوز باب اللورى.. وصعد بعد جهد إلى جوار السائق.. مديده يجذبني
إليه.. وكان يقود السيارة.. سائق ضخم الجثة أشعث الشعر والشارب.. ينبفخ حنقاً

وضيقاً.. وتفيض حركته تزمراً.. ومع كل حركة من يده في عصا الفتيس.. تشعر وكأنه سوف يخلعها من صندوق التروس خلعاً.. يضغط بكل ما أوتي من قوة على دواسرة البنزين حتى تزار السيارة زئيراً عالياً.. لو كان هذا السائق من وحدتى لكان مصيره الفورى هو السجن بتهمة التدمير المتعمد لمعدات القوات المسلحة.. لكن قائد كتيبته المبتسم المنشرح.. لم يوجه إليه أى لوم.. فصمت أنا الآخر..

وبدا الرائد العجوز في إلقاء سيل من الأسئلة.. لا أكاد أنتهى من إجابة سؤال حتى يلاحقنى بالثانى.. والثالث.. وبنفس الأسلوب المدنى.. الأمر الذى جعلنى أتجراً في النهاية لأسئلة:

-.. سيادتك كنت فى قبل ماتيجى هنا؟؟..

كنت أقصد بسؤالى.. أين كان سيادته.. بمعنى فى أى وحدة كان يخدم..

كالصنبور راح يتدقق مستفيضاً فى الشرح:

-.. أنا يا بنى أصلى مدير فى وزارة الزراعة.. أنا مهندس زراعى.. زمان بقى فى ستة وخمسين كنت رائد احتياط.. بس سبت الجيش من يومها.. و.. و.. فهمت إنه ودع حياة الجنديّة منذ عشر سنوات مضت.. حتى نسى تماماً أنه كان جندياً يوماً.. ما.. حياته مكروسة ما بين مكتبه فى وزارة الزراعة.. وأسرته.. زوجته وأبناؤه.. ابنته الكبرى مخطوبة.. وهى على وشك الزواج.. المفروض أن يكون بالقاهرة.. ليجهز باقى حاجياتها.. لكن الجيش أرسل لاستدعاؤه للخدمة.. وهناك فى قيادة المدفعية.. كلفوه بقيادة هذه الكتيبة.. التى أتوا بجنودها.. من القوات الاحتياط.. والضباط الذين هم على شاكلته.. ولقد أسر فى أذننى.. إنه لأول مرة فى حياته يرى تلك المدافع.. ولا يدري كيف تعمل.. لذلك فهو يسألنى رأى فى مفاتحة الرائد ظريف فى ترك بعض الضباط والجنود المدربين لمعاونة كتيبته فى عملها.. لقد كان أسلوب سيادته يقطر سداجة.. وكانت نواياه تفصح انفصامه التام بما يدور من حوله.. ولم أشأ أن أصدم تلك النوايا الطيبة فوافقت على رأيه متمنياً موافقة الرائد ظريف على طلبه..

ورحت أتساءل بينى وبين نفسى.. ترى.. من فى القاهرة الذى أشار باحتلال هذه الكتيبة لمواقعنا الحصينة؟؟..

وبدا شيء في صدري ينقبض..

كلما وصلنا إلى موقع هبط سيادته.. وقابل قائده في منتصف الطريق مصافحاً إياه ربتاً على كتفه مردداً الجملة الأثيرة لديه:

-.. الله وأكبر.. دى حاجة عظيمة خالص.. خليكو معانا.. إحنا برضه رجالنكم.. بعد تفقد كافة المواقع عدنا مرة أخرى إلى قيادة الكتيبة.. قابلنا النقيب محمد خارجاً نظراً إلى مبتسماً ابتسامة ساخرة قائلاً:- والله زمان يا سلاحي..

دخلنا مكتب الرائد ظريف الذي كان يقف متململاً.. ابتدره الرائد العجوز قائلاً:

-.. بقولك إيه يا سعادة البيه؟؟

دون أن ينظر إليه..

-.. نعم..

-.. كنت بقول يعنى لو ممكن سعادتك تتكرم علينا.. وتسلفنا كده كام ضابط على كام عسكري حلوين كده.. م اللي فاهمين.. ياخدوا بإيدنا الكام يوم اللي حانقدهم هنا.. نبقي متشكرين قوى..

رغم تساوى رتبيهما إلا أن الرائد ظريف انفجر صائحاً:

-.. يا حضرة الصاغ إنت فاكرك نفسك في مكتبك في الملكية هنا؟؟ هنا جيش.. عارف يعنى إيه جيش؟؟ يعنى كل كتيبة ليها ضباطها وعساكرها.. ممكن تستلف كرسى.. ترابيزة.. لكن ضباط؟؟ فيه حد في الدنيا يقول كده؟؟ يبدو إن سيادة الرائد لم يكن موجوداً معنا.. فقد كان موجوداً بجسد يرتدى الملابس العسكرية.. لكن حواسه كلها لم تكن معه.. حضوره كان غائباً عن الموقع والكتيبة.. والجيش.. والصحراء.. والحرب الماتية.. والعدو.. كانت روحه هناك في القاهرة.. مع زوجته وأولاده.. ومكتبه.. وابنته التي على وشك الزواج.. كان فكره ووجدانه في الحقل.. والقطن.. والمبيدات الحشرية.. وذكرياته مع زملائه في وزارة الزراعة.. لم يكن هذا الذي يتكلم.. كان شخصاً آخر.. يقف الآن ويشاهد كالممثل على المسرح.. يمثل ويشاهد نفسه.. ويحكم على نفسه.. وقد حكم على نفسه في دوره الجديد.. بالفشل.. فإنه يقوم بدور لم يتدرب عليه أو يمارسه عشرة سنوات.. حتى نسيه تماماً.. ولم يعد يتذكر حتى ملامح هذا الدور الذي كلف

بالقيام به.. والآن.. أتوا به.. من فوق مقعده بوزارة الزراعة.. ليمثل دور قائد كتيبة مدفعية مضادة للطائرات في حرب وشيكة..

رد.. بهدوء طيب بلاش.. المهم.. روق نفسك إنت..

جلس الرائد ظريف.. وأشار لنا بالجلوس..

-.. يا حضرة الضابط محمود..

-.. أفندم..

-.. خد معاك ضباط إشارة واستطلاع الكتيبة دى وأقعد معاه في مركز القيادة المتحرك.. وإشرح له الموقف.. وخطة المواصلات السلوكية واللاسلكية.. وخليه ينقل المواقع على خريطه..

-.. حاضر يا قندم.. ووجهت كلامى إلى الرائد العجوز قائلاً: فين ضابط الإشارة بتاع سيادتك؟؟

-.. أنا حاقوم معاك أندھولك..

خرجنا سوياً إلى سطح الأرض.. ونظر إلى صف السيارات التى لازالت واقفة محملة صائحاً: يا خليل.. يا خليل.. يا حضرة الصول..

وانبعث صوت من بعيد يجاوب.. أيوه يا بيه..

-.. هات الحاجة الى معاك كلها وتعالى..

بعد قليل.. جاء خليل.. طويل القامة.. قمحى اللون.. حاسر الرأس.. يرتدى حذاء كاوتشوك في قدميه.. وقد استطالت ذقنه.. وتحت إبطه حقيبة خرائط.. وعلى ذراعه اليسرى رتبة رقيب..

-.. آمال فيه ضابط الاستطلاع؟؟

أمسك بذراع خليل في حنان ورجاء قائلاً:

-.. خليل الكل.. فى الكل.. أصل معندناش ضابط تليفونات واستطلاع.. و خليل بقى راجل مجدع.. ويعجبك.. بتاع كله..

رددت وراؤه.. بتاع كله؟؟ حاضر.. تعالى ورايا يا بنى..

-.. سرت فى خطى سريعة إلى عربة مركز القيادة المتحرك..

جنود مركز القيادة كل في مكانه.. صعدت إلى.. العربية.. وجلست إلى مكتبي الصغير
وأشرت إلى خليل كي يصعد.. وقف منحنيًا قليلاً في مواجهتي.. فتحت حقيبة الخرائط..
وبسطت خريطة عمليات الموقع.. ودعوت خليل للنظر في الخريطة.. وأخذت أشرح..
وخليل يستمع.. فاغراً فاه.. منظره يوحي بعدم فهمه حرفاً مما أقول.. والجنود
يرقبوننا في دهشة.. وأخيراً ياست من إفهامه شيئاً..

.. يا بنى إنت مش تخصصك إشارة واستطلاع؟؟

.. أيوه يا بيه..

.. آمال ليه.. باين عليك مش فاهم حاجة؟؟

رد ببساطة.. أصلى استطلاع مع المشاه.. ودى أول مرة أشوف فيها عربية قيادة
بتاع مدفعية مضادة للطائرات..

.. عموماً يا خليل.. دى حاجة سهلة جداً.. هات الخريطة بتاعتك وإنقل عليها
المواقع دى..

دس خليل يده في حقيبة الخرائط.. وأخرج مجموعة كبيرة من الخرائط.. أخذنا
نفحصها.. واحدة.. بعد أخرى.. ونلقينا جانباً.. وفي النهاية لم نجد أى منها يتطبق على
منطقة العمليات..

سألته: جيت منين الخريطة دى يا خليل؟؟

.. من مصر.. وإحنا طالعين على هنا إدوها لنا.. ومضونى عليها.. وكان عبثاً إضاعة
الوقت.. فعدت أدراجى إلى الرائد ظريف وأخبرته بما تم.. تحولت عيناه إلى اللون
الأحمر.. وبيات الكمد واضحاً على قسمات وجهه.. ورفع وجهه إلى أعلى صائحاً من
أعماقه.. والله العظيم ده حرام.. حرام.. حرام.. قطع ابتهاله رنين جرس التليفون..
.. آلو.. أهلاً.. مساء النور يافندم.. حاضر.. حاسلمه الموقع الساعة خمسة ونص
بالضبط حاككون بالكتيبة على جانب الطريق..

ووضع السماعة..

.. روح يا مختار.. إندهللى الرائد ده.. أهو نساعد.. ونبقى عملنا اللى علينا.. وربنا
يتولاه..

أتيت بالرائد العجوز.. الذى القى بنفسه على كرسى مواجهاً الرائد ظريف..
والجنود فى الخارج يجهزون المنضدة للغذاء..
رفع الرائد ظريف سماعة التليفون وطلب قادة المواقع.. وأصدر إليهم أوامره
الصريحة بترك كل وثائق العمليات لضباط الكتيبة الأخرى.. مع شرحها شرحاً كاملاً
لهؤلاء الضباط.. مع تسليمها لهم بإيصالات.. على أن يقوموا بردها مرة أخرى.. إذا
ما تحركوا من الموقع..
بذلك أصبح على ضباط الكتيبة الاحتياط فقط قراءة الخرائط للإلمام.. بالموقع
الدفاعى الحصين.. وخطة الدفاع كلها..
تناولنا الغذاء صامتين.. كل متفوق داخل ذاته..
بعد الغذاء.. أتى مصطفى باللوريات.. وأخلى لنا الميس الصغير..
فى الخامسة كانت أرتال سرايانا تتدفق إلى قيادة الكتيبة.. وأرتال سرايا الكتيبة
الجديدة.. تتدفق إلى مواقعنا الحصينة.. أعطى قائد الكتيبة إشارة التحرك.. وكمن نودع
حبات الرمال المخلوطة بالعرق.. أترنا سحابة من الغبار ورائنا..
فى الخامسة والنصف كانت الكتيبة على جانب الطريق إلى رفح.. منتشرة فى ساحة
واسعة من الصحراء.. والبحر هناك أكثر قرباً.. والطريق إلى العريش تنهب عليه
سيارات الأمم المتحدة الأرض نهباً..
ولم يكن أحداً يعرف وجهتنا القادمة..
سألت النقيب محمد الذى كان متفائلاً منشراحاً.. عن معنى ما يحدث فأجابنى بثقة:
دى تحركات تكتيكية.. بيسموها ضباب ماقبل المعركة.. لإرباك العدو حتى لا يعلم
أوضاعنا حينما تبدأ المعارك..
وكان.. كما كان دائماً.. فى رأى النقيب محمد وجهة.. وحصافة.. فاقتنعت.. لأننى
كنت على استعداد بالإقناع بأى رأى ينبع من خارجى..
وعلى الجانب الآخر من الطريق.. حيث تركنا مواقعنا رحنا نراقب أشباح الجنود..
يتواثبون هنا.. وهناك.. دون ضابط ولا رابط..
.. تهادت عربة القائد.. بالقرب منا.. وفوجئت بإبراهيم يقفز منها.. متابطاً حقيبة

جلدية صغيرة الحجم.. وتذكرت فوراً إننا أول شهر يونيو..
تقابلت مع إبراهيم فرحاً.. كنت على شفا الإفلاس.. وابتدرة النقيب محمد مازحاً..
حاتقبضنا دلوقت يابو خليل وللا إيه؟؟..
-.. حالاً يافندم.. ونظر إلى واستطرد.. -.. وإنت كمان يا مخ.. ليك عندى الشهر ده
زيادة مائة وأربعون جنيهاً..
-.. ليه يابو خليل.. هو الجيش حايطلعل زكاة الشهر ده..
-.. لا.. أصلك الشهر ده.. ضابط ميس..
-.. يا نهار إسود.. ده أنا معرفش الفرق بين الكوسة والقلقاس..
ورحت بسرعة أستعرض تلك الحجج والبراهين التى تمكّننى من إقناع الرائد ظريف
بإعفائى من هذه المهمة التى هى فعلاً فوق مستوى قدراتى..
فضابط الميس الناجح لابد وأن يتوافر فيه عدة شروط.
أولاً أن يكون ذواقة.. وأنا أبعد ما أكون عن هذه الموهبة.. فحينما أتناول طعامى
يستوى طعم البطاطس.. مع طعم البامية.. ولم يكن لى فى يوم من الأيام مطلباً خاصاً فى
لون معين من الطعام.. ناهيك عن خبرتى المنعدمة فى الحكم على جودة طهى الطعام..
كانت تلك أول الحجج.. أما الأدهى.. فإنه يجب على ضابط الميس أن يكون من البراعة
بحيث يوفق بين رغبات أربعة عشرة ضابطاً بحيث يكون كل منهم فى النهاية راضياً
تماماً.. عن طعامه اليومى.. وبالتالي يجب أن يكون ملماً بكافة أصناف الأطعمة.. وتلك
خبرة أجهلها تماماً..
كما وإننى لا أقوى على الوقوف فى المطبخ دقيقة واحدة.. فكيف لى الإشراف ثلاثة
مرات فى اليوم على إعداد الأطعمة؟؟..
ولحبى لزملائى فقد أشقت أن يبتليهم الزمن بى كضابط ميس فى هذه الأيام
العصيبة.. فيزداد شقاؤهم شقاء..
ولم يكن هناك بداً من استجماع شجاعتى ومناقشة الرائد ظريف فى هذا الأمر..
توجهت إلى سيارة القائد.. كان يجلس فى صندوق اللورى واضعاً مكتباً خلفه
كرسى.. وإلى جانبه يجلس النقيب سمير- يتسامران.. رفعت يدى بالتحية العسكرية..

خير يا مختار.. فيه حاجة؟؟..

-.. حضرة الضابط بلغنى إن سيادتك أمرت بانى أكون ضابط ميس الشهر ده..

-.. فعلاً..

-.. بس يافندم أنا معنديش أى فكرة عن الطبخ والاكل والحاجات دى..

-.. علشان كده.. أنا عينتك.. علشان لازم تتعلم..

-.. لكن يافندم..

قاطعنى بإشارة قاطعة من يده.. استلم الفلوس.. وإبذل مجهود.. وأى حاجة إسأل

النقيب سمير.. إتفضل..

عدت أدرجى محملاً بخفى حنين.. قابلنى إبراهيم ضاحكاً قائلاً:-

- شد حيلك يا مخ.. كلنا لها..

-.. نورنى يا إبراهيم..

-.. أنا سداد.. وتحت أمرك.. بس إقعد ساعدنى فى صرف المرتبات..

.. وأخبار صرف المرتبات تسرى فى الوحدة كسريان النار فى الهشيم.. فقد تجمع الجنود فى حلقات ترقبنا عن كذب..

أنزلت من اللورى مكتب ميدانى صغير وزوج من الكراسى.. ومصباح كىروسين..

جلس إبراهيم مواجهاً للدرج ووضع النقود فى ترتيب داخله.. مفتوحاً نصف فتحة..

وأمامه دفاتر الاستثمارات.. فى حين قمت بصف الجنود صفوفاً تمثل سرايا الكتيبة طبقاً للكشوف.. بينما تركنا النقيب محمد مشغولين.. وحث خطاه للانضمام إلى قائد الكتيبة ورئيس العمليات..

قضينا شطراً طويلاً من الليل فى عملية صرف المرتبات.. حتى إنصرف آخر جندى..

ثم أتى الضباط.. وتناول كل منهم مرتبه.. وقام إبراهيم بإعادة ترتيب حقيبته وحساب ما تبقى معه من مبالغ.. مقارناً إياها.. بما تبقى من أرصدة لم تصرف بعد وهمس منشراحاً.. كده تمام.. التمام..

جهز الجندى المراسلة صندوق اللورى للنوم.. حيث فرش على أرضيته زوج متقابل من البطاطين كل منهما تناه نصفان لتصبح أكثر ليونة.. ولتحتل حيز أضيق.. وعلى كل

منها وسادة متربة.. وضع عليها فوطه الوجه.. أضاء مصباح كيروسين صغير.. صعد إبراهيم إلى اللورى ووضع حقيبته إلى جوار الوسادة فى اتجاه حائط الصدوق.. وجلس يخلع حذاءه.. استدار مرة أخرى.. وفتح الحقيبة أخرج منها علبة لحم محفوظ وباكو بسكويت ميدانى.. كنت قد نسيت أننى جائع.. ولكن بمجرد رؤيتى للطعام.. سال لعابى.. همت بركوب اللورى..

إنشقت الأرض فجأة عن العريف فاروق حكمدار الميس.. رفع يده بالتحية العسكرية متردداً.. نظرت إليه كى يتكلم.. لكنه لم يتكلم.. فقط ظلت يده مرفوعة إلى أعلى.. صحت به.. إيه عاوز إيه.. إنت كمان..

رد بسرعة دون أن ينزل يده.. سيادة النقيب سمير.. بيقول لسيادتك عاوزين نشترى حاجة الفطار والعشاء..

أه.. فقد بدأت المشاكل.. نظرت إلى إبراهيم مستغيثاً.. الذى وجه كلامه إلى قائلاً:
إديله عشرة جنيه..

ثم إلى فاروق..

تشتري ٣ كيلو فول تدميس.. وكيلو بسطرمة.. وكيلو سمن.. وميت بيضة.. وكيلو جبنة رومى.. وعلبة جبنة بيضاء.. وعلبة حلالة كبيرة.. البسطرمة والجبنة الرومى تتقطع حتت صغيرة رقيقة فاهم..

.. فاهم..

.. وتجب فاتورة بالحاجات دى.. فاهم..

.. فاهم..

أخرجت من جيب سترتى عشرة جنيهات.. ناولتها إلى فاروق.. الذى اختفى كما جاء..

.. متشكر يا ابو خليل.. ده إنت عقر..

.. أيوه.. يا سيدى.. بس بالشكل ده حايتخرب بيتك بإنن الله..

.. ليه؟؟

.. لازم ياخويا تمسك دفتر حساب.. وتثبت فيه الى بتصرفه أول بأول.. وتراجع

الحساب مع عساكر الميس كل يوم.. وكل مصروف معاه فاتورته..

.. خليك معايا يابو خليل..

.. طيب إطلع ناكل لقمة.. وننام..

صعدت إلى اللورى.. خلعت حذاءى.. وجلست مواجهاً إبراهيم وبيننا علبة اللحم المحفوظ والبسكويت.. ذلك البسكويت التى جرت العادة على تسميته (خشبسكو) لمتانته التى تضارع الأبلকাশ.. فكنا نتناول قطعة البسكويت نقتطع بها جزءاً من اللحم المحفوظ.. وندفعها في أفواهنا.. وأثناء المضغ تصدر صوتاً كطحن الحجارة..

أخيراً بعد هذا اليوم الحافل العجيب وضعت رأسى على الوسادة كى أنام.. قبل انتقالى من حالة اليقظة إلى حالة النوم.. أتيت بأمى وأبى وتحية وعمى شعبان وسحر إلى اللورى.. أبتسم لهم.. يضحكونى.. فقد كنت هنا من أجلهم..

مع أول خيوط الفجر استيقظنا.. ودب النشاط في منطقة التجمع.. جاء جندى المراسلة ليصب على رؤوسنا ماءً بارداً كالثلج المذاب.. فطردت برودته ماتبقى في أمخانا من أحلام الليل المنصرم..

سرعان ما ظهر جندى يركب دراجة بخارية ما أن لمحنى توجه إلى وسلمنى مظروف قمت بالتوقيع عليه بالاستلام.. حثثت الخطى إلى عربة الرائد ظريف..

طرقت جانب الصندوق انبعث صوته متسائلاً: فأخبرته بالمظروف..

ارتفع المشمع المسدل وقفز إلى جوارى حافى القدمين.. فض المظروف وجرت عيناه عبر السطور.. أمرنى بالمرور شخصياً على قادة السرايا للاستعداد للتحرك في الثامنة.. ولم أسأل إلى أين..

في الثامنة بدأت كل الكتيبة في المسير.. تتقدماً سيارة الرائد ظريف ومعه النقيب سمير.. ثم عربة مركز القيادة المتحرك وأنا بها.. وخلفى باقى السرايا.. والشئون الإدارية.. بمجرد خروجنا إلى الطريق الرئيسى انحرف القائد يساراً في اتجاه رفع.. وبعد عدة كيلو مترات وجدنا طابوراً أمامنا.. وقفنا خلفه.. وجاء طابور آخر وقف خلفنا.. واصطف طوابير وحدات اللواء كله في طابور واحد رهيب.. فأصبح طريق العريش.. رفع.. يغص باللوريات والمدربات والمدفعية.. في مظاهرة.. مهيبة.. تهز

الوجدان؟؟!!

تحرك الطابور الطويل.. على الطريق الأسفلتي كثعبان يتلوى.. حتى لاح على البعد الطريق إلى رفح وغزة منعطفاً يساراً..

إنحرف الطابور العظيم يمينا إلى الصحراء.. أخر حدود مصر شرقاً.. ثم توقف.. أشار إلى القائد أن أهبط.. هبطت من اللورى ومعى أدوات الاستطلاع كاملة.. وخوذتى على رأسى.. وسلاحى على كتفى ونظارة الميدان مدلاه من عنقى.. قفزت إلى عربة القائد وجلست مواجهاً النقيب سمير.. الذى كان يبتسم ابتسامة خالية من المعنى والترحاب.. وعلى حين غرة سألنى: حاتغدينا إيه النهاردة؟؟

و كان سؤالاً مباغتاً.. فقلت لنفسى.. ربنا يستر.. ربت ركبتى مطمئناً قائلاً: ولا يهكم.. أنا إديت أوامر باللازم.. تساءل القائد ما الخبر.. فرد سمير ضاحكاً: -.. مختار كان ناوى يسوحننا النهاردة يافندم..

رد القائد مداعباً.. نتسوح وإنت موجود يا سمير.. ده برضه كلام.. إنضمت سيارتنا إلى طابور صغير من سيارات الجيب.. توقف الرتل.. أسفل إحدى الروابى العالية.. هبط قادة الوحدات وبيد كل منهم خريطة ونظارة ميدان.. على القمة كان قائد اللواء وإلى جواره الرائد أركان حرب عزت.. إنضممنا إلى المجموعة.. وأخذ قائد اللواء يشرح الخطة.. لهذا الموقع الجديد مشيراً إلى اليسار وإلى اليمين وإلى الخلف.. محدداً لكل وحدة مهمتها.. وحدود عملها.. حيث يقوم قادة الكتائب برسم مهامهم على الخرائط..

أشار إلى اتجاه اليسار قائلاً.. سيحضر اليوم لواء كامل لاحتلال المنطقة من حدنا اليسار وحتى البحر.. أما الخلف فهو موقع جرادة.. وتم احتلاله بواسطة لواء بدلاً منا.. وهنا اعترض أحد قادة الكتائب قائلاً:

-.. وده يافندم لواء.. حد يقدر يعتمد عليه؟؟

أسكته قائد اللواء بإشارة حازمة قائلاً:

-.. هو ده الكلام اللي مش عاوز أسمعه.. وغير مسموح لحد أى كان إنه يردده.. دى

خطة القيادة.. إحنا حانتدخل كمان في خطة القيادة؟؟ كل واحد يقوم بالمهمة بتاعته وبس.. واضح..

قاطعہ أحد قادة كتائب المشاه قائلًا:

-.. حضرتك قلت حد يسار اللواء يحتله لواء تانى النهاردة.. وفي الخلف اللواء

الاحتياط في جردة.. طيب.. الحد اليمين للواء؟؟

-.. يمين اللواء حايترزح حقل الغام..

-.. وبعد حقل الغام.. إيه القوات الموجودة؟؟

-.. حارجع تانى وأقول خيلنا في حدود مهمتنا وبس.. مش عاوز أى سؤال خارج

الموضوع.. دلوقت كل واحد عرف موقعه.. وحدوده.. ثم أردف.. على بركة الله.. كل واحد ياخذ كتيبته على موقعها لاحتلالها فوراً.. وبكرة الصبح عاوز قرارات القادة علشان نصدق عليها.. عدنا أدراجنا إلى السيارة.. جلس الرائد ظريف واضعاً الخريطة على ساقيه.. ورسم ثلاثة دوائر تمثل الثلاث سرايا.. ومثلثاً باللون الاسود يمثل قيادة الكتيبة..

ونظر منشرحاً إلى النقيب سمير قائلًا- كده خلصنا.. وجاهزين..

-.. سعادتك دائماً جاهز يافندم..

عدنا أدراجنا إلى حيث الطابور الكبير.. قمت باستدعاء قادة السرايا.. شرح لهم قائد الكتيبة مهمة الكتيبة.. ومهمة كل سرية وموقعها على الخريطة.. فقام كل منهم بتحديد موقعه على خريطته.. وكذلك مواقع باقى السرايا وقيادة الكتيبة.. وأعطى أمر التحرك بترتيب الاحتلال.. فتوقفت أولاً سرية الرشاشات وبها إبراهيم.. ثم سرية النقيب محمد.. ثم قيادة الكتيبة في حين استمرت السرية الثالثة في المسير ومعها القائد لاحتلال موقعها الخلفى نسبياً..

عدنا مرة أخرى إلى الموقع المختار لقيادة الكتيبة.. حيث راح النقيب سمير يحدد مكان كل عربة من عربات مركز القيادة الثابت.. وأماكن مطبخ الجنود ومخازن التعيين والوقود والسلاح.. والميس.. ومطبخ الضباط.. وما شابه ذلك..

كان في بقعة خضراء نسبياً.. تناثرت بها أشجار الخروع والتوت البرى.. وبضع

شجيرات من العنب.. بالإضافة إلى شجرة نبق وأربع نخلات شاهقة الارتفاع..
قفزت إلى سيارة مد السلك التليفونى.. ومعى طاقم مد السلك بالصندوق الخلفى
وأخذنا نسير على هدى الخريطة إلى المواقع لمد الخطوط التليفونية..
فى الثانية ظهراً أتممت الاتصال بجميع السرايا.. وكذا بمراكز القيادة ثم بدئنا
الحفر.. لإخفاء السيارات تحت الأرض.. كان مستحيلاً إتمام هذا الحفر اللعين.. حيث
التربة من الرمال الناعمة ذات الحبيبات الصغيرة الملساء فإذا ما نجح الكوريك فى
إمساك حفنة منها.. وإلقائها خارج الحفرة.. فإن ثقلها الضاغط على جانب الحفرة قليلة
العمق.. يجعل أجنابها تنهار.. فتتسع.. ويقل عمقها.. وهكذا.. تركنا الكواريك جانباً..
وبدأت أرتكز على أربع لتشجيع الجنود ليحذون حذوى.. نحاول الحفر بالأيدي..
كالأرانب.. إلا أننا لم نصل إلا لنتيجة أسوأ مما كانت عليه.. عملنا بهمة ونشاط وبلا
يأس.. حتى تصيب منا العرق.. الذى اختلط مع حبات الرمل الناعمة.. فتماسك مع
نسيج الملابس وأحبالها.. إلى شئ كالسنفرة.. أعطيت الجنود فترة راحة لتناول
الطعام.. الذى كان على شكل معلبات.. وتوجهت إلى خيمة الميس.. فوجدت ساندوتشات
جاهزة.. أخذت نصيبى منها.. وجلست فى ظل شجرة خروع أتناولها..
حينما فرغت من الطعام.. توجهت إلى عربة القائد.. لأشكو له.. سوء طبيعة الأرض
واستحالة حفرها.. كنت منزعجاً.. أكثر منى خائفاً لعدم تنفيذى الأوامر.. كانت
شكواى.. لتصورى أن هناك وسيلة ما.. لا أعرفها.. فرحت أطلبها.. لكنه طمئننى وبدد
مخاوفى.. وأعلن أن تلك شكوى عامة على مستوى اللواء كله.. عما قريب سيرسلون إلينا
المواد المناسبة لإنشاء موقع حصين.. كذلك الذى سبق لنا إنشاؤه فى جرادة.. وما على
الآن.. إلا وضع العربات فى أماكنها ونشر الشباك المموهة عليها لإخفائها.. مع الاستعانة
بفروع الأشجار.. أثناء مخاطبتى القائد.. أتت سيارة.. تبينت فى سحنة راكبها الملازم
أول عبد الستار.. فأشحت عنه ومضيت فى طريقى عائداً إلى جنودى..
بدأت سيارتى تهدر.. ودخلت أماكنها كما كانت.. وبدأ الجنود فى معاونة السائقين
لنشر شبك التمويه عليها.. وتقطيع بعض فروع الأشجار لجعلها مشابهة للبيئة
المحيطة بها ما أمكن..

بعد قليل جاءنى مراسله القائد يسأل عن فاروق ضابط الشئون الإدارية.. فأشرت له إلى مكانه.. بعد لحظة كان فاروق في صحبة الجندى يسيران إلى عربة القائد..
أنت من خلفى سيارة بها كل من عبد الستار وفاروق.. وقفت إلى جوارى تماماً..
نزل فاروق وعبد الستار.. حيث نادو على ثلثة من الجنود.. فأتوا ركضاً.. وأمرهم فاروق بإنزال حمولة السيارة.. على الأرض.. وما أن بدأ الجنود فى إنزالها حتى تبينت إنها ربطات بيضاء ناصعة.. فتملكنى الفضول.. فسألت عما فى تلك الربط.. فاجابنى عبد الستار بصوته المحايد بهدوء.. دى أكفان..
إلتعت صائحاً: بتاعة الميتين؟؟..
فرد بنفس اللهجة الرتيبة.. أه..
— وجاييها هنا ليه.. —
رد فاروق ضاحكاً: دى من مهمات الحرب..
رددت حانقاً.. إيه الغال المنيل ده..

إلا أن عبد الستار ألقى على نظرة بنصف عين قائلاً: يبقى كريس قوى.. لسو الواحد لقى حد يكفنه لما يموت فى الحرب.. ياما ناس إترمت للديابة..
كنا فى أمس الحاجة إلى مهمات التجهيزات الهندسية.. فى حاجة إلى شكاير الخيش الفارغة.. أو الأسمنت والطوب والحديد المقوس.. لإمكان إعداد موقع ملائم يصلح للدفاع.. لكن بدلاً من كل ذلك.. أتى عبد الستار من قيادة القاعدة.. بالأكفان فقط..

يوماً أنفقناهما فى أعمال روتينية تافهة فى موقعنا الجديد.. فى انتظار وصول مهمات التجهيزات الهندسية.. مجهودنا ضائع أساساً فى تدبير سبل الحياة للضباط والجنود.. كنا نجلب الماء من العريش على مسافة سبعون كيلو متراً.. ننقل مكعبات المياه من سيارة إلى أخرى بصفة يومية لتوزيع الخسائر على أكبر عدد ممكن من السيارات.. أما الطعام فكنا نجلبه ثلاثة موات يومياً من مسافة عشرون كيلو متراً فى اتجاه الغرب..
كنا نواجه مستعمرتين إسرائيليتين.. هما مستعمرتا كرم أبو سالم.. والدنجلور.. ورغم إضاعة تلك المستعمرات ليلاً.. إلا أننا كنا متيقنين أن سكانها قد غادروها بمجرد

وصولنا.. وما الإضاءة الليلية تلك إلا خداعاً وتمويهاً..
 وكان مستحيلأ سماع أى محطة إذاعة عربية أو مصرية باستثناء إذاعة صوت
 العرب والتي لم تكن تكف عن إذاعة الأغاني الوطنية والأناشيد الحماسية.. ودعاوى
 الحرب والبطولة كل ساعة.. وكل دقيقة.. مع مقتطفات دائمة بصوت الرئيس.. وكلما
 هبطنا إلى أرض الواقع في رفح المأسورة.. جاءنا الصوت المتحمس يرفعنا مرة أخرى إلى
 الفضاء.. فنتجاوز الواقع.. ويحدث لنا.. الانفصام غير المنطقي..
 غالباً ما كانت تقتحم أسماعنا إذاعة إسرائيل الموجهة باللغة العربية.. واللهجة
 المصرية.. تذيع ما تفتقده من أغاني عاطفية.. يتخللونها بكلمات مستكنة مستضعفة..
 تناشدنا السلام..

اليوم الرابع من يونيو.. وقد انتهينا توأ من تصديق قائد اللواء على قرار قتال
 كتيبتنا.. وصلت إلى اللورى الذى أضع به حاجياتى.. لادس الخريطة في الحقيبة..
 تناولت كشافي الكهرباءى ليساعدنى على المسير ليلاً.. كنت ضابط نوبتى الكتيبة..
 أصدر الرائد ظريف أوامره بأن يبقى في كل سرية ضابط واحد على الأقل.. والباقي
 يمكنهم الحضور لقيادة الكتيبة.. وذلك للتخفيف عنهم.. وطرد الوحشة من نفوسهم..
 لذلك سرعان مابدا الضباط يتوافدون إلى سيارتى فأخرجت ما أملك من بطاطين وأمرت
 بفرشها في الهواء الطلق على الرمال الناعمة وجلس الزملاء يتسامرون..

وكان الملازم أول حازم قائد السرية الثانية.. هو نجم السمر بلا منازع.. فقد أطلق
 عليه زملاءه.. اسم «عبد المهم».. كاسم حركى هزلى.. يمثل دفاعاً فعالاً أمام تصرفاته
 التى لا يمكن ردعها بشكل مباشر.. وكان فعلاً شخصية طريفة وإن كانت علاقتى به..
 سطحية.. وفي حدود العمل ليس إلا.. وهو أكثر ضباط الكتيبة تأنقاً في جميع الظروف..
 يحكى مفاخرأ بأنه يملك خمسة عشرة أفورولاً معتنى بكيهم وتنشيتهم.. بالإضافة إلى
 عشرون غيارأ داخلياً.. وأكثر من ثلاثين زوجاً من الجوارب.. حيث يرتدى الجوارب
 بمعدل كل زوج في قدم..

ولا شك أن اللواء كله.. وليس الكتيبة فقط يتندر بحفلات حلاقة ذقن حازم فإنه
 ينشر أدوات الحلاقة على طرف صندوق اللورى يمتنئى العناية.. ثم يضع كمية وافرة

من معجون الحلاقة المستورد الفاخر على ذقنه.. ويبلل الفرشاة في مياه ساخنة خصيصاً لحفل الحلاقة.. ويروح ويغدو ذهاباً وإياباً بالفرشاه.. حتى يصنع من رغاوى الصابون ذقناً كبيرة بيضاء كبابا نويل.. وفي تمهل شديد يبدأ في الحلاقة.. مرة.. ومرة.. ومرات.. ثم يقوم بغسل وتنظيف الأدوات وتجفيفها بعناية.. وإعادة وضع كل شيء في علبة كما كان.. ثم يتناول ملقاط لاصطياد أى شعرة قد تكون متمردة.. هنا.. أو هناك.. فإذا ما انتهى صاح قائلاً:
-.. الفتلة..

وعلى الفور يظهر الجندي حلاق السرية ويده بكرة خيط طرفها بين أسنانه.. في حين يجلس حازم موجهاً صدغه إلى الحلاق.. الذى يكتسح بالفتلة أى شعيرات قد تكون هنا.. أو هناك.. ولا يترك وجه حازم إلا وقد اكتس باللون الأحمر القانى.. فيشير له بيده أن يكف.. فيغسل وجهه.. ويضع كمية كبيرة من الكريم لتصبح بشرته ناعمة مضقولة.. يتبعها بحفنة فاخرة من الكولونيا.. ثم يمسح شعره الأسود الفاحم براحة يدع وبها أثار الكريم والكولونيا.. ويبدأ في تصفيفه إلى الخلف.. إلا أن شعره دائم.. التمرد.. منتصباً..

كان حلم حياة حازم أن يصبح ضابطاً بالمخابرات.. لذلك كان ميالاً للنقاش.. بهدف وضع ذكاء من يخاطبه في الاختبار.. يمارس هذه الهواية مع الجميع من أصغر الجنود صعوداً بالضباط حتى القائد نفسه.. رغم إنه ثبت للجميع أنه ذو ذكاء أقل مما ينبغي بكثير..

قاتل قتالاً ضارياً.. ليعينه الرائد ظريف ضابطاً لأمن الكتيبة.. ولقد فهم حازم مهام عمله الإضافي هذا بأوسع كثيراً مما يعطيه في الحقيقة.. فقد راح يفتح خطابات الجنود والضباط وقراءتها بدعوى الأمن.. والجلوس إلى تحويلة التليفون والتصنت على مكالمات زملائه بدعوى الأمن.. حتى إذا فاض الكيل بالرائد ظريف منعه منعاً باتاً من استلام خطابات الكتيبة.. أو الدخول إلى التحويلة.. وكان ذلك بالنسبة لحازم بمثابة تحطيم لأماله تحطيماً كاملاً.. ولم يتبقى لديه عملياً من واجبات ضابط الأمن إلا ختمان للكتيبة.. لختم مراسلاتها مع الجهات الخارجية..

ما أن وقعت عين حازم على مصباحى الكهربائى حتى سألنى منزعجاً:
 -.. إيه ده؟؟
 -.. ده كشاف يا حضرة الضابط حازم..
 صاح فجأة-.. إحنا في حالة حرب على الحد الامامى.. قدام العدو.. وإننت معاك
 بطارية.. بتعمل بيها إيه؟؟.. عاوز أعرف بتعمل بيها إيه..
 -.. يا سيدى بنور بيها علشان أشوف تحت رجلى..
 -.. يا حضرة الضابط إننت مش عارف إن النور ده ينشاف على بعد كبير؟؟..
 يعنى العدو شفننا دلوقت وعرف مكان الكتيبة..
 كنت أصلاً في حالة معنوية سيئة.. وليست لدى أى قدرة على الجدل العقيم..
 فتوجهت إليه سآمأ قائلاً: بقولك إيه يا حضرة الضابط حازم.. وحياة والدك أنا مش
 ناقصك.. شفلك حد غيرى.. سيبك منى يا أخى..
 -.. وحياة والدى.. ما تتكلم كويس يا حضرة الملازم أنا أقدم منك..
 -.. طيب سيبك منى يا حضرة اللواء..
 -.. حضرة اللواء.. لا ياسى مختار.. أنا ملازم أول بس.. إننت بتتريق على..
 ماسك كشاف زى ده.. وعمال تنوره وتطفئه.. وتدى إشارات.. وإحنا قدام العدو..
 وبوجهك مش عاوز تسمع الكلام.. طيب أنا حا أوريك..
 -.. ورينى.. بس سيبك منى بقى..
 جلست.. وأخرجت سيجارة من جيبي كى أدخن.. كان الضباط يراقبون الموقف
 باسمين.. فجأة.. انفجر النقيب محمد ضاحكاً.. تبعه باقى الضباط في موجة ضحك
 شديدة.. وأصبح وضع حازم في قمة الحرج.. فهب واقفاً وصاح بعصبية قائلاً:
 -.. حاضر يا محمود يا مختار.. أنا رايع لقائد الكتيبة وحا أوريك..
 وحث خطاه في اتجاه.. عربة قائد الكتيبة..
 من خلال الضحكات.. ظهر صوت النقيب محمد قوياً أمراً..
 -.. يا حازم.. استدار حازم فأردف محمد.. تعالى هنا..
 عاد حازم وأشار له محمد أن يجلس إلى جواره فجلس..

.. شاييف يا حازم العربيات الى رايحة جاية دى فى كل حة ٩٩.. ماكلها منورة
النور.. ماتروح تكلمهم..
.. أنا ماليش دعوة بحد.. أنا لى أمن وحدثى.. وبس..
.. يقول إيه يا حازم.. إهمد.. وبطل الخل بتاعتك دى.. وبدال الزيتة الى إنت
عاملها.. إقعد..
جلس حازم وقد خسر خسارة كاملة.. وبعد لحظات نسى تماماً ما حدث وإندمج
معنا فى حديث السمر.. وتبادل مع الجميع الضحكات.. وفجأة صاح حازم..
.. يا مصطفى..
جاء الجندى المراسلة الخاص بحازم.. أيوه يا أفندم..
.. هات الترمس والكباية..
اختفى مصطفى قليلاً عاد وبيده ترمس كبير وكوب نظيف.. ناولهما لحازم
ومضى.. تناولهما حازم قائلًا بلا مبالاة.. ده ترمس قديم كان مرمى عندنا فى البيت..
قلت أجيبه يمكن ينفع ٩٩!!
وبنظرة واحدة إلى الترمس اللامع بيد حازم تأكد كل منا.. أنه كاذب.. فقد كان
جديداً تماماً.. ولم نعلق على أكذوبة حازم.. طمعاً فى ارتشاف ما بداخله..
.. طول عمرك راجل شيك يا حازم..
.. ده أنت أبو الأبهة كلها يا حازم..
فى حين راح حازم يبتسم فى سعادة.. مد يده بكوب ملىء إلى النقيب محمد.. الذى أخذ
يرشف رشقات طويلة لها صوت مسموع.. ونحن فى الانتظار..
نظر إلى إبراهيم قائلًا: أنا جعان..
وأيده باقى الزملاء.. نهضت أضىء مصباحى.. توجهت إلى اليس.. حيث عدت مرة
أخرى وورائى جنديان يحملان صينيتان عليهما بعض الأطعمة.. على شكل كومات من
الخبز والجبن والبسطرمة.. والبيض المسلوق..
أكلنا جميعاً حتى امتلأنا.. وظللنا فى جلستنا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث الذى
لم يخرج عن موضوع الساعة.. الحرب الوحشية.. ولم يكن أحدنا يشك للحظة واحدة

في النصر الفوري السريع على القوات الإسرائيلية.. والشك الوحيد كان فقط جنون قادة إسرائيل وقيامهم أولاً بالهجوم..

أصبح كل منا محلاً سياسياً وعسكرياً.. مرجعنا في ذلك مقالة جريدة الأهرام الأسبوعية.. وإن كنا نعترض على قرار الرئيس ألا نطلق الطلقة الأولى.. ذلك إننا اعتبرنا ذلك بمثابة كرم منه لا يستحقه العدو الإسرائيلي..

في خضم هذه الحماسة.. أخبرنا النقيب محمد عن كلمات قائد اللواء اليوم عند مروره على سريره حيث سأله.. كل كام طلقة من مدافعك توقع طائرة يا محمد؟؟..

..الكتب يافندم بتقول كل ٣٠٠.. بس أنا أوعد سيادتكم كل طلقة توقع طائرة..

كلنا نحب النقيب محمد.. ذلك الرجل البسيط.. الذي هو صمام الأمان لكل منا.. نسر إليه بأسرارنا.. وخوالب أنفسنا.. فيقدم خدماته إلينا في صمت.. ويتقبل منا الشكر على استحياء.. ولا نشعر اتجاهه بالحرَج..

انفض مجلس السمر.. وذهب كل ضابط عبر الظلام إلى موقعه.. وتبقى معي إبراهيم.. قلقاً.. مفكراً كعادته.. فلما خلت الصحراء إلا منا بدء الكلام همساً..

..تفتكر الحرب ح اتقوم؟؟..

..والله يا إبراهيم.. مش باين.. بس أنا عاوزها تقوم..

..ليه؟؟..

..ليه.. لأن.. انتظر الحرب في حد ذاته أشر من قيامها فعلاً.. على الأقل نعرف ليه إحنا هنا.. علشان في الحرب ساعة الزمن بالنسبة لنا حاتوقف..

..تفتكر لو قامت حاتكسبها؟؟..

..طبعاً يا إبراهيم.. إنت مايتسمعش الراديو؟؟..

..الراديو.. جيش رايح يحارب.. ياخذ معلوماته من الراديو؟؟.. حد قال لنا حانحارب مين؟؟.. العدو حجمه قد إيه.. حد جاب التجهيزات الهندسية علشان تجهز المواقع للحرب.. اللي إنت شايفه ده.. تسميه مواقع جيش عاوز يحارب؟؟..

..دى مسألة وقت.. والتجهيزات لازم حاتيجي.. والرئيس قال إن إحنا مش حانضرب.. الطلقة الأولى.. يعنى مش حانهاجم.. وإسرائيل طبعاً مش معقول حاتهاجم

-
- علينا.. يبقى الحرب مش حاتقوم دلوقت.. إلا لما نجهز ونستعد تمام التمام..
- .. إحنا موجودين هنا ليه؟؟..
- .. علشان نحارب..
- .. فيه حاجة اسمها حرب كده خلاص.. حرب إزاي؟؟..
- .. حرب زى الناس مابتحارب..
- .. لا.. إتعلمنا فى الكلية الحربية إن الحرب اسمها عمليات مسلحة.. إما دفاع أو هجوم.. والإثنين مع بعض اسمهم حرب.. مش كده..
- .. مضبوط..
- .. سؤالى بقى.. إحنا فى الموقع ده.. حاندافع.. وللا نهاجم؟؟..
- أسئلة إبراهيم أدخلت فى نفسى الريبة.. وجعلتنى أفكر.. أفكر فى أرض الواقع.. فمواقع الهجوم يجب أن تكون أكثر كثافة.. وأقل فى طول المواجهة.. وأكثر تركيزاً فى تنوع الأسلحة.. وما نحن فيه فعلاً.. لا يشكل مواقع لبداية هجوم على الإطلاق.. على مستوى معلومات ضابط مثل برتبة الملازم.. كما أن الموقع أيضاً خالى تماماً من التجهيزات الهندسية.. كما أن جانب اللواء الأيمن عارى.. خالى من الدفاع وحتى منطقة القسيمة على بعد مائة وعشرون كيلو متراً.. وخلفنا ثغرة طولها أربعون كيلو متراً حتى موقع جراداة الحصين.. تمكن تلك الثغرات جيوش العالم كله من إختراقها وكان مستحيلاً متابعة النقاش الذى قبض صدرى.. فصحت محتجاً..
- .. إحنا مالناش دعوة.. إحنا نحارب وبس.. هجوم.. دفاع.. مش شغلتنا الى فوق شايفين أكثر مننا..
- .. الحرب مش لعبة.. الحرب تار.. ودمار.. ناس بتموت.. وناس بتتشوه.. أنا قرأت كثير عن الحروب.. معرفش ليه يا أخى أنا خايف ومرعوب..
- .. علشان جيان..
- .. أنا جيان يا مختار؟؟.. الله يسامحك.. بس فيه ناس بتقول إننا بقى بنعمل مظاهرة بالقوات.. ولا ناويين نحارب.. ولا نهيب..
- .. ولاد كلب..
-

.. بس أنا مصدقهم ..
 .. علشان حمار زيهم ..
 .. لا.. المصيبة.. العملية تتقلب جد واليهود يهجموا ويكونوا محضرين خازوق زى
 بتاع ٥٦ .. تبقى مصيبة ..
 .. بقولك إيه يا إبراهيم .. قوم فز.. روح موقعك .. أنا ضابط نوبيتجى النهاردة ..
 حائر على الخدمات .. ولما تهمد وتعقل وتبطل الجنان ده .. إبقى تعالى ..
 نهضت كالهارب وبيدى الكشف .. وسرت وحدى فى الظلام .. تركت إبراهيم
 وحيداً .. فإن كل ماعساه ينطق به .. مر برأسى .. وحفر فيه .. حفراً عميقاً .. لكنى أرفضه
 والوذ بالراديو .. كى أنساه .. إن كل ما يحدث وما يقال .. ماهو إلا حلم .. حلم عجيب
 خلال الظلام الذى يلف كل شىء اقتحمت وحدتى أطياى أمى .. وأبى .. وتحية .. وعمى
 شعبان .. وسحر .. وحينما مربى طيفها تحرك رغم القلق شىء فى أعماقى .. تحدى
 الضغوط والملل .. والترقب والانتظار .. فوق حبات الرمال الموجودة هنا أبداً .. مثلت
 سحر بالنسبة لى شىء أحسسته فى عروقى ودمى .. ألهب رأسى ..
 حملتنى قدمائى إلى موقع النقيب محمد .. تسللت من خلال شجيرات الخروج .. على
 هدى شعاع من ضوء ينبعث أسفل المشمع المسدل على مؤخرة لورى مبيت النقيب
 محمد .. رفعت المشمع قليلاً ومددت رأسى ..
 كان مستلقياً مرتكزاً على مرفقه يقرأ خطاباً .. عاقداً ما بين حاجبيه باهتمام .. ما إن
 شعر بوجودى .. حتى طوى الخطاب ودسه أسفل الوسادة ودعانى للصعود ..
 قفزت إلى الصندوق وزحفت على أربع حتى استويت جالساً قبالة مسنداً ظهرى إلى
 الحائط ..
 .. تشرب شاي ٩٩ ..
 .. شكراً يافندم .. الوقت متأخر .. والظاهر سيادتك كنت حاتنام .. لا .. أنا واخذ
 ع السهر .. مالك يا محمود فيه إيه ٩٩ ..
 .. أبداً يافندم .. متضايق شوية ..
 .. إيه .. موشوع حازم ٩٩ .. ياراجل إنس ..

.. لا يا أفندم مش موضوع حازم..
 .. وصلك جواب من مصر؟؟..
 .. لا يا أفندم.. ماحدش بعث لى جوابات..
 .. أه.. يبقى لازم حاجة فى الشغل.. أحكىلى..
 .. بس موضوع التجهيزات الهندسية ده قالقنى.. وكمان حكاية الأكفان اللى جابها
 النهاردة عبد الستار..
 قال مشجعاً: كمل.. وإيه كمان؟؟..
 .. بس..

.. شوف ياسيدى.. موضوع التجهيزات الهندسية يقلقك ليه؟؟.. مفيش أى سبب
 علشان تقلق مش سرية محمود مختار لوحده.. لأ.. دى القوات الليحوالك كلها.. اللي
 يمشى عليهم يمشى عليك.. وأدينى عندك أهو.. قائد سرية.. عملت إيه؟؟.. زى ما قالوا
 بالضبط: أحفر.. حاولنا ما عرفناش.. قلنا رأينا.. قالوا استنوا لما تيجى التحصينات..
 وأدينا بنستنى.. حد جاب الحديد والطوب والأسمنت وإحنا مابنيناش؟؟.. أما حكاية
 الأكفان دى.. حاجة زى باقى المهمات.. الأفول.. والبيادة.. النهاردة نصيب سريتى
 ٢٥ كفن.. وأزعل ليه؟؟.. طبيعى لازم الحاجة دى تكون موجودة.. لما العسكرى
 يموت.. حاندفنه فى إيه؟؟.. ماهى الحرب كده يا محمود.. لازم ناس حاتموت وناس
 تنجرح.. وناس تتأسر.. وناس تعيش.. فاهم..
 وكنت للأسف فاهم.. فكل شىء يمكن تبريره.. ولكن الإحساس القاهر بالانقباض
 كيف يمكن تبريره.. ومناقشته.. والغاؤه؟؟..

هبطت مرة أخرى إلى الموقع.. سائراً إلى القيادة لتفقد جنود الحراسة.. هبت نسمة
 رطبة.. فارتفع صدرى فى شهيق عميق.. السكون شاملاً والظلام تاماً.. ومستعمرتا
 العدو أمامى.. على غير العادة.. فى حالة إظلام.. تام..
 ورغم ذلك إنتابتنى إحساساً لا سبيل إلى مقاومته.. بالخطر.. توقفت.. أرهف سمعى
 لم تكن هناك جلبة.. ولكن صمت وسكون.. ورغم ذلك هناك صوت لشىء غير عادى..
 شىء مكتوم.. أتياً من بعيد.. شىء كالهدير.. أو كالأزيز.. أو خليط منهما معاً.. مستمر

وفي دأب.. اهتزازات كالزلازل الخفيفة غير المحسوسة تحت أقدامى..
أوقفنى جندى الحراسة.. فسألته إن كان يسمع شيئاً؟؟.. أرهف أذناه.. وعيناه
تتحرك كهوائى الرادار فى محجريهما.. وأكد شكوكى.. عدت أدراجى لأخبر النقيب
محمد.. لكن سيارته كانت تسبح فى الظلام..
شئ ما تحرك فى صدرى.. شئ قلق.. كطفل متمرد.. وراحت الصور تمر بخاطرى
منذ تركنا العريش.. وتلك الأكفان المتراسة على الأرض.. كمن تدعوننا.. لتحتوينا..
وشواهد القبور فى موقعى بوادى العريش.. وعبد الستار قمىء المنظر كدافنى الموتى..
وقلق إبراهيم والكتيبة الاحتياطى التى احتلت مواقعنا الحصينة.. ولا تفقه شيئاً يعينها
على القتال.. وإن أرادت.. والهجوم على شرم الشيخ.. وأسر الرائد ظريف.. وبقى النسوة
على الوجوه.. دار فى رأسى احتمال الهجوم الليلى.. كما حدث مع قائدى منذ إحدى عشر
عاماً.. وما أن جاء هذا الخاطر فى رأسى.. حتى شددت خطاى إلى عربة القائد.. أضرب
جانب صندوقها بقبضة يدي ضربات متتابة.. محدثاً جلبة فى هذا الهدوء الشامل..
وسرعان ماأتى تساؤل القائد يقطاً.. مين..
-.. أنا محمود مختار يا فندم..
-.. عاوز إيه يا مختار الساعة دى..
-.. عاوز سيادتك يا فندم..
-.. يابنى عاوز إيه.. بس..
-.. حاجة مهمة خالص يا فندم..
ارتفع المشمع وقفز القائد حافى القدمين إلى جوارى.. وبين أصابعه بقايا سيجارة
تختنق.. رماها بين أقدامى فدهستها..
-.. خير يا مختار.. فيه إيه..
-.. سامع أصوات كده غريبة جاية من جهة العدو..
-.. أصوات.. زى إيه كده؟؟..
-.. زى ماتكون جنازير دبابات.. أو دوران محركات.. أو مراوح طيارات
هليكوبتر..

.. من إمتى ٩٩؟ ..

.. من ساعة تقريباً ..

أشار بيده أن أصمت .. وبدأ يرهف السمع هو الآخر .. ولقد بدت الأصوات أكثر وضوحاً هذه المرة .. هتف مطمئناً ..

.. يمكن تكون دى .. تحركات قواتنا إحنا .. على العموم نتأكد أحسن .. ومد يده إلى داخل الصندوق وجذب تليفونه الميدانى .. أدار يده .. طالباً قيادة اللواء .. وعلى الطرف الآخر .. كان الرائد عزت .. استمرت المكالمة دقائق .. ووضع السماعة .. وأخذ يضرب صندوق اللورى صائحاً:

.. سمير .. سمير .. إصحي يا سمير ..

وجاءه الصوت المتتائب - أيوه يافتدم .. خير ..

.. قوم يا سمير .. الظاهر الحرب حاتقوم ..

على ضوء مصباحى نظرت إلى ساعة يدى .. كانت الواحدة صباحاً .. دبّت فى أوصالى قوة ونشاط مفاجئ .. وشئ بداخلى متحفزاً تماماً ..

.. خير يا أفندم ..

.. معاك حق يا حضرة الضابط مختار .. إنت ضابط كويس .. التحركات دى فعلاً عند العدو .. بقالها مدة .. البلاغات وصلت قيادة اللواء من الخط الأمامى .. وفيه بلاغات فى قيادة الفرقة .. يقول إن تحركات العدو دى .. على طول الجبهة .. روح التحويلة .. وإمسك التليفون وإبعت الإشارة دى ومليها لقادة السرايا بنفسك .. إكتب ..

.. إفضل سيادتك قول .. أنا مش حائسى حاجة خالص ..

.. يتم رفع درجة الاستعداد إلى الحالة الكاملة .. جميع الضباط فى مراكز القتال وأطقم المدافع على مدافعها تشدد الملاحظة .. وأى شواهد غير عادية تبلغ فوراً يستمر ذلك .. حتى صدور أوامر أخرى ..

ركضت إلى عربة القيادة .. وجلست إلى التحويلة .. أطلب قادة المواقع .. وأبلغت الإشارة ثم دونتها فى السجل الخاص بها .. دب النشاط والحياة فى أرجاء اللواء مع

خيوط الفجر الاولى..

قمت بإيقاظ جميع جنود وضباط القيادة.. بتنا في حفرة قليلة العمق.. أسلحتنا في أيدينا.. والخوذات على رؤوسنا..

لاشك عندي إنه مع خيوط الفجر.. سوف تظهر طائراتنا تضرب ما جمعه العدو خلال الليل.. لتجهض نواياه..

نشرت الشمس أشعتها الحارقة على وجه الصحراء.. دعاني القائد إليه.. وأمرني بالذهاب فوراً للنوم.. على أن يوقظني جندي المراسلة إذا ما حدث شيء غير عادي.. هاهي الحرب أخيراً..

كانت رأسي تعمل كمحرك سريع الدوران.. ترى ماذا عساي أصنع إذا ما قام العدو بهجوم؟؟ إنني أتوق للإصطدام الأول مع العدو.. أراه ويراني.. يصوب علي.. وأصوب بين عينيه.. إن كان العدو قد تمكن من الهجوم في عام ٥٦ ثم الانسحاب.. فلاشك عندي إننا اليوم قاتلوه..

إن الإذاعة تقول إننا أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط.. إن القائد العام يقول إننا قادرون على تدمير الأسطول السادس إن هو تدخل في الصراع.. ولاشك أن لدينا أسلحة سرية.. لا أعلم عنها شيئاً.. ولا يعلم عنه أحد شيئاً.. لكن الرئيس سوف يستخدمها.. إذا ما تازمت الأمور..

صعدت إلى اللوري.. وأخفضت الغطاء المشمع.. وألقيت بنفسي على البطانية بكامل ملابسي.. وسلاحى على كتفى والخوذة على رأسي.. رحت في سبات عميق..

في أحد الأيام استيقظت بعد أرق طويل..

ارتدت ملابسها.. ووقفت تراقب الطريق.. لم ترى تحية.. لم تظهر.. مرت الدقائق مملة.. ثقيلة.. ولم تظهر الصديقة.. فكرت قليلاً.. ربما تكون مريضة..

انقبض صدرها.. حلمت أنها هرولت إلى بيت تحية.. تطرق الباب منزعجة.. تفتح تانت عليه حزينة والهة.. تحية مسجاة مريضة.. نائمة في السرير صفراء عاصية الجبين.. يبللها العرق الغزير.. ترتدى في أحضانها.. تجفف العرق بشعرها.. بشفتيها..

وتعدو إلى الخارج وتعود ومعها الطبيب.. وتظل إلى جوارها.. تمرضها.. تعطئها الدواء
تطعمها بيدها.. تجلس إلى جوارها طوال الليل.. حتى تشفى تحية.. بينما يربت علي
راسها أونكل مختار حباً وعرفاناً.. وتكون بذلك قد قدمت دليلاً عملياً على حبها
لصديقتها..

أفاقت من حلمها الجميل.. وقررت أن تحوله إلى حقيقة..
توجهت مسرعة إلى منزل تحية.. وأخذت تطرق الباب.. تود اختراقه.. تحطمه لإنقاذ
صديقتها الحبيبة من براثن المرض.. سرعان مافتح الباب.. وظهرت تانت عليه.. تنظر
إليها دهشة.. لم تكن حزينة باكية والهة.. لم تدعوها إلى الدخول.. وجهها يكسوه قناع
جامد.. أخذت سحر المفاجأة.. فهاكذا يجب أن تسير الأمور.. خرجت كلماتها مرتعشة
تعتذر:

-.. أنا كنت جاية أسأل عن تحية يا تانت..
لم تستطع أن تقول إنها جاءت لأنه يجب أن تكون تحية مريضة.. لتوهبها الحياة..
ردت عليه بصوت جاف.. ولهجة لازعة ساخرة.. لم نسمع مثلاً منها أبداً:-
-.. هما بطلوكى من المدرسة وللا إيه؟؟.. تحية فى مدرستها بدرى.. عن إذنك..
- أوصدت الباب فى وجهها.. لم يوصد الباب.. بل اسدلت ستارة سوداء..
انهمرت دموعها كالطرر.. وجرت ساقبها جراً.. إلى منزلها.. طرقت الباب طرقات
ضعيفة متهالكة.. فتحت أمها....

-..مالك ياسحر.. مارحتيش المدرسة ليه..
انفجرت فى بكاء مر.. احتضنتها عنايات بكل حنان الأمومة وعطائها..
انقلت من بين أحضانها.. جرت إلى حجرة النوم.. ارتمت على السرير.. بينما راحت
عنايات تربت ظهرها فى حنان.. تسألها عما جرى..
فجأة استوت جالسة.. ومسحت دموعها بكفيها معاً:
-.. ماما.. أنا مش عاوزة أروح المدرسة بعد كده..
كان قراراً مفاجئاً.. هابطاً.. يحل جميع المشاكل.. بدت متحفزة لمناقشة أمها فى
صحة هذا القرار السريع.. إلا أن عنايات وافقت على الفور قائلة:-

.. على كيفك يا سحر.. بلاش مدرسة.. هي البنت ليها إيه غير البيت والجواز؟!
 إقعدى معايا.. أهو نتسلى.. ونتفسح.. وأوريكى الى عمرك ماشفتيه أبداً.. هو أنا
 حابسة نفسى فى البيت إلا علشان خاطر ك ومدرستك؟؟
 هدأت سحر..

لم يعد هناك سبيل لإصلاح ماتصدع من علاقات مع تحية.. إلا بمعجزة.. ونحن
 لسنا فى زمن المعجزات..

ولن ترجع ساعة الزمن إلى الوراء.. أو التحكم فى الكون..

رن جرس الباب..

هبت عنايات تفتح الباب.. وسرعان ما ارتفعت أصوات طرقة القبلات مع صوت
 أو نكل حسن.. وتأت شوشو.. خرجت سحر.. لتقفز بين.. أحضان شوشو.. وبحاسة
 شوشو الرادارية أبعدت سحر تنظر إلى وجهها.. وصاحت دهشة:
 .. إيه يا سحر.. بتعطى ليه؟؟

.. أبداً يا ستى.. أصلها قررت من النهاردة إنها ماتروحش المدرسة..

.. أحسن.. مدرسة إيه.. وكلام فارغ إيه.. ده إنتى ليكى عندى يا سحر ميت
 عريس.. عربيات.. وقلوس.. وشياكة.. إنتى عليكى بس تختارى.. ألى مدرسة.. حسن
 بك يقف متملماً.. يتابع الحديث الدائر.. ويمسح عرقه المنهمر من رأسه وقفاه.. ترك
 النسوة.. وألقى نفسه على أقرب فوتيه..

جلس يتميز غيظاً على غير عادته.. واجتمعت حوله النسوة.. وشوشو لا تكف عن
 الكلام.. أسكتها صائحاً: جرى إيه يا شوشو.. إحنا فى إيه.. وإنتى بتعملى إيه؟؟ يا الله
 بقى.. اعترضت عنايات قائلة:

.. مالکش حق يا حسن بك.. يا الله على فىن.. انتوا لسة أختو نفسكم من السلم..

.. عنايات إحنا جايين ناخدك ونعدى على سحر فى المدرسة ناخدها.. علشان
 نساافر..

.. على فىن يا حسن بك..

.. البلد مقلوبة يا عنايات.. عساكر رايحة.. ودبابات جاية.. وبتوع الدفاع المدنى

عمالين يبنوا في حيطان قدام العمارات.. وطول النهار أوامر.. إدهنوا الإزاز أزرق..
 حطوا ورق لزق.. وعيشة بقت تقصر العمر.. وإحنا كمان جنب المطار.. قلت أخذ إجازة..
 وأخذكو.. ونهيج ع الفيوم.. لغاية لما الحالة تهدأ.. وأنا خلاص أخذت الإجازة..
 أيدت شوشو زوجها قائلة: أه الحرب باين عليها حاتقوم..
 أردف حسن بك.. تقوم وللا تتنيل.. إحنا مش عاوزين نعيش في نكد.. وأهو كل
 معارفنا.. وحبائنا بيهجوا..
 اعترضت عنايات في دلال قائلة: طب نأجل السفر يوم ولا يومين.. بس لغاية لما
 سحر تروق نفسها كده.. ولا إيه يا سحر..
 -- الى تشوفيه يا ماما..
 -- تراجع حسن بك عن موقفه سريعاً قائلاً:
 --.. إذا كان علشان خاطر سحر.. نأجلها.. يوم واحد بس.. ونسافر بكرة.. وليكو
 على أروقها النهاردة آخر روقان.. ماشى؟؟
 إنبرت شوشو باسمه تقول لزوجها.. ماشى بس بشرط..
 ومد حسن بك ذراعه يطوق حضرها جذبها إلى ركبتيه يجلسها كطفلة مدلة قائلاً:
 --.. أشرطى يا ستو أنا..
 --.. عاوزينك النهاردة.. تسهرنا سهرة.. م السهرات بتاعتك الحلوة.. علشان
 نفرش سحر.. ومامة سر.. وخالة سحر..
 ضجت النسوة بالضحك.. غاب عن ذهن سحر.. تحية.. وتانت عليه.. ومحمود..
 والمدرسة.. والعالم كله..
 في المساء كانت تستعد للسهرة المنتظرة.. ترتدي فستان سهرة مطرزاً طويلاً حتى
 الكعبين عارى الذراعين والصدر.. من مخلفات شوشو..
 تحولت إبنة السابعة عشرة عاماً إلى امرأة.. صورة أنثى كاملة النضج.. تركت
 شعرها متهدلاً على كتفيها.. وجلست أمها قبالتها تضع لها لأول مرة أحمرراً للشفاة
 والوجنات.. وترفع بالمقاط شعيرات من حاجبيها..
 على صوت بوق سيارة حسن بك.. نزلت وأمها.. وعلى الرصيف المقابل كان يسير

أونكل مختار مطرقاً مهموماً.. وقد تدلت كتفاه.. كمن يحمل حملاً ثقيلاً.. حينما انطلقت
السيارة مالت عنايات هانم على إذن سحر قاطلة:

-.. مش هو ده برضه الاسطى بتاعك..

لم تعلق سحر..

أدار حسن بك راديو السيارة فانبعث صوت أم كلثوم منشداً..

جيش العروبة يا بطل الله معك..

ماأبدعك.. ماأروعك..

مأساة فلسطين تدفعك..

نحو الحدود.. حول لها الآلام بارود..

في مدفعك..

مد يده مرة أخرى ليحول المؤشر فانبعث صوت مذيع صوت العرب المتشع يتغنى
بالحرب.. فمد يده مرة ثالثة.. وأغلقه.. وتناول شريط كاسيت دسه في تسجيل
السيارة.. فانبعث صوت أحد المغنيات بأغنية أفراح.. انفجرت أساريه وصاح..

-.. أهو كده.. خللى الواحد يفرفش شوية.. طول النهار حرب وضرب.. فى الجرنال
فى الإذاعة، فى التليفزيون.. فى الشارع.. حاجة تجنن..

راحت شوشو تصفق وتطرقع أصابعها مهتزة جزلة على إيقاع الأغنية وسرعان
ماشاركتها عنايات فى التصفيق.. ثم سحر وحسن بك.. ينقر عجلة القيادة بأصابعه..
سارت العربة فى طريق صلاح سالم.. مخترة المقابر على الجانبين.. ولم يفكر أحد
من الراكبين النظر إلى الخارج..

أخيراً توقفت السيارة أمام أحد الملاهي الليلية بشارع الهرم.. قفز الجمع من
السيارة.. ورفعت النسوة أزيال أثوابهن.. ومشين فى خطوات وثيدة بينما استندت
شوشو على ذراع حسن بك..

تساءل حسن بك قلقاً بصوت مسموع.. ما بال الملهى يبدو مظلماً.. والشارع كله
يبدو فقراً من السكان؟؟

تقدم منه رجل طويل القامة عريض المنكبين.. يرتدى حلة سوداء.. وقميص أبيض

وبابيون أسود.. وقد وضع على رأسه كمية كبيرة من كريم الشعر.. حتى عكست رأسه.. الضوء الضعيف الساقط عليها.. ومد كلتا ذراعيه يشد على يد حسن بك مرحباً..

.. أهلاً سعادة البية.. عاش مين شاف سعادتك.. حضرتك حاتشرف المحل الليلة؟؟.. عندنا الليلة برنامج يهوس.. يجنن.. وكل أوامرك حاتلاقيها.. قاطعة حسن بك ضجراً مستمراً في المسير..

.. ألاقى إيه؟؟.. ده باين عندكم ميثم مش برنامج.. إيه الضلمة دى.. إنتم خلاص شطبتم وللا إيه؟؟..

رد الرجل معتذراً.. البرنامج شغال يا بيه.. بس نعمل إيه؟؟.. أوامر ندهن الشبابيك باللون الأزرق.. آل عشان الحرب آل.. إحنا أسفين بابيه.. وكلها كام يوم وترجع المية لجاريها تانى..

توقف حسن بك أمام باب الدخول.. ومد يده في جيبه الداخلى وأخرج حافظة نقوده المكتظة.. وسحب منها ثلاثة وريقات من فئة العشرة جنيهاات.. دسها في يد الرجل.. طالباً منه حجز أفضل منضدة لديهم..

استدار الرجل سريعاً.. يبعد زملاؤه بغلظة تقبلوها بصدور رحبة.. وكأنهم يأدون أدواراً محفوظة قائلاً:

.. وسع للبيه وللوانم ياجدع إنت وهو..

وسرعان ما اشترك عامل الباب في التمثلية فاعترض الداخلين.. فرجع إليه الرجل خطوة وصفعة على قفاه قائلاً:

.. إنت مش عارف دول مين.. إتفضل يا سعادة البية.. لمواخدة يا هوانم.. انتفخت أوداج حسن بك.. وأخذ ينظر إلى مرافقيه بفخر.. بمجرد دخولهم إلى الصالة المكيفة الهواء.. صفعت الموسيقى الصاخبة أذانهم.. قادهم الرجل إلى منضدة تطل على حلبة الرقص مباشرة.. جلس الجمع المنشرح.. بينما وقف الرجل خاشعاً ثم استأذن قائلاً:-- عن إذن سيادتكم أركن عربية سعادتك فأشار له حسن بك بالانصراف.. فتراجع الرجل إلى الباب..

بعد قليل ظهر مرة أخرى.. صاداً يده إلى حسن بك بالمفاتيح.. وبعض الأوراق المالية
بأقى الحساب.. دفع حسن بك اليد الممدودة قائلاً:
-.. عيب.. عيب.. خللى عيشانك..

ترجع الرجل شاكراً.. ليقف وقفته الأولى..
قفزت إلى الحلبة راقصة.. ترتدى شيئاً خليعاً.. وقد وضعت أثار التطعيم على
ذراعيها وفخذيها.. فى حين حشرت ثديان ضخمان فى سوتيان صغير.. فوثبا إلى الخارج
إلا قليلاً.. وأخذت تتلوى على إيقاع طبلة يمسخها طبال يقف وقد رفع أحد قدميه على
كرسى.. وسرعان ماراح الطبال يشارك الراقصة فى رقصتها المتبذلة.. راح حسن بك
يتابع حركات الراقصة بنظرات متوحشة.. لاهثة..
أحست سحر بشيء من التقزز..

تلاقت عينها مع عين حسن بك.. فكان ينظر إلى صدرها.. نظرات لم تتعودها..
جعلتها تذوب خجلاً.. لا شعورياً.. مدت يدها.. تضم صدر الفستان.. إلا أن إحساسها
بالعري كان طاغياً.. فحولت نظراتها إلى الراقصة مرة أخرى.. إلا أنه لم يفارقها شعور
أن حسن بك.. لازال يتفحص جسدها كله بعيناه..

طرق حسن بك أصابعه منادياً النادل الذى أتى مهرولاً.. وأمره بإحضار عشاءاً
فاخراً وزجاجة من الويسكى وزجاجتان من البيرة الثلجية..

جاء طابور من الجرسونات يحملون العشاء المطلوب.. دس حسن بك فى يد كبيرهم
ورقة مالية.. وأمرهم بالانصراف.. وبدء.. حفل الطعام.. فى تلذذ.. وفى تمهل..
ملا رأس سحر طنين تحول إلى خلية نحل..

اليوم بدأت الدخول إلى عالم غريب.. أما العالم الذى تعرفه ويعرفها.. فقد لفظها..
فأصبحت تائهة ما بين عالمين.. وجاءها الجواب سريعاً..

فلتمضى المركب بلا ربان حتى تصل إلى جزيرة.. جزيرتها المنفردة.. التى لا
تعرفها.. أى جزيرة أصبحت لديها الآن سواء..

وكما أتى الطعام رفع.. إلا قليلاً من القطع هنا.. أو قضمات هناك..
وانكب حسن بك يعب الخمر عباً.. وتناولت المراتان بضعة كؤوس.. وعرض حسن
بك على سحر كأساً من الويسكى.. فتمنعت مترددة..

وبدأت تتذوق طعم البيرة..
 عزفت الفرقة الموسيقية مقطوعة هادئة.. وهب السكارى يتساندون كل رجل
 يحتضن امرأة.. راح يتمايل كالنائم..
 هب حسن بك يدعو شوشو للرقص.. وعيناه تدعو سحر.. إلا أن رأس شوشو كان
 أثقل من أن يساعدها على الوقوف فأشارت إلى سحر قائلة:
 -.. هي صاحبة الحفلة الليلة.. رقصها يا جدع.. ورنث ضحكة مستطيلة.. جاوبتها
 عنايات بأعلى منها.. وضحك الجدع من أعماقه.. وامتنعت سحر عن الرقص بدعوى
 جهلها به.. فرفعها حسن بك رفعاً قائلاً بلسان ثقيل:
 -.. آمال أنا هنا ليه.. علشان أعلمك.. حا أعلمك الرقص.. وكله..
 نهضت فاحتواها حسن بك بين ذراعيه على الفور.. وزحف بها زحفاً إلى وسط
 الحلقة.. ضغطها بشدة إلى صدره.. فانسحق نهداها.. وراحته على ظهرها تتحسس في
 تمهل وهدوء.. في حركة رتيبة.. وأنفاسه المخمورة الحارة في أذننها مباشرة.. فإنتابها
 الدوار.. وتزلزلت الأرض تحت قدميها.. فتهاوت بين ذراعى الرجل.. وقد فقدت وعيها
 أو كادت.. تحت وطأة أكواب البيرة.. والأنفاس المخمورة الحارة.. والدغدغة الرتيبة
 المتتابة.. وكان سبب تهاويها اللاوعى.. هو هروبها من سحر..
 همس حسن بك.. انبسطتى النهاردة يا سحر؟؟
 ولم تكن سحر هناك كى تجيب.. كانت على حافة الوعى حيث لا تفكير.. ولا ذاكرة..
 ولا كلام..
 وأردف بنفس اللهجة.. أنا مستعد أهيصك كل يوم.. كل يوم..
 توقفت الموسيقى الهادئة.. واشتدت عاصفة التصفيق.. وبدأت الرؤوس التائهة
 الرجوع إلى هامش الوعى.. فتباعد الرجال عن النساء.. وقاد حسن بك سحر كالنائمة
 إلى حيث الامراتان.. ونهض الجميع بعد السهرة الحافلة..
 عاد حسن بك إلى منزل عنايات..
 في اليوم التالى استيقظت سحر فوقعت عينيها على أمها في كامل زينتها وملبسها وإلى
 جوارها حقيبتان كبيرتان..
 تتأثبت وفتحت جفون حمراء قائلة:

-.. صباح الخير يا ماما.. لابسة بدرى كده ورايحة على فين؟؟..
 ضحكت عنايات مداعبة ابنتها..
 -.. بدرى؟؟ بدرى من عمرك ده إحنا دلوقت الساعة إثنين الظهر.. قفزت من
 فراشها محتجة.. ماصحتنيش ليه يا ماما؟؟..
 -.. تصحى بدرى ليه؟؟ المدرسة وخلص سبينها.. والنهاردة مسافرين الفيوم
 مع تانت شوشو وأونكل حسن..
 عادت إليها ذاكرتها.. تذكرت ليلة الأمس.. إلا أنها رفضت تصديق أن تلك كانت
 حقيقة.. فلا بد أنه حلم..
 أكد إحساسها بالحلم ذلك الشعور بالمرارة.. الشعور بالإذلال.. فقد الأمل أن يكون
 لها حياة طبيعية كاملة.. كحياة تحية.. لقد فقدت نصف حياتها.. ولكن هل يجب أن
 تسقط.. كي تضيع حياتها كلها..
 تحت مياه الدش الغزيرة.. ورغوى الصابون.. إنزاحت من روحها أى قدرة على
 التخطيط لشيء.. أو التفكير فى شيء..
 وقفت أمام المراة المثبتة وراء باب الحمام تجفف جسدها.. ولأول مرة تحملق فى هذا
 الجسد.. كأنه جسد إنسان آخر.. دائماً كان بعيداً عنها.. شيء يحتويها ولا تملكه..
 أمانة لديها تردها إلى صاحبها مصونة كاملة ناضرة.. أما اليوم ولأول مرة.. لم تشك أن
 ذلك الجسد جزء منها.. من ذاتها.. لقد كان جزئها المفقود..
 راحت تشد عضلات بطنها.. معجبة بجمال هذا الجسد البديع.. الذى لدهشتها
 اكتشفته فجأة..
 بعد ساعة كان الجميع فى سيارة حسن بك فى طريقهم إلى الفيوم.. وضع حسن بك
 شريطاً فى كاسيت السيارة فانبعث الصوت ضاحكاً يغنى:
 ماخذش العجوز أنا
 لا أزقه يقع فى القنا
 راحت النسوة الثلاث يصفقن جزلات يتراقصن.. وإرتسمت على شفتى حسن بك
 ابتسامة عريضة..

الفصل الثانى

المساوية..

ما كدت أستغرق في النوم حتى إنتبهت فوجدتني منبطحا على الأرض خارج السيارة وقد أطيح بالخوذة من فوق رأسي.. وسلاحى ملقى إلى جوارى..
 ووجهى كله في الرمال.. وصكت أذنانى أصوات انفجارات متتابة.. ولفح النيران يشوى ساقى.. فتسرى الحرارة خلال أعصابى إلى مراكز الإحساس بالآلم.. فلا أصرخ.. بل.... أزحف.. وأزحف.. وأزحف.. بلا وعى.. فلم أكن قد ألمت بعد بما يدور حولى..

زحفت على أربع ورحت أركض ولا سيطرة على ساقى المندفعة المتبادلة الموضع وقفزت إلى إحدى الحفر قليلة العمق كمن يقفز إلى حمام للسباحة.. إستويت جالسا متقطع الأنفاس أنظر حولى..

النيران مشتعلة في سيارتى.. نيران غاضبة.. مزجرة.. صفراء.. يعلوها السنة تناطح السحاب.... من الدخان الأسود الكثيف.. يصاحبها صوت فرقة انهيار أخشاب الشاسية والصندوق.. وفجأة انفجر خزان الوقود.. فتطايرت كرات من النار على اللوارى يسار ويمين سيارتى.. وسرعان ما بدأت في الاحتراق وتحولت السيارات اللورى الضخمة إلى كتل من الحديد غير المحدد المعالم...

أيقنت أن هذه هى الحرب.. وأنها قد بدأت فعلا.. أدت رأسى إلى حيث حفرة القيادة.. فكان الرائد ظريف مرتكزا فيها وإلى جواره النقيب سمير.. وإلى جوارهم تلسكوب للمراقبة..

قفزت خارجا من حفرتى أركض في إتجاه القائد.. كانت هناك قنابل تنفجر في كل مكان.. وأصوات الشظايا تصفر غاضبة كالسيوف المحاء في كل إتجاه..

خلال ركضى تصورت كأن الرائد ظريف يصرخ.. ناظرا إلى مشيرا إلى السماء.. أدت رأسى أنظر إلى السماء.. وإنبطحت فورا واضعا رأسى بين ذراعى.. فقد كانت هناك طائفة تنقض على مكاني مباشرة.. وعلى ارتفاع منخفض.. وفي لحظة إنبطاحى تماما.. أطلقت ثمانى صواريخ كالسهام النارية إلى عيني.... انتظرت أن أتمزق إربا..

لكننى سمعت صوت انفجار الصواريخ المتتابعة عن قرب منى..
ومن حسن طالعى إن الأرض هشه.. رخوه.. احتوت الصواريخ.. واحتوت معظم
شظاياها.. نهضت مرة أخرى أعدو فى إتجاه حفرة القائد وأنا أسب سبابا متواصلا..
فى كلمات عجولة أمرنى بالتوجه إلى عربة القيادة ومحاولة الاتصال بسرانا
لاسلكيا.. فقد فقد الاتصال التليفونى تماما.

نهضت أثب فى خطوات قصيرة إلى عربة القيادة.. لاحظت كم هى عالية مكشوفة لا
تكاد الحفرة تصل إلى منتصف عجالاتها.. فكانت كالهودج الذى يدعو الطائرات
ويغريها بنا..

الجنود بالداخل فى حالة من الجنون الكامل.. فالسيمان جندى التحويلة الأسمر
الضاحك يدور بيد التحويلة فى حركة مستمرة نافذة الصبر.. لحوحه.. يحاول مستميتا
بث الحياة لأى خط من الخطوط.. حاولت بالصوت إفهامه أن الخطوط أصبحت
مقطوعة ولا فائدة من محاولة إدارة يد التحويلة.. وإن وجوده هنا فقد معناه..

فى حين وقف جندى التسجيل على قدمية والقلم الأصفر فى يده يدور حول نفسه
واضعاً لا يزال السماعات على رأسه.. يتلقى البلاغات.. وفجأة ألقى السماعات إلى
الأرض وجلس يبكى.. ولا زال ينبعث منها صوت مذياع البلاغات متتابعة متلاحقة
وفجأة بدأ صوت المذياع فى الارتفاع.. الارتفاع بالسباب موفراً على نفسه مجهود
الإبلاغ قائلاً.. ودلوقت الطيارات فى كل حته.. تلاقىها بتضربكم دلوقت..

إحنا دلوقت بننضرب.. بننضرب.. وصوت انفجار مكتوم عبر الأثير.. وصممت
السماعات إلى الأبد.

جذبت أحد الأجهزة اللاسلكية إلى حافة الصندوق.. والعربة تتمايل كمركب شرعى
وسط الأمواج.. وهدير المدافع يصم الأذان.. قمت بإعداد الجهاز للإرسال.. ولا يزال
السيمان فى حالته الهيستيرية.. صائحا.. يا ١٠١.. يا ١٠٢.. يا ١٠٣.. يا ١٠٤.. يا قيادة..
ألو.. هنا واحد.. ردوا.. يا عويس.. يا حسن.. يا محمود.. يا واد يا برعى.. يا فندم.. ما

تردوا على.. أنا باخبط من الصبح.. ردوا.. إنتو ساكتين ليه.. الو.. ما تردوا بقى يا ولاد الكلب.. لا هم يردون على نداؤه ولا هو يكف عن إدارة يد التحويلة..

بأقصى ما فى قدرتى من هدوء بدأت فى تشغيل جهاز الإرسال والاستقبال.. وضعت السماعات على أذنى.. وضبطت التردد وأخذت أنادى على سرايانا.. واحدة فواحدة بهدوء شديد.. ومقاطع محددة.. كان الصمت شاملا.. ولا مجيب إطلاقا إلا صفارة واحدة مستمرة..

أدريت مؤشر الجهاز إلى التردد الاحتياطى ورحت أضبطه بروية.. وأخذت أنادى على محطات سرايانا.. وارتجت السيارة ارتجاجة شديدة.. سقط الجهاز اللاسلكى على الأرض.. وانزلت التحويلة إلى أرضية الصندوق.. ولا زال السمان ممسكا بيد الإدارة.. سقط جندى التسجيل على اللوحة البلاستيك فحطمها ووقع على أرضية الصندوق.. سابحا فى بركة من الدماء.. ولا رد من السرايا إلا ذلك الصغير المتصل اللعين..

تخلصت من السماعات.. ومددت يداى أجذب جندى التسجيل من كتفيه لانزله من اللورى.. حاولت رفعه كى يجلس لكن الجسد لم يستجيب للجلوس.. فأدريته وحملته فوق كتفى.. ورحت أحاول العدو إلى حفرة قليلة العمق.. انزلته إلى الحفرة.. وزحفت إلى القائد أخبره بما تم.. ولقد كان مشغولا بالمراقبة والسباب المتواصل.. وعلى طرف الحفرة مذياع يصرخ فى هيستريا.. وخرج علينا مذيع يعلن أن قواتنا اسقطت حتى الآن خمسون طائرة.. شاكرا الله أن العدو بادرنا بالهجوم.. داعيا المستمعين إلى حفل ساهر فى تل أبيب..

صرخ القائد موجهها كلامه إلى النقيب سمير:-

- ..ده مذيع ابن.... بيرفع الروح المعنوية ده ولا بيهدمها.. الس..... لما نكون أسقطنا خمسين طائرة يبقوا هجموا بكام.. والكام دول عملوا فينا إيه؟! الجاهل الس..... ابن.....

أخيرا شعر بوجودى فسألنى عما فعلت.. فأخبرته بعدم إمكانية الاتصال اللاسلكى أيضا للتشويش الكامل على اللاسلكى.. وأن جهاز الاستقبال لم يعد يستقبل بلاغات.. بعد جنون المذيع الذى زعم إنهم أيضا ضربوا بالطائرات.. علق القائد بكلمة واحدة.... أحسن..

برزت من فوق شجيرات الخروج طائرتان.. تعرفت عليهما بسهولة فهى طائرات تدريب من طراز (فوجا ماجستر).. المصنعة فى إسرائيل.. لاحقتهما مدافع سرية النقيب محمد.. بإصرار.. فصعدا فجأة.. والمدافع تلاحقهما..

برزت فجأة طائرة من طراز (أورجان) الفرنسية الصنع.. تخترق موقع النقيب محمد.. صاح الرائد ظريف فى غيظ وإشفاق:

- ..دى يا محمد.. دى الى حا تضربك.. الاتنين الى فاتوا جم يا خدوا المدافع معاهم.. لكن دى الى حاتضربك.. إضرب يا محمد.. إضرب..

دوت من موقع محمد أصوات انفجارات متتابة.. عنيفة.. لف الموقع بسحابه دخان سوداء كثيفة.. وصمتت مدافع سرية محمد قليلا..

أشرت إلى الجندى المسجى فى الحفرة متسائلا ماذا أفعل؟! قفز الرائد ظريف زاحفا إليه.. ثم عاد مرة أخرى وقد اختلطت فى وجهه حبات العرق مع حبات الرمل.. ثم قال... مات..

أمرنى القائد باصطحاب أحد جنود الإشارة لحمل بكرة سلك تليفون ميدانى وإيصال الخط بموقع حازم مهما كان الثمن.. موصيا أياى بالحذر على أن أحمل سلاحا على كتفى..

ظهر من خلف النخيل جنديا ملتاعا.. يحمل عنى كتفة رشاشا خفيفا.. ناداة القائد أمرا.. فجائتا كالمأخوذ.. تناول منه الرشاش وأشار له إلى شجيرات الخروج فتوجه إليها كالنائم.. وجلس تحتها يستظل..

عدت مرة أخرى إلى عربة القيادة.. ولازال السمان مستميتا على يد التحويلة يدور

بها مناديا.. قفزت داخلها ودحرجت بقدمى بكرة سلك متوسطة الحجم.. وأخذت
أجذب السمان من ملابسه.. وهو لا يكاد يعى وجودى.. قبضت على أصابعه المتشعبة
على يد الإدارة أرخيها نظر إلى كمن يصحوا من نومه.. فدفعته إلى الخارج..
ودفعت ورائه بسلاحه وخوذته.. حملت ببندقية الجندي الشهيد على كتفى وقفزت
صحت في السمان أن يلبس الخوذة ويحمل السلاح وبكرة السلك.. ويتبعنى..
علق سلاحه على كتفه وحمل بكرة السلك على الكتف الآخر.. وأخذنا في الركض في
إتجاه موقع حازم مبتعدين عن القيادة..

وصلنا إلى إحدى التباب وما أن وصلنا إلى قممتها حتى بدأنا نتدحرج هابطين.. إن
الأرض للجندي هي الصديق المخلص إن هو استطاع فهمها.. فللأرض قدرات كبيرة
أكبر من قدرات الجندي.. فيمكنها إبتلاع وامتصاص ملايين الرصاصات والقنابل
والشظايا.. وذلك نيابة عن الجنود.

ما كدت أصعد تبة وأنظر عبر قممتها حتى رأيت طابورا من الدبابات.. يتقدم أتيا من
جهة اليمين زاحفا خلال الكثبان في إتجاه قلب اللواء كانت فرحتى كبرى.. فيها هى قواتنا
جاءت من مكان ما.. لتقوم بهجوم مضاد كما تقول الكتب... أدارت إحدى الدبابات
برجها تجاهنا.. خرج وميض من فوهة المدفع.. وصفير دانة يشق الهواء بالقرب منا..
صرخ السمان وتدحرج إلى أسفل التبة مرة أخرى صائحا.. رأسى.. رأسى.. رأسى
طارت يا فندم.. أنا مت خلاص..

تدحرجت نحوه.. مذعورا.. ورفعت خوذته أنظر في رأسه.. وكان سليما تماما..
فقد مرت الدانة من فوق رأسه مباشرة.. ونظرا لسخونتها الشديدة وسرعتها فقد
خلخت الهواء فوق رأسه.. وضغط الهواء عليها من أسفل إلى أعلى فشعر كأنها خلعت
خلعا من بين كتفيه.. وجعلته يتحسس جسمه غير مصدق.. وصعدت مرة أخرى أنبه
الدبابات بأننى مصرى.. ولا داعى لإطلاق النار.. رفعت يدي ألوح للدبابات.. فأتى الرد
فورا.. على صورة سيل متصل من طلقات رشاشات جسم الدبابات.. لم أصاب.. لكنها

ردمت رمال التبة كلها فوق رأسى ورأس السمان.. ولم أستطع التحرك.. كانى..
 عقلى أصبح نشطا جدا.. يحاول إيجاد حلول للمشاكل التى تتراكم بسرعة.. لا أرى
 جنودا إسرائيليين هناك لأقاتلهم ببندقيتى.. فماذا تفعل بندقية فى جسم دبابة؟!
 صعدت مرة أخرى إلى قمة التبة لمراقبة خط سير الطابور المدرع.. وقررت إنه إذا
 كان مقتربا رأسا نحونا.. فعلينا العودة إدراجنا بأقصى سرعة إلى حيث كنا.. لكن
 الدبابات ابتعدت فى نصف دوره.. حتى أخفاها الغبار الكثيف.. مطلقة نيرانها فى جميع
 الاتجاهات وبصفة مستمرة..
 أشرت إلى السمان بحمل بكرة السلك.. نظرنا يمينا ويسارا.. وأخذنا نركض بكل
 قوة فى اتجاه موقع حازم.. والطائرات فوق رؤوسنا تروج وتجىء تلقى بقنابلها هناك
 بالقرب من مركز قيادة الكتيبة..
 بدأت أرى سحب الدخان الكثيف تتصاعد.. وأصوات انفجارات متتالية.. لصناديق
 ذخيرة كاملة.. كلها صادرة من موقع حازم..
 إقتربنا زاحفين إلى قمة أقرب تبة من الموقع.. وما أن أطللنا عليه حتى رأينا الجحيم
 ذاته مجسما على الأرض..
 لم يكن هناك فى الموقع أى دليل على وجود حياة..
 فأصوات جنود المدفعية خلال ضرب النار.. عالية النبرات.. وهنا صمت مطبق لا
 يقطعه إلا تلك الانفجارات.. وقعقة الأخشاب المحترقة..
 ألقى السمان بكرة السلك.. وعدونا معا إلى الموقع..
 المفروض أن هنا ستة مدافع ومركز قيادة.. وسبعة لوريات ضخمة.. وثمانون
 جنديا وثلاثة ضباط.. حازم قائد السرية.. مع شكرى.. وخليل الضباط المستجدين..
 مبهورين الأنفاس إقتربنا من المدفع الأول..
 الدشمة الرملية البيضاء.. تحولت إلى اللون الأصفر.. وأربع بقع كبيرة سوداء.. هى
 آثار احتراق عجلات المدفع.. على الجانبين يجب تواجد حفر الذخيرة.. ومبيت الطاقم..

ولا أثر لهم على الإطلاق.. إلا بعض الدانات الفارغة.. والأخرى الممزقة.. المدفع منكس
الماسورة محترق بلا جهاز التنشين يلقي ظلا كثيبا من الوحشة والانزمام..
لم يكن هناك جنودا.. كانت هناك كومات مهترئة من الدماء والملابس المخلوطة
بالرمال.. المفروض أنها ثمانى جثث.. لا توجد جثة واحدة يمكن التعرف عليها.. التمزق
مريع والأشلاء مبعثرة.. والعظام منسحقة.. تماما..

تجمدت الدماء في عروقي.. وفقدت الإحساس بالزمن.. الإحساس بالرهبة والخوف
تلاشى.. فلا يمكن أن يكون ما يمر بى حقيقى.. لا بد أننى أحلم.. حلما كثيبا.. سخيفا..
أو أننى أشاهد فيلما سينمائيا من أفلام الحرب.. أبطاله يمثلون أمامى.. أما أنا..
فاشاركهم.. مشاركة وجدانية فقط.. الإحساس بالانقصاص عما حولى أعطانى قدره على
الحركة.. كأننى كومبارس فى المأساة الرهيبة.. والسماح إلى جوارى لا يتكلم.. وقد
تعلقت عيناه بخوذة دامية.. وتدفقت من عيناه السوداوتان دموع غزيرة.. لم يكن
يبكى.. لم يكن حزينا.. كان مشدوها.. لم يكن خائفا فزعا.. لكنه مصعوقا.. لا يملك إلا
الحملقة.. ونظرت بدورى إلى الخوذة.. الدامية.. لم تكن فارغة.. كان بها نصف رأس..
ظهر الفك العلوى وبه الأسنان.. مملؤه بخليط من الدماء.. واللون الأبيض الشمعى..
لسائل المخ..

جذبت السمان من يده إلى حيث مركز القيادة..
لم تقابلنا الرائحة العطرة هذه المرة.. ولكن خليطا من رائحة البارود والدماء هبت
كالصفعات.. صدرت من هناك حشرجه.. لجسد ينتفض وقد غطته الرمال..
خررت جاثيا على ركبتى أرفع الرمال بكلية يدي.. ولست يدى ياقه منشاه.. وقلبت
الجريح على ظهره.. وكان حازم..
يده على بطنه المملؤه دماء.. وقد تدلت خلال أصابعه بعض أمعاؤه.. ينبثق من
حولها نافورات من الدماء صغيرة... يتنفس بصعوبة.. صحت بالسمان قائلا:
- .. شيل معايا يا سمان.. شيل معايا نودية الكتبية..

حاولت وضع ذراعى تحت إبطه كى أرفعه من الأرض.. ورغم إحساس المشاهد الذى كان يملكنى.. إمتلاكاً.. إلا أن دموعى.. أخذت تنهمر بغزارة.. فيها هو حازم.. الأمل.. والطموح.. بكل ما زرع فى رأسه من أفكار يموت.. يموت بلا ثمن.. بلا مقابل هو وجنوده دون حتى أن تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه.. يموتون جميعاً دون أن يعرفوا حتى لماذا يموتون..

تحركت العينان النائمتان الغائبتان عن الوجود فى محجريهما.. ناظرة من بعيد على هامش الحياة.. لم تكن نظرة حازم نظرة ألم.. أو لهفة.. أو خوف.. أو حتى رجاء.. بل استسلاماً كاملاً.. وتسمرت العينان الزجاجيتان وفقدتا البريق.. مات حازم.. تركت حازم يسقط ونهضت وملايسى كملايس الجزار ملطخة الدماء.. رحت أرهف السمع ولكن الصمت كان مطبقاً.. فقد انتهى انفجار كل شىء قابل للانفجار فى الموقع.. وكذلك اشتعال كل شىء قابل للاشتعال..

تصاعدت روح حازم وجنوده إلى خالقها.. دهشة.. حملنا أسلحتنا.. وقفنا راجعين.. تاركين لفة السلك.. ورائنا.. فقد أنجزنا المهمة.. لم تكن أنا والسماں أثناء العودة.. نفس الاثنان قبل رحلة الموت إلى موقع حازم.. لم تكن دانات المدفعية المنهمرة كالطر من خطوط العدو ترهينا.. لم يكن أزيز الطائرات فوق رؤوسنا يخيفنا..

أخرجت علبة سجائرى من جيبي وأعطيت السماں سيجارة وأشعلت أخرى.. ورحنا ندخن بنهم صامتون.. عائدون إلى قائد الكتيبة بالخبر اليقين.. الطائرات المنخفضة الارتفاع تغدو وتروح تصب حمولاتها هنا.. وهناك.. والعربات هى الهدف..

كان الرائد ظريف يقف منتصباً بقامته المديدة وقد أطاح بالخوذة بعيداً.. يصوب مدفع رشاش إلى طائرة.. وقد جلس جندي المراسلة فى الحفرة وإلى جواره صندوق طلقات يمشط له أشرطة الرشاش.. رغم علمه تماماً.. وهو قائداً مرموقاً فى وحدات

المدفعية المضادة للطائرات.. أن ما يقوم به عبثا لا طائل تحته.. في وقفته تلك كما من العناد والتحدى.. كأنه يحارب حربا يائسة.. ضد اليأس ذاته..
وهناك إلى جوار النخلة انتصب رشاشا ثقيلًا عاطلا..
دور المشاهد تملكنى تماما.. فركضت إلى حيث الرشاش الثقيل.. والسماں يلازمنى كظلى..

وقفت على المدفع أبحث عن عطلة.. في حين جلس السماں يخرج علب الذخيرة.. ويمشط شريطا.. فكانت هناك طلقة محشورة في ماسورة المدفع.. تناولت سيخ الماسورة.. ودسسته في الفوهة.. فأخرجت الطلقة..

وبدأت أعمل المدفع استعدادا للإطلاق.. ووجهته إلى طائرة (أورجان) تقوم بالغطس علينا مباشرة.. وأخرجت دفعات متصلة من النيران.. فصعد الطيار بها قبل النقطة المناسبة لإلقاء القنابل.. فسقطت قنابله بعيدة عنا.. لم أرفع أصابعى عن عتلة ضرب النار إلا بعد إفراغ الشريط بالكامل.. فنزعت العلبة وألقيتها إلى السماں.. وتناولت من يده شريط آخر.. قمت بوضعه في المدفع مستعدا للإطلاق.. جاءت طائرة من اليسار.. درت بالمدفع لإلحاقها.. لكن المدفع مال على جانبه ساقطا على الأرض.. فقد امتلأ جهاز.. إدارته في الاتجاه بالرمال.... وسقطت فوق المدفع.. نهضت محاولا رفع المدفع الممتلئ رمال.. فلمحت الرائد ظريف أتيا نحوى زاحفا وبيده رشاشة الخفيف.. وبيده الأخرى.. يجر النقيب سمير.. وورائهم جندى المراسلة.. وهبطوا إلى جوارى..

كان النقيب سمير يصيح مهللا أننا سوف ننتصر.. وأن طائراتنا الآن في الطريق إلينا لإنقاذنا..

سمعنا صرير جنازير الدبابات آتية من خلفنا.. وراح القائد يراقبها في حذر.. بينما صاح النقيب سمير فجأة..

- ..دى دبابتنا جاية من ورا تهجم.. استوى على ركبتيه يهم بالوقوف إلا أن لكزة من مرفق القائد أقنعت بالركون إلى السكينة..

هناك على بعد أمتار منا تقف سيارة لورى محملة بمكعبات المياه..
ترنحت السيارة على أثر انفجار مكتوم.. فى حين تدفقت المياه من جانب اللورى..
وبعد انفجار آخر اشتعل خزان الوقود ورغم المياه المتدفقة إلا أن النيران اشتعلت فى
السيارة.. وابتعدت الدبابات تدور بعيدا عنا..
فجأة نظر إلى النقيب سمير قائلا... جعان..
نهضت أركض إلى خيمة الميس التى ظلت حتى هذا الوقت قائمة منتصبه.. هجمت
على دولاب الأطلعمة هبما.. مددت يداى الاثنان أحشو جيوبى.. حتى انتفختا وعدت
راكضا مرة أخرى قافزا إلى جوارهما..
فمددت يداى إلى جيوبى وأخرجتهما مملوءتان.. واحدة إلى النقيب سمير.. والأخرى
إلى الرائد ظريف.. ورحت أنا أيضا ألوك شيئا فى فمى..
تعدت الساعة الخامسة بعد الظهر.. وكان القصف قد بدأ من السابعة والنصف
بتوقيت القاهرة.. وتحول الجو كله إلى اللون الأصفر.. وكأن اللواء ضرب بالغازات
السامة.. وهو فى الحقيقة لم يضرب بها.. لكن الحجم الضخم من القنابل الذى ألقى على
اللواء.. وكم ذخائر اللواء ذاته التى انفجرت.. كل ذلك لون الجو باللون الأصفر.. مع
رائحة نفاذة للبارود..
لاحت على الأفق سيارة جيب.. أتية من الخط الأمامى.. حيث قيادة اللواء.. وفى نفس
الوقت برزت من وراء أحد التباب دبابة.. راحت تطلق نيران مدافعها الرشاشة عليها..
دارت السيارة الجيب مبتعدة عن نيران الدبابة.. وشقت طريقها فى اتجاهنا... يقود
السيارة قائد اللواء بنفسه وإلى جواره جلس الرائد عزت وقد شحب لونهما تماما..
توقفت السيارة قليلا وصاح قائدة اللواء بلهجة سريعة مخاطبا الرائد ظريف
- .. خللى رجالتك ينسحبوا... الى يقدر ينسحب ينسحب اللواء سقط.. رد ظريف
ملتاعار.. اللواء سقط خلاص..
- .. مفيش وقت للكلام.. الى يقدر ينسحب ينسحب..

.. ننسحب على قيادة الفرقة في الشيخ زويد؟..

.. قيادة الفرقة كمان سقطت والعدو دلوقت في طريقة للعريش.. انتهى كل شيء..

في ثمانى ساعات.. إذن..

أنا لم نقاتل.. إننا لم نهرب.. لم ننهزم.. أين ذلك العدو الذى قاتلناه.. وهزمننا؟

من هذا العدو الذى هزمننا؟

لا بد أن ما يحدث حلم.. أو أكذوبة كبرى..

مضى قائد اللواء معرضاً نفسه للموت المحقق يقود سيارته.. ليحذر الرجال..

ويذف إليهم الحقيقة المريرة.. فجأة تحول الخط الأمامى إلى قطعة من الجسيم.. سقطت عليه دفعة واحدة مجمعة من ملايين الطلقات والدانات والقنابل.. انفجارات متتالية سريعة مع ومضات متتالية.. وزلزال رج المنطقة رجا.. ثم رشقة أخرى مجمعة ذات صفير متداخل.. ثم انفجارات متتالية.. والسنة لهب احتوت موقع النقيب محمد.. أنهار الرائد ظريف فجأة.. فهب واقفا.. ثم أخذ يركض في اتجاه سيارته الجيب صائحا:

.. مش عاوز أتأسر.. مش عاوز أتأسر..

ركض ورائه النقيب سمير يتعلق في مؤخرة السيارة.. التى قادها القائد في اتجاه جرادته.. ليخترق بها دروب الصحراء..

بقيت وحدى.. ومعى السمان.. ومراسلة القائد..

من خلف أشجار الخروج جائئى صوت أعرفه.. صوت باك.. ملتاغ:

.. الكتيبة راحت يا مختار.. اللواء سقط.. الناس ماتت.. كلهم ماتوا..

وكان إبراهيم.. ولم يكن ممكنا أن نجلس كى نبكى.. ولم تكن هناك سيارة واحدة سليمة.. كافة السيارات مدمرة محترقة..

ولم تكن هناك غير أقدامنا لتحملنا أطول مسافة ممكنة في طريق الانسحاب الذى لا أحد يدرى أين ينتهى ومتى.. وكيف..

رحنا نسير في اتجاه الغرب.. والغروب يلف أفق السماء بلون أحمر باهت حزين.. ما

كدنا نصعد أحد التباب بالقرب من مؤخرة اللواء.. حتى قابلتنا عاصفة من طلقات الرصاص.. كانت هناك دبابة تقطع طريق الانسحاب.. لم يكن لدى إبراهيم سلاح سوى مسدسا لطلقات الإشارة.... ليس سلاحا.. إذ كل مهمته تحديد مكان مطلق الإشارة فقط..

انبطحنا أرضا.. وطلقات الرصاص تصفر فوق رؤوسنا.. العارية.. وما أن توقفت الطلقات حتى قفز إبراهيم واقفا وأطلق مسدس الإشارة في اتجاه الدبابة.. فردت عليه بدفعة رشاش طويلة.. أسقطته متضرجا في دماؤه بيننا..

سمعنا صرير الجنزير.. فعرفنا أن الدبابة.. سارت في طريقها.. استدرت إلى إبراهيم.. صدره يعلو ويهبط.. وقد تجمعت على وجهه حبات العرق الغزير.. ربت صدره حانيا.. مطمئنا إياه.. الدبابة مشيت.. حاشيك لغاية العريش.. وتدخل المستشفى وتخف وتبقى عال يا أبو خليل..

– .. أبو خليل إيه.. يا مخ.. ما خلاص..

– .. خلاص إيه يا أبو خليل.. إنت دلوقت حاتقوم وتمشى معايا..

– .. نار في رجلى.. ودراعى.. وصدرى..

– .. اجمد يا إبراهيم.. خليك شديد..

وضعت ذراعى خلف عنق إبراهيم.. وعاوننى رفيقاي الجنود.. حاول النهوض والإستواء واقفا على قدميه.. بذل جهدا جبارا.. تقلصت جميع عضلات وجهه.. ولكن بلا نتيجة.. انهار وسقط مرة أخرى.. صارخا من أعماقه..

– .. مالك يا إبراهيم.. ما تجمد إمال..

– .. أنا مصاب في رجلى الاثنين.. وفي صدرى.. وفي ذراعى.. مش قادر أقف ولا أخذ

نفسى.. سيبنى يا مختار.. سبنى وإمش إنت.. يمكن تلحق توصل العريش قبلهم....

– .. وإنت يا إبراهيم حاتعمل إيه؟!

– .. أنا.. حاموت.. وإن وصلت مصر يا مختار.. روح لأبويا.. وأمى.. وإخواتى..

وقولهم إبراهيم بيقولكم متزعلوش..

- .. لا يا إبراهيم أنا مش حاسييك.. وإننت مش حاتموت.. حاقعد معاك لغاية لما
تيجى أى عربية تودينا العريش مع بعض..

تحول إبراهيم إلى عضلة واحدة تختلج.. وتتمزق.. وتتألم.. صديق عمرى يموت
أمام عيني وأنا عاجز عن تقديم.. المساعدة إليه.

مددت يدي أمسح وجهه وقد بلله العرق تماما.. حاولت أنسيه ألامه.. فأخذت أقص
عليه بعض نوادرنا بالكلية.. عسى أن أشيع البهجة في القلب المتهاك ليقوى على مقاومة
الانهيار..

شق سكون الليل قدوم سيارة.. أتية تزحف.. وتجر خلفها مدفعا يلقي ظلا طويلا..
كان أحد مدافع الكتيبة..

صحت فرحا... ده مدفع من بتوعنا.. يا إبراهيم.. لم يتحرك إبراهيم.. فقط أشاح
بيده..

نهضت أشير للسيارة أن تقف.. وعدت إلى أرض الواقع الأليم.. بكل قسوته.. حينما
وقعت عيناي على النقيب محمد.. حيا يرزق.. وبشحمه ولحمه.. قفز من السيارة
فألقيت بنفسى على كتفة أبكى كالطفل البائس.. وأخبرته بإصابه إبراهيم مشيرا إلى
مكانه.. هرول إليه.. ثم عاد مطرقا..

إطرافته أخبرتنى أن إبراهيم قد مات.. هو أيضا قد مات.. صديق الشباب والوحدة
زميل الدراسة والمعاناة.. لماذا لم أمت أنا؟! لماذا لم يموت عبدالستار؟؟ لماذا من نحبهم
فقط يموتون؟؟ دفعنى النقيب محمد كى أركب اللورى.. لكنى تسمرت في الأرض
محتجا.. لا.. حادفنه.. علشان أعرف مكانه وأرجع أزوره.. -

زجرنى النقيب محمد بلهجة أمره.. إركب.. مفيش وقت..

اللورى عبارة عن كتلة من اللحم الأدمى.. جنود مكسدسين.. ومعلقين خارج
الصندوق وعلى المدفع.. والرررف.. والكل متشبث بالكل باستماته وتشنج.. العيون

هالعة والنظرات زائغة مذعورة.. والكل صامت.. الكل في حالة انسلاخ عن الواقع.. لم يكن لى مكان غير يسار السائق.. ساق بالداخل.. وساق بالخارج.. وجسدى معلق بالباب.. سارت العربية اتجاه الغرب..

أصبحنا نسابق الزمن كى نصل إلى العريش.. هذه المدينة الصغيرة.. أصبحت بالنسبة لنا أمل بعيد المنال.. هناك نضمم الجراح.. وتداوى الجرحى والمصابين.. ونستعد للحرب الحقيقية.. نواجه العدو وجها.. لوجه.. أما زملائنا وجنودنا.. حازم وإبراهيم.. وشكرى.. وحسين.. والباقيين.. فلهم بطون الذئاب والجوارح..

دخلت السيارة إلى مدق مستوى تحفه من جانبه الأيسر هو عميقة من أخاديد الصحراء.. وعلى الجانب الأيمن عدة تباب متقاربة.. متباينة الارتفاع..

عند أحد المنحنيات.. لاحظت فوق أحد التباب.. دبابة وعربتان مصفحتان.. يقف إلى جوارهما عدة أشباح يلبسون الخوذات.. ما أن حازينا الدبابة والعربات حتى صك أسماعنا صوتا باللهجة الشامية يأمرنا بالوقوف.. فتدفق السباب من فم النقيب محمد أمرا السائق باستمرار المسير..

وفجأة فتحت الخيران على السيارة والمدفع.. على الكتلة من لحوم البشر العزل من السلاح العزل من الوعى.. وتعالى الصرخات.. بينما صاح النقيب محمد قائلا:

- .. دى الظاهر عليها قوات عراقية.. ولا د الس.. مش قادرين يميزوا بيننا وبين العدو.. وقفز من السيارة هائجا غاضبا.. محاولا الصعود إلى الدبابة مستطردا..

- ... إحنا مصريين.. إحنا مصريين.. بتضربوا نار ليه..

خرج محمد صائحا مهددا بقبضه يده العزلاء.. جنودا لهم عيون ترى.. أنه أعزل.. ردوا على صياحه بدفعات طويلة من مدافعهم الرشاشة.. وتطايرت السيارة بمن فيها وما فيها.. أثر قصفها بدانة دبابة من مسافة لا تتجاوز الأمتار القليلة ووجدتتنى أطير فى الهواء.. ثم أسقط على مقعدتى.. شعرت لحظة أن عظام المقعدة إندكت دكا.. فى عظام الجمجمة.. ومن بعيد سمعت أحدهم يصيح قائلا:

— هير إز.. ماى هاند.. هير إز.. ماى هاند.. ردوا على صياحة بدفعة طويلة من
شاشات أسكته.. ورويدا رويدا رحت فى غيبوبة.. من خلال الرحلة القصيرة بين
معور واللاشعور.. الوعى واللاوعى.. أحسست براحة عجيبة.. وإحساس بالسكينة
يقى.. وشبح الموت يعانقنى.. ولدهشتى لم أكن جزعا.. وأمنية تحتوينى كى أستريح
د أن ضغط على دورى كمشاهد لما أراه وواقعا غير المعقول الذى أطاح بى فى الهواء
! أجنحة..

رويدا رويدا بدأت أشعر بلسعة برد تسرى فى أوصالى.. ورطوبة تنخر عظامى.. لم
ل الظلام يلف الكون من حولى.. ولم يكن ظلام القبر.. فقد سمعت صوت دحرجه
جل تهبط إلى..

أغمضت عيناى.. سوف يأتى العدو.. ويكبلنى أسيرا.. وتحت تهديد السلاح يأمرنى
بفن الجثث.. إبراهيم.. وحازم.. وشكرى وجنودنا كلهم.. وربما أمرنى بسكب
نزين وإشعال النيران فيهم.. ثم يركبون سيارة متهالكة تدور بى بين المستعمرات
هودية لتبتقى النسوة والأطفال على وجهى.. ثم أساق إلى معسكر الأسرى..

رحت أتحمس سلاحى.. وأقبض عليه.. وأوجهه إلى صدرى وأضغط على الزناد
خرج طلقة تمزق قلبى وأستريح مما أنا فيه.. وما ينتظرنى.. وما قبضت إلا على حفنة
الرمال..

هناك أياى تتحسنى.. فتحت عيناى مستسلما.. فوقعتا على الرقيب دسوقى..
لى جواره العريف تابعى.. راحا يحتضناني ويكيان..

حاولت النهوض.. لكن عجزى كانا قد سحقا.. سحقا.. ساعدانى على الاستواء
نفا.. والنيران تشتعل فى ساقاى.. إتكأت على ساعد دسوقى.. ورحنا نتسلق التبة
الية.. عادت آخر صورة إلى ذهنى.. فتساءلت عن النقيب محمد.. فأشار إلى مكانه..
الدموع.. لم أكن أتصور إن دسوقى يمكنه البكاء.. هذا الجسد الضخم ذى
سوارب الكتلة.. اللهجة الصعيدية الأمرة.. كتلة الجرانيت الأسمر.. تهدلت ملامحها..

وتلك العيون الثابتة النظرات.. زاغت.. وانهمرت منها دموع عاجزة.. صامته.. كان النقيب محمد مسجى على الأرض.. تتردد أنفاسه ضعيفة.. صامتا.. ويداه ممتدة إلى جواره على الأرض وقد مالت رأسه قليلا.. جلست إلى جواره فلاحت نظرة براقعة من عيَّناه.. تحاول الابتسام.

- .. عامل إيه يا فندم.. سلامتك.. دلوقت حانشيك ونروح العريش العريش؟؟...
نفس الموقف.. بنفس الكلمات.. كنت أرددها منذ ساعة أو بعض ساعة مع إبراهيم.. وإبراهيم مات.. الصديق.. والزميل.. مات.. وها هو محمد الأخ والزميل.. والصديق.. والقائد.. والسند.. يحتضر..

- .. ما طلعوش عراقين.. إحنا مش عارفين حاجه.. مش عارفين الصاحب من العدو.. كله بيضرب فينا..

- .. ما تجهدش نفسك يافندم.. ما تتكلمش..

- .. عاوز.. أشرب.. عاوز ميه يا مختار.. ريقى ناشف..

كان الدسوقي جالسا خلف رأس محمد.. صامتا.. مستمعا إلى حديث المحتضر.. نهض ثلاثتنا.. للبحث عن الماء..

أصبح اللورى قطعة من الحديد المحترق.. تنبعث منه رائحة لحم مشوى.. ولم يتبقى من المدفع إلا ظلا أسودا كثيبا وماسورة منكسة إلى الأرض.. والجثث مبعثرة في كل مكان.. أخذنا في العبث بجثث الزملاء.. ذوى البطون المبقورة والعيون الزجاجية الهالعة المفتوحة.. وأخيرا عثرنا على زمزية بها بعض الماء.. معلقة في حزام أحدهم..

قام دسوقي بفك حزام الشهيد.. والاستيلاء على الزمزية.. وعدنا إلى النقيب محمد.. جلست إلى جواره كما كنت.. ورفعت رأسه أضعها على ركبتي ووضعت الزمزية على شفتاه الجافة.. أخذ يمتص الماء.. وأنا أسكب ما فيها إلى فمه.. حتى فرغت تماما.. فألقيتها جانبا.. تحركت ذراع النقيب محمد اليمنى دفعها إلى خصرى.. وراح يصرخ فقد استيقظت الأمة..

شعرت ببروده تسرى فى ساقى اليسرى.. شىء بارد يتدفق عليها.. مددت يدى
أتحسسها.. فكان شيئاً لزجاً.. تفوح منه رائحة عصاره معوية كالقئ.. رفع رأسه إلى
أقصى ما يستطيع قائلاً:

- .. مختار.. لو رحمت مصر.. روح لأخويا أحمد.. ثم صمت قليلاً واستطرد.. قتله
محمد راح هدر وأنتم السبب.. قوله.. إنت وزمايك قتلتنو محمد.. قوله محمد
بيقولك روح ألبس مبرى وحارب.. معرفتوش تتجسسوا على العدو.. و... و... و...
وضاعت الكلمات.. أصبحت حروف متأكلة من كتاب اسطورى.. فقط.....
صرخات الألم كانت واضحة..

.. جلس ثلاثتنا نبكى.. لا نملك إلا دموع نسكبها.. تحولنا إلى ثلاثة عجائز خائرى
القوى معدومى الحيلة.. لا نملك إلا العويل.. وإن كان كل منا.. لا يدرى فعلاً.. هل
ينتخب من أجل النقيب محمد.. أم من أجل الفرقة التى دمرت تماماً.. والأصدقاء اللذين
ماتوا بلا ثمن.. أم من أجل أنفسنا.. ورناء لها..

بكل ما تبقى فى محمد من قوى ووعى صاح.. تعبان.. تعبان.. قوى..
إندفع التابعى مواسياً.. شدة وحائزول.. شدة وحائزول يا فندم.. شد حيلك..
أردف الدسوقى.. نشيله نوديه مستشفى العريش..
من حافة الموت أرسل إلينا محمد ابتسامه ساخرة قائلاً:
- .. تشيولونى إيه.. ده أنا جسمى كله رصاص..
ثم تعالت صرخاته..

- .. محمود.. محمود يا مختار..

- .. أيوه يا فندم..

- .. إنت بتحبنى؟

- .. باحبك قوى . قوى يا فندم..

- .. عاوزك تريحنى..

— .. خلاص يا قندم.. حا نشيلك أنا والدسوقي والتابعى.. إن شاء الله لآخر الدنيا..
بس بلاش كلام..

أشاح بيده أن أصمت.. وأردف صارخا..
— لا.. إضربنى رصاصة فى دماغى.. عشان أستريح.. مش قادر أستحمل.. مش
قادر أستحمل.. تعبان.. تعبان..

لم أسمع كلماته جيدا.. فلا يمكن أن يكون ذلك قد قيل وحدث فعلا.. رغم أنه حدث..
فقط تساقطت دموعى.. وصمت ضاغطا على أسنانه قليلا ثم أردف:
— .. بدال العياط.. وفر دموعك.. حا تحتاج كل نقطة ميه فى جسمك.. ريحنى وامشى
فجأة تعالى بكائى.. فى نشيج طويل.

جاء صوته أكثر ضعفا.. خايف تمسك بندقية.. أصلك جبان.. التابعى والدسوقي
أرجل منك.. يا لله يا دسوقي.. يا لله يا تابعى.. ريحونى يا ولاد..
شهق الدسوقي شهقة عالية.. ومزق الصمت نواحه.. وسار بعيدا..

بدأ محمد الركون إلى السكينة.. وقد راحت خيوط الفجر تنتشر على الصحراء.. كنت
مرغما على النظر إلى ما حولى.. وقد بدت المجزرة بكل تفاصيلها.. أكثر من مائة جثة
متناثرة متباعدة.. أو متعانقة متكورة.. ليست جثثا فى فيلم.. لكنها منذ يوم واحد كانت
نفوس يملؤها الأمل.. والثقة فيما يأتى به الغد.. الثقة فى وعود قيادة بلد.. لم تتحقق
أبدا.. كانوا جنودنا.. وزملائنا.. وأحيائنا..

نظرت إلى وجه محمد الذى استكان تماما.. تحول إلى اللون الأبيض المشوب
بالاصفرار كالشمع.. اختفت الملامح الساخرة الحلوة.. وحل محلها إنسباط تام.. بلا
تنفس.. بلا صرخات تطلب الراحة.. بلا ألم..

ناديته باسمه.. لم يرد على ندائى أبدا..

نهضت ميلل الثياب بالدماء والعصارة المعدية.. تبعنى الدسوقي والتابعى
صامتين.. تمالكت رباطه جأشى فاستدرت إلى الدسوقي قائلا:

- .. روح يا دسوقي هات لنا ثلاثة بنادق وسناكى.. وإن لقيت كام زمزية ميه هاتهم معاك..

كان عليه أن يرفع الجثث ويفتش الزملاء.. للبحث عن الاحتياجات المطلوبة..
وعاد دسوقي معه البنادق يحملها على كتفة.. وثلاثة خوذات يحملها على ساعده
كالأساور.. وعدة زمازم تحت إبطه..

حمل كل منا بندقية منكسة إلى أسفل وعلقنا عليها الخوذات.. وتمنطقنا بالزمازم..
واتجهنا غربا.. محافظين على اتجاه ظلنا كى يكون فى مواجهتنا فى جميع الأحوال..
نظرت إلى كفى فى ضوء النهار.. كانتا ملطختان بدماء الأحياء.. ركعت على ركبتى
وتناولت حفنة من الرمال الساخنة.. أحك الدماء المتجلطة.. حتى نظفت يداى.. أو خيل
إلى أننى نظفتها من دماء الأصدقاء..

اقتربنا من سهل منبسط فى وسطه مجموعة كبيرة من الجنود والضباط..
يتجمعون.. وشددنا خطانا إليهم.. نسال عن سر توقفهم..

كانوا من كتائب مختلفة ومن نفس لواءنا.. ولم يكن معهم ضابطا قديم الخدمة..
فكل الضباط حديثى عهد بالخدمة.. أى منذ أسبوع واحد مضى.. كلنا فى نفس المأساة
نعيش.. يدفعنا أمل واحد.. الوصول إلى العريش.. كى نسبق العدو إليها..
تساءلت عن سر عدم تقدمهم.. فقدر أحدهم أننا الآن فى منطقة جردة.. فى اتجاه
الجنوب.. حيث يوجد حقلا للآغام..

وإنبرى آخر مقررا أنه من المهندسين العسكريين.. ولا توجد أمامنا.. الآغام تنفجر..
لكنها الآغام مضادة للدبابات.. لم تثبت بها المفجرات بعد..

الجندى يحتاج إلى ضابط يسير وراؤه.. لاسيما فى الأوقات العصيبة.. وما مر بنا
جميعا هدم ثقة كل منا فى نفسه وفى العالم..

وكان بالنسبة لهذا المكان ثلاثة احتمالات.. ليس لها رابع.. فإما به الآغام ليس بها
مفجرات.. فهى صحراء عادية.. ولا مشكلة.. فى العبور.. وإما بها الآغام مضادة

للديابات قابلة للانفجار فلن تنفجر إذا وطئناها بأقدامنا.. والاحتمال الثالث أن يكون به
الغام مضادة للأفراد تنفجر بمجرد للمس.. فلا تصلح للعبور منها.. وفي جميع
الأحوال لن نتأكد إلا بالتجربة.. نظرت إلى الجنود ثم إلى دسوقي والتابعي قائلاً:
- .. حأ أعدى لوحدى الحقل ده.. لما أوصل لغاية التبة اللي هناك دى.. وأشاور لكم..
تعدوا وراء بعض طابور كل واحد يحط قدمه على أقدامى.. وإن انفجر في لغم.. إبقوا
اتصرفوا انتم...

هب دسوقي والتابعي ينظرون شذرا إلى الجموع قائلين:

- .. إحنا حانيجي مع سيادتك.

فأشرت لهم بأن يصيّموا.. ويتابعوني عن بعد..

رفعت السلك الشائك.. وعبرت إلى حقل الألغام..

لم تكن تلك لحظة شجاعة.. بل شيء جديد.. شيء يحتاج مسمى مبتكرا.. ففي
لحظات قد تطول.. يستوى الموت والحياة.. حينما تكون الحياة مؤلمة.. لا قيمة لها..
ويكون الموت أقرب للإنسان من نبض قلبه.. لا يصبح للتفكير أو للمنطق مكانا..

عبرت رافعا قدمي إلى أعلى.. ثم ملامسة الأرض بأطراف أصابعي.. كمن يختبرها..
مع كل نقله ساق.. يملأني الشعور بأنني لن أحرك الساق الأخرى.. فسوف انفجر
وأتناثر.. وذلك لم يكن خاطرا مفزعا على أية حال..

بعد قليل كنت أرفع السلك الشائك في الجهة المقابلة.. صاعدا إلى التبة.. رحت أشير
إلى الجمع أن يتبعني... ولم ينفذ الجنود توجيهاتي.. بل تخطوا الأسلاك الشائكة
وراحو يركضون بلا نظام اتجاهاً.. وسرعان ما تم التجمع بالقرب مني.. ناظرين إلى
في ترقب.. وأنا أنظر إليهم بدوري ولا أدري ماذا أقول..

إنبرى الدسوقي قائلاً.. حضره الضابط تعبان.. والظاهر عليه مكسور.. إلى عاوز
يمشى يتفضل يا دفعه أنت وهو..

تحركت الأجساد.. في تمايل وتلكؤ مبتعدين.. وبين الوقت والآخر.. يتطلعون إلينا

من طرف خفى.. حتى توارو عن الأنظار وكان التباب قد إبتلعتهم إبتلاعا..
ظللنا جالسين ما يقرب من نصف الساعة.. تحاملت على نفسى.. ساعدنى التابعى
على الاستواء واقفا على قدمى.. نظرت إلى الشمس وأدبرت لها ظهرى.. كانت ظللنا
قصيرة جدا.. وأخذنا نسير..

على الأفق هناك فى أقصى اليمين.. موقع جراده الحصين.. يقف حزينا.. وأثار دخان
يتصاعد من بين أرجأؤه.. وقد وضح تماما لنا.. أنه سقط.. ولم يعد أمامنا إلا العريش..
علها لازالت تقاوم الجزارين..

أخرج التابعى راديو صغير من بين طيات ملابسه.. والنقط إذاعة صوت العرب..
حيث راح المذيع المتشنج يصرخ قائلا.. أنما أسقطته قواتنا من طائرات العدو حتى
صباح اليوم قد بلغ مائة وخسمون طائرة.. وأن قواتنا قد كبدت العدو خسائر
فادحة.. أسكت التابعى صوته.. ووضع بين طيات ملابسه.. وتدفق السباب من فمه..
نفذت قطرات المياه من الزمازم.. وأمعائنا تتلوى جوعا.. وشفا هنا جفت ظما.. ولم
يكن هناك إلا الشمس تذيب شحومنا.. ورمال لا نهاية لها ساخنة تحت أقدامنا.. فى أحد
البقاع المنخفضة لمحا بقعة خضراء.. لا تتجاوز الثلاثة أمتار المربعة.. نباتات برية
زاحفة.. شددنا خطانا إليها.. ورحنا نقلبها رأسا على عقب.. صاح الدسوقى فرحا
فجأة... ده بطيخ.. ده بطيخ.. ده بطيخ.. وهب واقفا وفى يده شىء مستدير أخضر اللون
كبرتقال أول الموسم.. رحت أفتش الأغصان حتى عثرت على واحدة قضمتها.. فبللت
عصارتها شفتائى وحلقى.. إنبطحنا ندس رؤوسنا تحت ظلها لتحميتنا من ضربة شمس
محتملة..

كان البطيخ شىء وسط ما بين اللفت فى تماسك خلاياه.. والحنضل فى لزوجه لكنه
كان رحمة من الله.. فى هذه البقعة القاحلة.. وعملت أمعائنا كالمضخات.. تطلب المزيد..
فأخذنا نزحف رافعين الأغصان للبحث عن المزيد.. عثر التابعى على واحدة راح
يقضمها ويلتهمها إلتهاما.. ويدها تبحث عن أخرى.. بينما الدسوقى يرفع الأوراق

ورقة فورقة.. وأخيرا وفق إلى واحدة.. في حين فشلت أنا في الحصول على واحدة..
رفعها الدسوقي إلى فمه.. ثم أنزلها مرة أخرى.. وسحب السونكى من جانبه..
وشطرها نصفين.. ومد إلى يده بنصف باسماء..

أخذنا نطحن البطيخ طحنا كالجمال..

وتوسطت الشمس كبد السماء.. وبدأت تميل نحو الغرب..

وقفنا.. مواجهين الشمس.. وشدنا خطانا إتجاه الغرب..

بدأنا نرهف السمع فهناك صوت سيارات تجرى بسرعة.. فأيقنت أننا على مقربة
من طريق رفح-العريش... ومن مسافة بعيدة أتت ألينا أصوات انفجارات وقصف
مدفعية.. وقررت عبور الطريق.. والتوجه مباشرة إلى البحر.. نسير على الشاطئ تحت
ظلال النخيل.. أو نختفى سباحة بين الأمواج.. لنصل إلى العريش ونضم إلى قواتنا..

كاننى أقرأ خريطة أيقنت أننا الآن في الكيلو ١٤ طريق العريش رفح.. بل أن هذا التل
يطل مباشرة على نقطة جمارك العريش.. المواجهه لمعسكرات الأمم المتحدة..

زحفنا تصعد التل.. الذى خلفه الطريق مباشرة.. مع كل متر نصعده تتضح لنا
أصوات بشر يتكلمون.. بالقرب من القمة.. وضحت كلمات باللغة العبرية.. كانوا جنوداً
إسرائيليين من الأعداء..

خلعت الخوذة.. وأومات إلى التابعى والدسوقي بالتوقف.. أطللت حتى مستوى
العينين فقط.. كانت هناك دبابة.. تقف على الجانب القريب.. وعلى الجهة المقابلة من
الطريق.. سيارتين مدرعتين ذوات جنازير.. وقف إلى جوار الدبابة عدة جنود يحملون
مدافع رشاشة.. في حين اصطف على الأرض طابورا من الأسرى.. منبطحين على
بطونهم.. وأيديهم أعلى رؤوسهم.. متجاورين.. بدأ محرك الدبابة في الهدير.. والجنازير
يصدر صريرا عاليا.. واتجهت مباشرة نحو طابور الأسرى المنبطح أرضا.. ارتفعت
الصرخات فوق صوت هدير الدبابة.. وتعالَت أصوات لعظام تنهشم.. وتختلط مع
اللحم والدماء والملابس.. والرمال..

سحبت بندقيتى وصوبتها إلى الجنود حاملى الرشاشات.. وضغطت الزناد.. لم

تخرج الطلقات.. غمرت أجزاءها الداخلية بالرمال تماما وتعطلت..
 تلك الوحشية التي لم أستطع تبريرها.. أفقدتني الوعي..
 شعرت بأيدي تمسك قدمي وتسحبني إلى أسفل.. جلست بينهما لا أقوى على النطق
 فقط أسمع دسوقي يتساءل.. إيه الدبابة دي؟؟
 ويستطرد التابعي معلقا.. أنا سمعت ناس بتصرخ..
 رويت لهما ما شاهدته بعيني رأسي.. فراحوا يصبون لعناتهم على العالم..
 عدنا أدرأجنا إلى الصحراء الواسعة.. فالعدو أصبح هنا.. وفي كل مكان يمكن أن
 تسير عليه سيار أو دبابة..
 مالت الشمس إلى المغييب.. وكنت مرهقا.. فخذى يؤلماني بشدة.. ظمأنا.. جائعا..
 ضائعا..
 على الأفق القريب.. لاحت بعض رؤوس الأشجار.. جررنا أقدامنا إليها جراً
 وصلناها بعد حلول الظلام..
 إرتميت على الأرض تعباً..
 طلب الدسوقي أخذ التابعي معه.. للبحث عن شيء يؤكل.. تركاني وحيداً.. رحت
 في نوم عميق..

كالسهم النارية اخترقت أشعة الشمس رؤوس الأشجار وسقطت على وجهي..
 صحت من نومي.. وأوشكت المنادة على الجندي المراسلة.. كأنني صحت تواء.. من
 حلم مفزع.. بمجرد فتح عياني صفتعنتني الحقيقة.. فكل ما مربى.. وما يمر بي الآن
 حقيقة..

استويت جالسا.. ألحت على في وحدتي الكاملة صورة المجزرة الرهيبة.. وأطياف
 محمد وإبراهيم وحازم وشكري أصبحت تلازمني.. أنصاف أجساد تهيم حولي..
 باسمه.. لا أدري لماذا هي باسمه.. محمد بابتسامته الحلوة المشجعة.. وإبراهيم

وابتسامته الخجل وحازم بابتسامته الصفراء ما بين أسنانه.. كلها ابتسامات..
نهضت أجر أقدامى.. أبحث عن شىء يؤكل.. أو ماء يشرب.. ولا زالت أطيا فهم حولي
تناديني باسمه.. ثم ضاحكه.. ضحكات مرحة.. فرحة.. في إيقاع واحد..
- .. على قين يا مختار.. شويه ونبقى كلنا مع بعض..

كالباحث عنهم.. أخذت أدور بين الأشجار..
على الجانب البعيد من الرقعة أبصرت شجيرة ممتدة على مسافة طويلة.. كالأفعى
تتلوى على الأرض.. رحت أفحصها كانت ذات أوراق خماسية نجمية مدبب الأركان..
انتزعت إحدى الوريقات ووضعتها في فمى ألوكها بين أسناني.. فإنسال منها عصير
لازع.. اكتشفت فيه طعم العنب.. جثوت على أربع.. باحثا بين الوريقات عن أحد
العناقيد..

واكتشفت عدة عناقيد برعمية ذات حبات خضراء لا تتجاوز الواحدة حجم حبة
الحمص الصغيرة دسستها في جيوبى.. وفي داخل سترتى.. مستمرا في قطع أوراق
العنب وأكلها بشرائه..

ورغم عصاريتها الملحية.. أكلت منها كما كبيرا..
وعدت مرة أخرى إلى مكانى.. أملأ.. أن يعود التابعى ودسوقى..
كانت وحدتى كاملة.. في هذه الصحراء المترامية..

بدأت تنتابنى الهواجس.. ماذا لو هاجمنى ضبعا أو ذئبا.. وأنا في حالة من الضعف
شديدة.. تناولت البندقية.. وانتزعت غطاء جيب سترتى.. وأخذت أمزقة بأسناني
ويداى.. فككت البندقية إلى أجزائها.. وأفرغت الرصاصات من الخزينة ورحت أنظفها
بدقة.. قطعة.. قطعة.. وطلقة.. طلقة.. ثم أعدت تجميع البندقية.. واختبرت عملها..
ووضعت بها الخزينة مرة أخرى.. وجذبت الزراع لتكون جاهزة للإطلاق على الفور..
وحركت ذراع التأمين.. وسددت فوهتها بقطعة صغيرة من القماش..
أصبحت مرهف الحواس.. كل خلايا جسمى أصبحت عيون ترى وأذان تسمع..

وجلود تحس.. ورأس يدور ويتلفت حولى كهوائى الرادار.. فكل شىء حولى غير مطمئن.. يدعو إلى التطير والجذع.. مضى الوقت.. وما الوقت بالنسبة لى إلا ميل الشمس فى كبد السماء.. ما بين الوقت والآخر.. أتناول حفنة من حبات العنب.. ألوكها وأبتلع عصارتها المحية..

يقطع الصمت المطبق صوت دفعات من طلقات الرشاشات أو البنادق الآلية.. ثم يعود الصمت.. ليطبق على الكون من حولى..

بدأت الشمس فى المغيب.. ولم يعد إلى لا الدسوقي.. ولا التابعى.. ولا زلت قابعاً فى مكانى منذ صباح اليوم لا أفعل شيئاً.. فقط الظمأ يقتلنى ويبيع فى أعضائى الأعياء والخوار.. والجوع يلوى أمعائى ليا.. فلم تعد حبات العنب بكافية لإسكات هذا الشعور القاهر بالجوع..

التقطت أذنانى أصوات أقدام تقترب..

نهضت مختبئاً وراء شجرة.. ممسكاً ببندقيتى حركت ذراع التأمين.. وأصبحت جاهزة للإطلاق على أى شىء يتحرك..

أبصرت ثلاثة يلبسون الكاكي على شاكلتى.. ممزقى الثياب.. وقد نبتت لحاهم.. صحت بهم.. وكأننى أسمع صوت نفسى لأول مرة فى حياتى.. شاهراً البندقية فى وجوههم.. إنتم مين..

سويا.. رفعوا أيديهم إلى أعلى.. وتبادلوا نظرات وجله.. ردوا بصوت ضعيف.. إحنا ضباط مصريين..

أخففت البندقية وأرجعت ذراع الأمان.. إلى مكانه.. لقد كان لحركة بندقيتى تأثير قاتل عليهم.. فقد علت وجوههم صفرة الموت فوق صفرة الإعياء.. وتبلت وجوههم بالعرق الغزير.. ما أن ألقى بالسلاح جانبا.. حتى تهاووا ساقطين على الأرض فى نحيب مر..

استطعت التعرف على أكبرهم سناً.. هذا الوجه العجوز رأيته.. لكنه الآن أصبح عجوزاً جداً.. وكهلاً جداً.. بل إبيضت باقى شعيرات رأسه.. فلم يكن غير قائد الكتيبة

الذى تسلم منا موقع جراداة الحصين.. وقد غادرت شفتاه ابتسامته الدائمة..
والبساطة والتفكة.. لم يعد ذلك الرجل الذى ترك لدى انطبعا إنه فى حالة انفصام
مع الواقع فلا يدري ما يقول.. ذلك الإنسان الذى جاؤا به من فوق مكتبة بوزارة
الزراعة.. وقالوا له:

- ..أذهب فانت قائد كتيبة.. وهؤلاء جنودك.. فحارب!!
شعرت بالرتاء له.. أكثر مما أرثى لنفسى.. فأنا رغم كل شىء قد اخترت الجندية
مهنة دربت عليها.. وعركتها.. هى مستقبلى.. وتكوينى.. وغير مطلوب منى شىء آخر
غير إتقانها أما هو.. فقد فرضت عليه فرضا.. فجأة.. بعد انفصال استمر عشرة أعوام..
ولم يعد هناك وجه تشابه بين الجيش وقت خدمته.. والجيش الآن.. لم يستدعيه أحد..
أو يدريه.. أو يعده لمثل هذا اليوم.. لذلك فقد بدأ عامل من عمال السخرة أكثر منه قائدا
لكتيبة وضابط..

ما قام به الجيش بالنسبة لهذا الرجل وأمثاله هو أقرب إلى المصادرة.. مصادرة
نفوس بشرية.. غير ملائمة.. للانتفاع بها فى شىء لا يجيدونه.. بدعوى لا يمكن
رفضها.. الدفاع عن الوطن.. وتلك الدعوى التى أثبتت الواقع أنها ليست أكثر من غيرها
صدقا وشعارات أوصلتنا إلى هنا.. إلى ما نحن فيه الآن..

جلست قبالة.. وسألته.. إيه جاب سيادتك هنا يافندم؟؟
نظر إلى طويلا صامتا.. ثم اندفع متدفقا:
- ..أفندم إيه.. وزفت إيه.. أنا لا عاوز أبقي سيادتك.. ولا أفندم ولا حاجة.. أنا عاوز
أروح لولادى.. لبيتى.. لمراتى.. ومكتبى..

كلماته كانت تحمل يقينا غريبا.. لا أدري كيف جاء به.. فالتفكير فى بيتى وأمى وأبى
وأختى.. هو أبعد ما يكون الآن عن دائرة المعقول.. أو المطروح..
فتسائلت... سيادتك كنت قريب من العريش ليه ما انضممتش للقوات الى هناك..
فجأة.. انفجر ضاحكا.. ضحكات هيسترية مجنونة.. ومن خلال الضحكات استطرده..
- ..سيادتي؟؟ بقولك.. أنا لا عاوز أسمع.. سيادتك.. ولا يافندم.. ولا أى حاجة من

دى خالص.. واستمر فى الضحك.. حتى اغرورقت عيناه بالدموع.. دموع حقيقية..
بكاء.. ضاحك.. يحمل مأساة عرضها ما بين رفح والقاهرة.. ثم أردف.. العريش.. ما
سقطت هى كمان العريش..

كان زملاؤه الضباط الصغار.. يتابعون نقاشنا هذا.. واجمين..
كانها صاعقة انقضت على رأسى.. بالإضافة للصواعق السابقة.. لقد سقطت
العريش!!

ماذا بعد... راح السؤال يتردد فى رأسى.. وفى قلبى.. أكاد أصرخ.. إن العدو يسبقنا
ويسبقنا.. ونحن جوعى.. عطشى.. ضائعون.. وتردد السؤال مرة.. ومرات.. ماذا
أفعل..

إنشق صدرى عن صرخه متسائلة.. وحا نعمل إيه دلوقت..
ولم تكن هناك إجابة.. بل صمت.. وصمت مطبق يائس.. يائس..
أصبحنا كالحيوانات الأسيرة.. يجب أن نحطم قيود هذا الأسر وبأى شكل..
- ..يعنى حانقعد كده.. لازم نتصرف..
ظلوا جالسين فى صمت كامل.. كأنهم لا يسمعوننى.. فقط يحملقون.. فى.. وفجأة
إنبرى الرائد العجوز قائلاً.. وبمنتهى الجدية..
- ..بقى أسمع يا اسمك إيه..
- ..محمود.. مختار.. يافندم..

- ..شوف برضه بيقول أفندم؟؟ ما علينا.. شوف ياسى محمود.. بقى أنت بقى دى
شغلتك.. وأنت برضه مهما كان حاتعرف نتصرف أحسن منا.. إحنا معاك.. اللى يمشى
عليك.. يمشى علينا.. وليك علينا.. إحنا من إيدك دى.. لإيدك دى.. بس لازم تطلعنا من
الورطة دى.. ماشى..

لم أفهم جيداً ما قاله الرائد العجوز.. فعدت أصيح..
- ..قاعدين ليه.. ما تقوموا نشوف لينا صرفه..
أخيراً سمعت صوت أحد الملائمين..

— ..جعانين.. وعطشانين.. بقالنا يومين من غير أكل وميه..
 دسست يدى فى جيوبى وأفرغت عناقيد العنب.. تلتفتها أيديهم..
 وقذفوها فوراً إلى أفواههم.. وراحو يسحقون الحبات ويستحلبونها..
 ذهب معهم إلى حيث شجيرة العنب.. فملا كل منا جيوبه.. وسترتة.. بالعناقيد
 والأوراق وهكذا اطمئن كل منهم أنه لن يهلك جوعاً أو عطشاً لمدة يوم آخر.. وعدنا
 أدراجنا إلى ظلال الأشجار..
 أخرج الضابط الأصغر سناً علبة سجائر من بين طيات ملابسة.. وأخرج سيجارة..
 وأنا أنظر لا أصدق عيني.. فمد يده بها إلى.. وتناول أخرى.. ودس العلبة فى ملابسة..
 ثم تناول ثقاباً من جيب سترته.. وأشعل لفافته.. ولفافتي.. كنت أدخن بشراهة ليدخل
 الدخان إلى أعماق أعماق رئتي.. ليدخل النيكوتين إلى دمائي وخلاياي.. فأشعر
 بالسكينة والهدوء.. تعالت دقات قلبي من شدة الانفعال.. عدة دقائق وشعرت بالأسى
 لانتها السيجارة... سرى شئ كالمخدر فى أوصالى.. ورغم ذلك.. هببت واقفاً
 والبندقية على كتفى.. دعوتهم للنهوض.. للبحث عن صرفه..
 اعترض ثلاثتهم على مغادرة هذا الظل الظليل.. ومبارحة شجيرة العنب الصغيرة
 فهي تقيم الأود.. على الأقل..
 أصبح للشمس الحارقة أثراً على الأعماق فقد سرنا تحت لظاهان بغير هدف محدد..
 والخوف من الموت جوعاً.. أو ظمأً.. بطلقة نارية من مكان ما ألحت عليهم للنهوض..
 ذكرت الرائد العجوز بوعده.. أن يتركنى أتصرف.. فوافق على النهوض بشرط العودة
 مرة أخرى.. إذا ضاقت بنا السبل.. ووعدته..
 وعدت زملاء الضياع.. واثقا بأننى لن أصدق الوعد.. حتى وإن أردت.. فلن أسير
 أبداً فى اتجاه الشرق.. بل الغرب.. والغرب دائماً.. ولن يكون لنا هدف مطلقاً.. غير قناة
 السويس.. على الأقل..
 أصبحت السماء أرجوانية.. أو شك الليل على إسدال أستاره.. أمامنا مباشرة اتجاه
 الغرب.. حيث فى المدى اللامعقول.. قناة السويس.. هناك على بعد مائة وثمانون كيلو

مترا بمقياس الطرق الأسفلتية.. وألف وثمانمائة كيلو متر بمقاييس رمال الصحراء..
ولكن العريش قريبة.. فلندخلها تسلا.. ولتكن هي الهدف..
أخذنا نشد خطانا بجهد كبير عبر الرمال الناعمة.. والتي تغوص فيها أقدامنا حتى
مستوى الركبة.. لنخرجها من الرمال بصعوبة.. لندفعها مرة أخرى.. لخطوة جديدة..
كنا نشد خطانا مطرقين.. وكل منا يمد يده للأخر.. وكأنه يستعين به على مشاورة
الطويل..

من بعيد جدا سمعنا كلاب تنبح.. ولم تظهر أشباح ساكني العريش بعد..
هبط الظلام يلف كل شيء.. تخترقة أربعة أشباح.. لديها أمل في الحياة.. أمل غامض
ينبع من أعماق النفس كالقبيس يشدها إلى الحياة.. بلا تفكير.. مجرد أمل يشع من غرائز
إبقائنا أحياء.. ولم نعد نرى أصابعنا.. إلا بصعوبة.. على ضوء النجوم البعيدة في أعماق
الكون اللانهائي الإتساع.. الضيق حولنا.. لا يتعدى جلودنا.. وكان الهدف هذه المرة..
صوت الكلاب..

بعد ساعات طويلة.. وصلنا إلى حيث تنبح الكلاب.. فكان أمامنا جرف.. غائر في
باطن الأرض.. وفي صحن الجرف برزت نتوءات سوداء كالقبور.. تدحرجنا إليها
نهبط.. نتماسك وقد تصلبت سيقاننا.. ونرتكز على مرافقنا حتى لا تنزلق على الرمال
الناعمة.. فنسحل أثناء الهبوط..

أمامنا عدة خيام مهترئة.. خاصة بالبدو الرحل اللذين هجروها هربا من العمليات
الحربية.. رفعت سلاحى وتقدمت إلى الخيام والثلاثة ورائى نفتش ونبش.. ولم تكن
هناك ثمة حياة.. فقط الكلاب.. التي فرت بعيدا..

التعب نال منا حتى هلكنا.. فسقطنا في آخر خيمة متجاورين..
أضجعنا على ظهورنا نحملق في الظلام.. نشاهد نجوم السماء خلال فتحات الخيش
الممزق.. وفجأة جلس الضابط الصغير صائحا... أنا شامم.. ريحة بصل..
هيبنا جالسين متسائلين.. بصل؟؟
إبتدره الرائد مشككا حتى يطمئن نفسه.. متأكد يا عبد المنعم... بصل؟؟

في حين أخذ الثالث يتابع الحديث مرسلا من عيناه ومضات كالبرقيات.. لاشك كانت ترجمتها.. ياليت.. فأنا جوعان..

أخذ عبد المنعم.. وقد اكتشفت اسمه منذ قليل.. يقسم أنه يشمها..
فقمنا نحن الأربعة.. نقلب الخيام رأسا على عقب وننبش الأرض.. وأخيرا حصلنا على كيس مملؤ بالبصل العطن العفن.. وعدنا أدراجنا إلى مرقدنا الأول..
جلس الرائد العجوز يفرغ الكيس في كومه صغيرة.. وأخذ كل منا واحدة يمضغها..
اقترح الضابط الرابع.. أن نشعل نيرانا نشوى البصل.. فنهرته منبها أن النيران ترى من مسافة كبيرة.. ويمكن للعدو اكتشافنا دون أن نراه ومن ثم يطلقون علينا النيران..
فاقتنع الزملاء.. إلا أنه أصبح لي ولعبد المنعم..

بالمرصاد حتى لا نشعل سيجارة.. وما هي إلا ثلاث بصلات حتى ألتهبت حلوقنا وشعرنا بالشبع.. فقام الرائد يجمع باقى البصل ووضعه في الكيس بعناية شديدة وحمله إلى جواره.. واستلقينا نائمين..

ما بين اليقظة والنوم.. صك أسماعنا.. صرير جنزير دبابة أو سيارة مدرعة..
صحونا معا مذعورين.. فرغم أننا نحيا حياة تافهة.. لا قيمة لها.. يتضاءل العمر فيها..
والموت صديق.. مرغوب.. لم نعد نخش وجوده.. لست أدري لماذا نعرنا كل هذا الذعر.. ولماذا تتلجت أطرافنا.. فتحنا عيوننا نحملق.. رأينا نورا لكشافان كهربائيان قويان لعربة مدرعة.. فوق حافة الجرف تماما.. ما أن مض الكشافان حتى تبعها دفعات طويلة من مدافع رشاشة تصفر.. تقصف أغصان الخيام قصفا.. بدون إتفاق وضع كل منا كفة على قمة.. ليكنتم صرخة إن اخترقت عظامه رصاصة.. حتى لا تكون الصرخة.. دعوى للسفاحين أننا هنا.. كان كل منا يخاطب الآخر قائلا..

- .. لا تخف يا زميلي.. لو أصابوني إصابة مؤلمة.. فلن أصرخ.. حتى لا تموت فأرجوك إحدو حدوى.. إن أصابوك إصابة مؤلمة.. فلا تصرخ.. حتى لا أموت..
سيول الرصاص قريبة منا جدا.. تكاد تمس أنوفنا.. تحولنا فعلا إلى كتل صماء.. لا حركة فيها.. كلها ترقب غير واع.. وإحساس مطرد بالضعف..

لم أشعر بمغادرة العربة المدرعة للمكان.. فقد نمت نوما عميقا..
 مع خيوط الفجر نهضنا.. ورحنا نعيد تفتيش الخيام.. تفتيشا دقيقا.. وخرجنا
 بحصيلة جيدة.. قطعة من العجوة.. وبيضتان.. وإناء به ماء عطن رسب في قاعة بقايا
 إخراج دجاج.. وشربنا الماء العطن الحمض المذاق.. فقلب أمعاؤنا.. ولواها.. ليا.. تقاسم
 كل منا مع زميل ببيضه يشرب نصفها.. وكان نصيب كل منا ثلاثة تمرات من البلح..
 وبدثنا المسير على الفور.. اتجاه الغرب أيضا..
 الشمس تكوى ظهورنا.. من جديد.. على الأفق لمحنا أجساد تتمايل آتية اتجاهنا..
 فإنبطحنا أرضا.. نتطلع إليهم..
 جاء جنديان متهاالكان.. من جنودنا.. تنزف منهم الدماء بغزارة.. بمجرد
 مشاهدتهم لنا.. سقطوا على الأرض.. يصرخون..
 رغم جروحهم البليغة إلا أنهم منذ لحظة كانوا يسيرون.. وبمجرد تواجدهم مع بنى
 أوطانهم سمحوا لمشاعرهم بالإنطلاق.. بل أهم مشاعر الإنسان على الإطلاق.. التعبير
 عن الألم.. ولم يكن في قدراتنا ما نفعله لهم.. اللهم إلا سماع تأوهاتهم..
 من خلال التأوهات والصرخات المتأللة.. استطعنا الإلمام بما حدث لهم..
 كانوا مجموعة كبيرة من الجنود والضباط.. قرروا الدخول إلى العريش متسللين
 وقد لمحتهم إحدى دوريات العدو.. على حدود معسكرات العريش.. فرقع كل منهم يداه
 عاليا مستسلما.. ردت عليهم الداورية بوابل من الرصاص.. حيث قتلوا جميعا.. إلا
 الجريحان.. فقد أصيبا إصابات شديدة.. ورغم النزيف.. فإنهم كروا عائدين إلى
 الصحراء.. على أمل النجاة!!!
 لم يكن معنا شيء يمكن مساعدتهم به.. لا أربطة ترقف النزيف.. حتى ملابسنا
 أقدر من أن تضمد جرح.. ولا ماء يطفى ظمأهم.. ولا طعام يأكلونه.. لم يكن معنا إلا
 مشاعر باردة.. لم تعد تتأثر بمشاهدة الموتى والمحتضرين.. لم يكن لدينا إلا أذان
 تسمع.. ورؤوسا لا تعى.. وبداخل كل منا رغبة عارمة في الحياة.. التي لا تعرف كيف
 يمكن أن تستمر.. والآن.. قضى على آخر أمل لنا في الحياة..

لمح الرائد العجوز راديو في جيب أحدهم.. فمد يده جاذبا إياه.. وكأنه يجذب ورقة شجر من غصن جاف.. أعمل أصابغة فيه قائلا:

نشوف أخبار الدنيا.. يمكن يوقفوا إطلاق النار.. وينسحبو.. ونرجع بقى.. قبل ما نموت.. ولم نعلق.. جلست على الأرض مرتكزا على كفى أراقب وأستمع.. وأمل أن يحدث ذلك.. فكما دخلوا كالزوبعة في ثلاثة أيام... كنت أحلم أن يتم انسحابهم في يوم واحد..

وتأتى قواتنا هنا سريعا.. تغسل معاناتنا.. وأذهب إلى حيث مات زملائي لأدفنهم كما يجب أن يدفن الأموات.. في باطن الأرض..

صك أسماعنا الصوت المتشنج.. الذى فقدنا الثقة فيه.. فما رده لنا من أكاذيب كانت منذ عدة أيام فقط تسكب نيران الحماسة في دمائنا.. قد فضحة الواقع المؤلّم الذى يحيط بنا من كل اتجاه.. قائلا إننا نكبد العدو خسائر فادحة ثقيلة في الأرواح!! والمعدات.. وأن قواتنا تقاتل بضراوة على خط الدفاع الثانى بسياء...

لم أكن ضابطا كبيرا.. أو مخططا عسكريا خطيرا.. لكننى ضابط صغير خدمت في سيناء عام ونصف العام فقط.. وجبتها شرقا وغربا.. شمالا وجنوبا.. لم أكن قد سمعت قبلا أن لنا موقع دفاع أول.. اللهم إلا عدة مواقع دفاعية في أم قطف والقسيمة وجردة.. وما شابه ذلك.. دفاعات هى كالجزر في صحراء مترامية جرداء.. أما خط الدفاع الثانى فهو كاذبا.. مضلل.. رحت أصب لعناتى على هذا المذيع ومن أمره بالإذاعة.. ومن يسمعه.. راجيا من الله أن يقذف به قذفا إلينا.. لنسكب في شذقية حفنات من الرمال اللافحة..

أدار المؤشر إلى محطة أخرى.. فتدفق الصوت العربى ذى اللكنة الشامية يردد نداء تتبعه موسيقى عسكرية صاخبة يقول....

أيها الجنود المصريون البواسل.. لقد انتهت المعركة بالنسبة إليكم الآن.. إبتعدوا عن الأسلحة الثقيلة.. وإلقوا أسلحتكم الخفيفة.. إن لدى جنودنا أوامر بعدم إطلاق النار على كل من ألقى سلاحه.. إلقوا سلاحكم.. تحققوا دمائكم.. ثم تعود الموسيقى

العسكرية مرة أخرى.. ليكرر النداء..

كان الصوت هادئا.. عميقا.. محايدا.. لم يكن ما يذيعه نداء إنساني.. إنما كان دعوة إلى تحلل جيش.. دعوى إلى رحلة مجهولة.. أبسطها الموت.. وأقل منها بساطة الأسر.. وهدفها انهيار أمة..

كان يخدعنا.. فأمامنا المثل المحتضر لكذبة علينا.. فها هم رفعوا أيديهم عزلا من السلاح.. وأطلق جنودهم النيران من داخل دباباتهم يحصدونهم.. دون منطق أو مبرر كلهم كاذبون.. بل كلنا كاذبون.. مخادعون.. منافقون.. كل يكذب على الآخر وينافقه وفي النهاية يخدعه.. وقت الشدة والاحتياج نتخلى عن بعضنا البعض الآخر..

من أرسلونا.. قالوا لنا سوف تنتصرون وقد أعدنا لكل شيء عدته.. وكانوا كاذبين فلم يعدوا لأى شيء أى عدة.. وتركونا نلقى حتفنا بالقنابل والرصاص.. من عدو لا نراه.. عدوا محصنا دائما داخل دبابة أو عربة مدرعة أو طائرة.. ونحن مكشوفوا الصدور أو تقتلنا الطبيعة ظمئا وجوعا.. وانهيارا.. ونحن خدعنا جنودنا.. ببريق النصر السريع.. وتركناهم يموتون أمام أعيننا ولم نجديهم شيئا وهم في لحظات الاحتضار.. كلهم قاتلينا.. قادتنا بهذا الإهمال والضعف الفاضح.. والهز في مواقع الجد والقتال.. قاتلينا بإطلاق النار على العزل من السلاح.. كلهم ملطخ الأيدي بدمائنا.. فليذهبون جميعا إلى الجحيم ونحن قبلهم نسبقهم بخطوات.. فحياتنا تافهة..

إنهار زملاء الطريق إلى جوارى.. والشمس فوق رؤوسنا تصيبنا بالدوار.. وكل منا يفكر.. ماذا بعد.. ولم يكن صعبا لاكتشف موت الجنديان المصابان..

راح الرائد العجوز يصرخ.... وبعدين... حانعمل إيه.. حانروح فين..

تركنا جثث الجنود وقفلنا نهيم على وجوهنا.. منجذبون كالفراشات إلى مجموعة من الشجيرات لحناها على بعد.. هنا.. وهناك.. كان السراب يخدعنا.. ويستنزف ما لدينا من قوى وهى قليلة.. اعترضتنا تبة عالية.. ووقف الجمع ينظر إلى.. أمسكت بالبندق أنزع من فم مسورتها قطعة القماش لأكون مستعدا للإطلاق.. وأخذت في الزد صاعدا.. لم أرى خلفها شيئا.. فقط.. صحراء مترامية.. وهناك ظل حقيقى لبد

شجيرات.. وسيارة لورى.. تقف كالشبح.. لوحت لزملائى بالصعود.. فوصلوا إلى جوارى.. الرائد العجوز في حالة من الإرهاق شديدة.. حيث تقطعت منه الأنفاس.. وصدره يعلو ويهبط محدثا صغيرا كمنفاخ الحداد..

عدنا نتدحرج هابطين متوجسين.. شاهرا بندقيتى.. مستعدا للإطلاق إن ظهر إلى جوارها إنسان مهما كان.. واقتربنا من اللورى.. الذى كان مكدسا بالصناديق.. وقد فتح غطاء المحرك وبابا كبينة القيادة.. لم يكن ثمة أثر لإنسان..

جلس الرائد العجوز في ظل إحدى العجلات الخلفية.. بينما تحامل ثلاثنا قافزين إلى الصندوق لنرى محتوياته.. دهشت حينما وجدت أن كافة الصناديق ما هى إلا صناديق سجائر.. والثقاب تلك التى كانت مخصصة للترفيه عن الجنود ولم تصل إليهم أبدا.. ولم يكن هناك شىء يؤكل.. أو يشرب.. فقط.. سجائر..

حملت أربعة خراطيش من السجائر وصندوقا للثقاب.. وحذى عبد المنعم حذوى.. وهبطنا.. فجأة صاح الرائد العجوز.. عطشان.. حاءموت م العطش.. هاتو لى ميه أشرب!!!

تركناه ومضينا في اتجاه الشجيرات.. راح يقذفنا بقبضات الرمال منتحبا قائلا.. حاتسيبونى تأكلنى الغربان.. استنوني.. استنوني..

أصبح على شفا الجنون.. إلى أين نذهب ونترك أيها القائد الهمام؟؟ نهض فجأة وسار إلى مقدمة اللورى.. وإنبطح أرضا يعالج شبيثا أسفل اللورى.. صائحا.. ميه.. فيه هنا ميه..

ورغم كل ما مر بى.. فلم تزل بقايا لعقل يفكر.. يفكر لدرء الموت ظلماً على الأقل.. ولم تكن وصلنا بعد حتى منتصف طريق الموت ظلماً.. كان شرب ماء الردياتير هو أقصر طريق للموت.. ليس موتا كموت طلقات الرصاص والشظايا.. ولكنه موتا بالسم.. الذى يمزق الأحشاء تمزيقا.. مع ألما رهيبه.. لمدة طويلة..

درت على عقبى أعدو وزميلائى في أعقابى.. نجذبه من قدميه ونبعد فمة المستميت على صنبور الردياتير يرتشف منه رشقات الموت.. قاومنا مقاومة عنيفة.. بدفعات

متتالية قوية من قدمية.. ويرى الماء يتدفق مهددا على الأرض.. كاد يجن تماما.. حتى فرغ الماء.. فتركناه... يصب فوق رأسى سيل من السباب بعد قليل هدا... جلس كما كان في ظل إطار السيارة كالمنتظر.. ثم بدأ يتلوى من الألم.. واضعا يده على بطنه.. يمنعها من الانفجار.. قاذفا بالقىء الأصفر إلى صدره..

رحنا نعدو هنا وهناك.. ننظر إلى الأفق البعيد ثم إلى السماء ونعود للرجل مرة أخرى.. عدوت إلى الأشجار الصغيرة.. أقلب أوراقها باحثا عن لا شيء يمكنه تخفيف آلام الرجل فكره أن يموت أحدا أمام أعيننا بطلق نارى.. أمر وارد.. أما أن يموت أمامنا هكذا مسموما.. كانت فكرة مروعة.. وكأن الموت مستحيلا دون نزف دماء.. وهذا جسد الرجل وصمت الأنين.. وكأننى أمام ميت.. ميت فعلا.. كالأموات في الدنيا كلها.

عدت إليه مترددا أفحصه.. فكان أصفر الوجه شاحبا تماما.. تجمعت على جبهته قطرات من العرق كبيرة.. باردة.. وصدره يعلو.. ويهبط كالنائم.. جلس ثلاثتنا حول النائم صامتين.. مالت الشمس اتجاه الغرب.. تبادلنا كلمات متناثرة لا معنى لها.. الصمت هو السيد الذى ينقل الحوار بين عيون شارده.. والسن جافة.. وأمعاء خاوية.. مضى علينا يومان.. نحيا معا.. نكافح من أجل أن يمتد بنا العمر دقائق أخرى.. لم يفكر أحدها أن يسأل الآخر عن شيء.. فكل منا بالنسبة للآخر.. كالجزئى.. يحاول التجمع مع جزيئات أخرى.. لصنع جسم متماسك متعاون.. لم يكن لائى منا اسم.. أو هوية..

كان عبد المنعم أصغرنا سنا.. وأكثرنا ابتساما.. رغم ظروفنا المستحيلة.. يذكرنى بإحساس المشاهد الذى عشته طويلا.. وأعيشه كل يوم ساعات.. ما بين اليقظة والحلم أما عبد المنعم فقد كان هذا الإحساس يحتوية.. فيتصرف ويسلك سلوكا غير منتمى إلى المأساة.. التى تدور داخلها..

تخرج من الكلية الحربية قبل اشتعال الحرب بأربعة أيام.. وصل إلى وحدته مساء يوم الحرب.. لم يكن قد أسند إليه عملا.. وجد نفسه فجأة يقصف بالقنابل والناس من

حوله يتساقطون.. لم يكن يعلم لماذا.. أو ماذا عليه أن يفعل.. بل لا يدري أصلاً لماذا
قذف به إلى هنا.. وبالتالي فلم يسأل نفسه ماذا بعد..

أما ثالثنا كان فيصل.. تخرج من عدة شهور مضت.. يبدو ذو حياة مرفهة.. بأكثر
مهماً تحتمله حياة الضباط.. يدل خاتم في يده اليمنى أنه مرتبط بخطوبة إحداهن
بالقاهرة الإحساس بالضيق المصحوب بالدهشة مع الرفض الكامل لما نحن فيه من
تشرذم.. يعتصره ويحتويه معا.

مح شعوره الطاغى بالضعف منفرداً.. يدفعه إلى السير ورائنا غير مشارك.. فأصبح
لنا كالظل..

انفجر فيصل في نحيب طويل فجأة.. عينان عسلية ذات أهداب طويلة.. مرتعشة
وفم مزموم.. يخرج من خلال الأسنان صوت بكاء كالأزيز.. دارت عيناه في
محجريهما.. لتستقر على النائم المحتضر.. صرخ ناظراً إلى الأفق اللانهائي..

— إيه اللي جابنا هنا؟؟.. بنعمل إيه دلوقت؟؟.. وحانعمل إيه في المصيبة دي؟؟.. حا
نفضل قاعدين لما نموت وتاكلنا الغربان؟؟.. مش حارجع مصر تاني؟؟.. مش حا
أشوف أمي.. وخطيبتى؟؟..

قطع نحيب فيصل كلمات عبد المنعم اللامنتمية— أه.. فكرتني بأمي.. ياما نفسي
دلوقت في أكله بط من أيديها.. وكباية ميه ساقعة.. وأنام في حضنها..
توجه إليه فيصل بكل الغضب... إنت دلوقت في البط.. وللا في المصيبة دي.. مش
كفاية اللي إحنا فيه.. ده وقت تهريج..

استطرد عبد المنعم في بساطة.. أموت أحلم بحاجة باحبها.. أحسن ماموت متنكد يا
أخي؟؟.. هلع فيصل صائحا:

— نموت.. لأ.. مش ممكن أموت.. دي أمي ما لهاش حد غيري.. وكمان أختي أنا
راجل البيت.. لو مت حايتبهـدلو.. الناس حاتاكلهم.. كمان أسيب خطيبتى لمن؟؟؟؟.. رد
عبد المنعم باسمًا:

— ... خلاص ياسيدي.. ماتزعلش.. نموت إحنا.. وأنت خليك عايش.. حقه على..

كان هذا الحديث ومن كلا طرفيه تحديدا يدور في أعماق نفسى.. أكافح ضد هذه النفس
كى لا أسترسل في أحلام اليقظة.. كم كنت أتمنى أن يكون حلما.. مجرد حلم.. بامى..
وصدرها الحنون.. حتى ذلك الحلم.. كان بعيدا.. بعيدا..

عم الدنيا سكون وظلام.. وتحرك الرائد العجوز.. بهجت بيه.. من رقدته الطويلة..
الجوع يكوينا.. والظلم يفتك بنا.. والتعب نال منا كل منال.. ولكن ماذا نفعل.. غير أن
نزحف متوارين بين أغصان الشجيرات.. تساندنا.. وجررنا أرجلنا.. وتحت
الشجيرات.. ألقينا أجسادنا.. فقد مر يوما.. من أيام لا تحسب من العمر..

مع خيوط الفجر.. صحتنا.. جلسنا أنا وعبد المنعم ندخن.. والرائد بهجت وفيصل
يرقبونا.. لمعت عينا بهجت فجأة.. وصاح:

-..بس.. خلاص.. أنا حاسقكم ميه..

هتفنا معا... ميه..

-..أيوه..

-..إزاي..

-..نروح على ورق الشجر.. عليه نقط ميه.. من النتح.. نمصها ورقه.. ورقه.. وقد
كانت فكرة عبقرية تماما..

لم نترك ورقة واحدة دون أن نمسح بها شفاهنا.. وألسنتنا.. وللعجب.. بدأ النشاط
يدب في أوصالنا.. وبدأنا البحث عن أى شىء يؤكل.. فعثرنا على كنز من البطيخ..
جلسنا أمام محصولنا من بطيخ الصحراء.. كومه تجاوزت الخمسة عشرة حبة.. ما
كدنا نمد أيدينا حتى نهرنا بهجت بيه قائلا:

-..الأكل مش مشكلة.. نقدر نعيش من غير أكل أسبوعين.. لكن الميه هى اللي
ماتجيب أجلنا.. نخل البطيخ ده.. لما الحر يشد علينا..

اعترض فيصل قائلا.. يعنى ماناكلش؟؟

قاطعته حاسما... إخرس..

وعدت أجلس صامتا أدخن.. لكذنى عبد المنعم مشيرا إلى نقطة تتحرك قائلا:

- ... بص..

كانت هناك حرباء كبيرة جدا.. في حجم التمساح الصغير.. ذات قوائم أمامية طويلة.. ورأس كالديناصور المنقرض.. تناولت بندقيتي.. وحركت ذراع الامان.. وأطلقت النار..

هجم فيصل على البندقية يجذبها من يدى صائحا:

-.. دلوقت حايسمعوننا.. وحاييجوا علينا.. يقتلوننا..

جذبه بهجت بيه وعبد المنعم بعيدا.. يحاولون تهدأته.. النار أطلقت.. ويحدث ما يحدث.. أمنت البندقية ووضعتها جانبا.. ونهضت لأرى الغنيمة.. ممدده على الأرض وقد تناثرت رأسها أشلاء.. رفعتها وعدت بها.... والقيتها بين زملائي ممددة كالقتيل.. -.. أسلخها.. صاح عبد المنعم.. مددت يدى إليه بالسونكى..

دب النشاط واقترح فيصل أن نشويها.. بشرط.. مغادرة المكان فور شيها.. فوافقنا على الفور..

هبينا نحن الأربعة نبحث عن بعض الشجيرات الجافة.. وعدنا ومعنا كومة كبيرة.. قمنا بعمل حفرة في الأرض.. وضعنا بها العشب الجاف.. لازال عبد المنعم يكافح لعزل جلد الحرباء عن لحمها..

أخرجت أحد الرصاصات من خزينة البندقية.. ونزعت المقذوف.. ثم سكبت البارود على الأعواد الجافة.. وأشعلت عود ثقاب القيثه عليها.. فارتفعت السنه للهب.. وألقينا فيها اللحم الحيوانى.. بدأت رائحة الشواء تصك أنوفنا.. ولازال فيصل قلقا.. يردد دون ملل.. يالله.. يالله نمشى.. قبل ما تيجى دبابة.. ولا يبعثولنا طيارة.. ترمى علينا قنابل.. وسرعان ما هدأت النيران.. فأخرجنا الغنيمة.. وضعناها على الرمال.. ومزقناها بالسونكى إلى أربع قطع.. لازالت تقطر دما.. حملنا اللحم والبطيخ في طيات ملابسنا.. وأسرعنا الخطى اتجاه الغرب.. على الأفق البعيد بدأت مآذن العريش في الظهور.. جلسنا إلى جوار عدة كوديات من الحشائش.. نتدارس الوضع.. وكان من المستحيل محاولة اختراق المدينة التى يقطع شوارعها مدرعات العدو الإسرائيلى.. الذى يطلق النار على

الجنود العزل.. مرفوعى الأيدى..

لم يكن هناك بدا من الدوران حول العريش.. اتجاه الصحراء.. هناك جنوب المطار..
لتصبح الصحراء أمامنا واسعة.. حتى قناة السويس.. ولقد علمتنا التجربة.. إنه يمكننا
الحياة رغم كل شيء.. فى أتون العدم..

لم يكن لدى الرفاق حل بديل.. فحولنا اتجاهنا إلى الجنوب.. حتى بدأ الليل يرخى
سدوله.. لاح على الأفق البعيد ضوء منتظم.. يلوح ويخبو.. وكلما لاح انطلقت دفعات
متصلة من مدفع رشاش.. كانت إحدى دوريات العدو وكماشة المكلفة بإطلاق النار على
كل ما يتحرك.. رحت أحصى على أصابعى فترة الضوء التى يطلقون فيها النيران..
ومده الظلام الآمنة.. أحاطتنا.. روائح نتنة متحللة تغلب الأمعاء..

همست بأن نعدو بمجرد الإظلام.. فإذا ما ألقيت بنفسى على الأرض.. عليهم الإنبطاح
مثلى.. ومن يصاب منا.. علينا تركه.. والتحرك بدونه.. حتى نعب الجهة الأخرى لخط
سير هذا الكمين أو الداورية.. القاتلة..

نهضنا نركض كالقطط البرية.. المدافعة عن حياتها.. قذفنا بأنفسنا إلى الأرض فى
الوقت الملائم تماماً.. اصطدمت يدي برأس بشرية.. نظرت.. كنت إلى جوار جثة قد
انتفخت ثم انفجرت.. فأرتعدت.. وشعرت بأمعائى كلها تقذف إلى الخارج..
كنت فى لحظة الإعياء فيها ترفاً.. لا أستطيع التمتع به..

فبمجرد حلول الإظلام.. نهضت وورائى الزملاء.. نركض مرة أخرى.. وهكذا..
حتى أصبحت الأنوار تجيء من خلقنا.. فبدئنا الركض مائلين إلى اتجاه اليمين.. إلى
الغرب.. على هدى النجوم صديقة الجنود الأزلية..

اختفين وراء إحدى التباب التى حجب عنا أنوار الكشافات بشكل كامل..
بدى لنا شريط الأسفلت اللامع قريباً.. قريباً مفاجئاً.. ذلك الطريق الذى يربط مدينة
العريش.. بمنطقة الحسنة فى وسط سيناء.. فأخذنا نركض فى اتجاه الطريق.. وما أن
اقتربنا.. حتى فوجئنا بطابور طويل من السيارات قادمة من العريش فى اتجاهه
الحسنة.. فانبطحنا متجاورين كقطع الحجارة..

وبدأت كشافات السيارات في المروق أمام رؤوسنا كالبرق.. ومرت دقائق ثقيلة حتى عاد الهدوء والظلام مرة أخرى إلى الطريق.. وفي خطوات واسعة قليلة عبرنا الطريق.. وأصبحنا وجهاً لوجه أمام الصحراء المترامية.. الواسعة.. والتي لا يمر بها أية طرق حتى قناة السويس..

منذ يوم القبض على شعبان.. جثم على صدر الأسطى مختار وجل.. وتطير.. وبات أهل الدار في انتظار شرما.. يحق بهم شرما من اتجاه مجهول.. فأصبحت الوجوه تتلاقى في ابتسامة مرسومة.. غادرتها الدعة.. وسكنها القلق.. كابتسامات التعزية.. لم يكن في رأس مختار وعليه وتحية إلا مشكلة شعبان وأسرته وسجنه الذي طال والسؤال الحذر.. لماذا نجوا به إلى السجن؟؟

الكل حائر.. لم يكن لشعبان أى أفكار خاصة.. عن أى شىء.. خارج أسرته.. وعمله.. صحيح أنه يهوى تدخين الشيشة في القهوة ولعب الطاولة مع الأصدقاء.. لم يكن مواظباً على الصلاة.. ولم يتدخل يوماً فيما لا يعنيه..

لقد أُرهبه ضابط المخابرات.. شككه في معرفة أخيه.. بل أصبح يشك حقاً إن كان مذنباً يستحق السجن.. رغم السبب الذي قيل له.. لم يقنعه أبداً.. ولكن لا بد أنهم على حق.. وإلا فكيف لإنسان الزوج بأخر بريئاً إلى السجن؟؟ أن يحرم أسرة من عائلها ويحيطها بأيام سوداء..

إن لم يكن بريئاً.. فلماذا سجنوه.. ويهددونه في ابنه محمود؟؟

ابنه.. ذلك الأمل الطلوع.. الذي عاش مختار من أجله يرعاه.. كالنبت الصغير في صحراء حياته القاحلة.. حتى أصبح رجلاً يملأ السمع والبصر.. ويرى فيه أمله الذي لم يستطع تحقيقه.. كان التلويح بإيذائه.. وإضاعة مستقبله.. أكبر من قدرته على التحمل.. فنسى شعبان.. أو تناساه.. نزولاً على نصيحة ضابط المخابرات..

رغم ذلك.. فإنه يعيش لحظات الترقب والانتظار لشر ما.. يراه يحوم على رأسه.. يرسل ظلالاً كثيفة من الصمت على جدران المنزل..

بمرور الايام.. أصبح يرى كل عين تنظر إليه خنجراً يغوص في وجدانه.. نظرات الحب تخفى خلفها تشفياً مما ينتظره من تعاسة.. تحولت الدنيا من حوله.. إلى عيون.. أصبحت الايام سلسلة طويلة متصلة من الترقب والانتظار.. حتى النوم تقطعه أحلام فزعة.. لتتصل بواقع كله تحفز وترقب.. وانتظار.. انهزام بلا معركة.. وسقوط على الركبتين.. بغير قضية..

أما يوم بدأ شبح الحرب ظاهراً.. فقد تحول الواقع ليقترّب أكثر من القلوب والعقول والمنطق بدى كل شيء متماشياً مع حالة الحرب التي توشك البلد خوض غمارها.. عاش حالة ترقب الحرب.. كشيء سرمدى عظيم يهز وجدانه.. وتسكب الحماسة سكياً في شرايينه.. لا يدري ماهى الحرب.. إلا أنه يحس البشر حوله يشتعلون.. مسه الاشتعال من الداخل كأنّ الناس قد أصابتهم الحمى فراحو يصرخون.. مع صرخات الإنذاعة والصحافة والتليفزيون.. مع انفعااال الأناشيد الحماسية.. فوجد نفسه يصرخ معهم.. عليه أيضاً راحت تصرخ فرحة.. وتبتسم مرددة إن الانتصار سيريح هؤلاء الناس جميعاً.. تحول إيمانهم بالنصر إلى يقين.. إنها حرب صغيرة.. أيام قليلة.. يرجع إليهم محمود يحمل إكليل الغار مزهواً بالنصر السريع..

بات يحلم بابنه محمود تائماً ويقظاً..

جسوراً.. يحمل على كتفيه نجومه.. ويده بندقية يقتحم العدو مكشراً عن أنيابه كالأسد الهصور.. أبازيد الهلالى سلامة.. رجع حياً في صورة ابنه.. لوحته الشمس.. وتهذلت على جبينه خصلة شعر.. مبللة بالعرق.. يركض وراؤه جنوده شاهرى السلاح شجعاناً.. تتساقط حولهم القنابل.. ولا يهابون.. يشقون طريقهم عبر السنة النار والدخان.. لا يصابون.. بل يعطرون عدوهم رصاصاً من بنادقهم.. فيستسلمون لابنه خاشعين..

يعود إليه.. وقد تدلت من عنقه أربطة الشاش ترفع ذراعه المصابة إصابة صغيرة.. كالوسام.. لن يحزن مختار.. بل سيكون فرحاً.. فخوراً بجرح ابنه.. سياخذه بين أحضانه.. ويجلسه في سريره.. ويجلسون إلى جواره.. يحكى لهم ويقص.. ماقام به من

عمل مجيد..

اللوريات الضخمة.. التى تجر ورائها المدافع الجبارة.. تخرق شوارع المدينة.. وقد تسمر فوقها الجنود الأشداء.. على رؤوسهم خوذات الصلب تلمع.. والناس تنشق حناجرهم حماسة.. هاتفة بالنصر القريب.. كان مختار يتطلع إليهم فرحاً.. وكأنه يصبح قائلاً:

.. إن لى ابناً اسمه محمود.. ضابطاً صغيراً.. إنه الآن فى سيناء كى يحارب مثلكم تماماً..

وسقط شعبان نهائياً.. من دائرة وعى الاسرة.. حاول مختار الربط ما بين القبض على شعبان.. وحالة الحرب التى تلف البلاد لفاً.. فلا شك إن هذا القبض ماهو إلا إجراء.. لمساندة الجيش فى حربـه الظافرة.. مساندة لمحمود.. ومحمد.. وإبراهيم.. وحازم.. وآلاف الضباط والجنود الذين لا يعرفهم.. فلا بأس أن يكون شعبان أحد الضحايا.. لتحكم الدولة قبضتها على الأمور.. لتحقيق النصر.. ذات صباح.. أعلن الراديو.. أن الحرب قد استعلت أوارها..

هاهى الحرب أخيراً قد وقعت لم تشعر أسرة مختار بالوجل.. كان إيمانهم بسهولة الأمر.. بسرعة الانتصار أكبر من أى توجس.. هتف مختار بزوجه قائلاً:

– تعرفى يا عليه.. ياما نفسى أرجع صغير تانى.. علشان أروح الجيش وأحارب مع الأولاد..

جاوبته عليه ضاحكة:

–.. وليه يا أبو محمود؟؟.. ما كفاية عليهم ابنتنا محمود.. راجل ولا كل الرجاله.. أهو بيحارب بدلنا كلنا.. واستطردت قائلة:

–.. والله ما أنا عارفة إحنا عاملين الظيطة دى كلها ليه؟؟.. هو العدو ده ياخذ فى إيد رجالتنا غلوة؟؟..

الحديث المتفائل.. والشعور بالسلاسة.. هو السيد.. فلم تكن الحرب لديها إلا بطولة أبو زيد الهلالي.. والوزير سالم.. وعنترة بن شداد.. كـر.. وفر.. وقرقة سلاح.. تنتهى

سريعاً بالانتصار.. على عدو مذعور سلفاً.. خائفاً مسبقاً.. لا يملك إلا العويل.. امام ثقة الزعيم..

الجميع وكأنهم يعيشون في غيبوبة طويلة.. لمخدر قوى المفعول..
مرت الايام .. وبدأت شائعات هنا.. وهناك.. تتردد.. الأصوات المتشنجة في الإذاعة والتليفزيون.. بدأت تتحول.. تتخبط..
أيداً.. لا يمكن أن يهزم محمود.. لا يمكن أن ينسحب أبداً.. هل يمكن بعد هجومه الجسور وورائه الجنود وفرار العدو خوفاً هلعاً.. يهزم.. كيف؟؟ فجأة بدأت تختلط الأحلام بالحقائق في رأس الرجل..

لم تعد تحية تضحك.. لم تعد عليه باسمه.. وجوماً عاماً.. وجزعاً مقيماً.. وتوجساً مستمراً.. حتي صوت المذياع الذي كان يهز وجدانهم منذ أيام.. أصبح يبعث في نفوسهم القشعريرة والترقب..

بدأت عليه تقضى أيامها ولياليها في الشباك تنتظر الغائب..
أصبحت تحية لا ترى من طيات صفحات كتبها إلا صورة أخيها يبتسم..
يدلف مختاراً إلى المنزل على أطراف أصابعه.. في هدوء.. والقلق يعتصره ينظر في عيني زوجته وابنته بلا كلام.. يسأل هل عاد محمود؟؟
الانتظار.. فقط.. الانتظار.. والوقوف في الشباك.. ربما تقع عيونهم على خطوات محمود..
وعلى الرصيف المقابل لمنزلهم كانت سيارة حسن بك.. بداخلها النسوة الثلاثة يتضحكن في نشوة وسعادة.. بعد العودة السالمة من رحلة الهروب إلى الفيوم.. في كل ساعة تتدفق أخبار من الأهل والأصدقاء.. عن عودة أحد الغائبين في سيناء لازالت الأسرة تنتظر.. ولم يصل الغائب.. وطال الانتظار..

غابت الشمس وأشرقت مرات كثيرة.. ولازلنا أحياء.. فقط نسير.. ولا نتوقف عن السير.. إلا إذا سقطنا نيام.. عرفنا الطريق إلى امتصاص الندى من فوق أى نبات

أخضر.. في تلك الصحراء اللانهائية.. مع ساعات الفجر الأولى..
لم تكن هناك ثمة علامات تدل على وجود مياه قريبة.. أو حتى احتمال وجود مياه في
ذلك الليل الطويل.. وتلك الرمال الممتدة.. ولم يكن هناك حساباً للوقت أو حساباً
للمسافات.. فقط.. الاتجاه غرباً..

لم يفكر أحد منا أو يتساءل.. إلى أين؟.. كنا كالفرشات المنجذبة بحكم الغريزة إلى
الضوء.. وكان ضوئنا هو اتجاه الغرب.. قناة السويس.. كان حلمنا أن نصل إليها..
فالمنطق يقول مؤيداً للواقع.. بأننا أصبحنا أكثر ضعفاً وتهاكاً.. وبأننا نزداد ضعفاً
وتهاكاً كل يوم.. بل كل ساعة.. ولن نتحمل الجوع والظما أكثر منا تحملنا فقد
تشققت الشفاه والجباه.. والوجنات والأنوف.. ولن نتحمل خلايانا الصبر على فقد
المياه بأكثر ما فقدت فعلاً..

ورغم ذلك كنا نسير.. متقاربين.. صامتين.. وقد فقدت عضلاتنا الإحساس بالتعب..
هذا الإحساس الإنساني البناء.. الذي يدفع الإنسان إلى الراحة والاسترخاء.. والنوم
العميق لتتجدد قواه.. ويصحو نشاطاً ذى ذهن صاف.. يمكنه التفكير والإبداع.. هذا
الإحساس لم يكن ينتابنا.. ليس عن قوة.. ولكن ألياً.. يدافع الإصرار على استمرار
التنفس وضربات القلب..

بدأت الشمس في إلقاء لظاها على أجسادنا المرهقة..
أصبحت الأرض أكثر حرارة.. وأقل تماسكاً.. أصبح جهد نقل أرجلنا لخطوة واحدة
عملية شاقة.. نبذل فيها جهداً فوق قدرة الاحتمال.. فأصبحت أكثر تمهلاً وأقل
انتظاماً.. تتأرجح ذن اليمين.. وذات اليسار.. نسير متشابكي الأيدي كالسكارى بلا
خمر.. سكرين.. بما فيه من ترنح.. وخيالات.. وأحلام يقظة..

تشاقلت خطانا.. أكثر.. وأكثر.. وكأننا لا نتحرك.. بل الأرض هي التي تتحرك
وتدور.. والصحراء حولنا صامته.. صامته كصمت القبور.. في كل اتجاه ألف فم يطلبنا
كي يحتويانا.. أصبحت حلوقةنا لزجة.. لم تكن حلوقة جافة.. فقد مضت فترة الجفاف
منذ ساعات طويلة لزوج كالغراء.. تلصق اللسان في سقف الحلق.. وتحول القصبة

الهوائية إلى مجرد ماسورة يتحرك خلالها الهواء ساخناً ملتهباً.. وفقدنا القدرة تماماً على النطق تراخت أيدينا.. وضاعت البندقية.. ورحنا نجر أرجلنا جراً.. وأصبحت حملاً ثقيلاً.. نحمله أكثر مما يحملنا.. تمنيت أن أقتل.. برصاصة تأتي من حيث لا أدرى.. سقط فيصل.. انهار منكفئاً على وجهه.. وساقاه منثنيتان تحت جسده.. جرك رأسه.. وجحظت عينان شاخصتان في تضرع.. يحاول يائساً فتح فمه.. كي يتكلم في رسالة تقول لنا في رجاء..

.. يا أصدقائي لا أريد أن أموت.. فقد نجوت من براثن الموت حتى الآن.. ولا أعرف كيف.. إننى لن أستطيع السير.. فقد خارت قواى.. لا تتركونى وحيداً.. حتى لا تأكلنى الغربان.. إن لى أمأ واختاً لا أحد يرعاهما في هذا العالم سوى.. وكنت سأتزوج خطيبتى.. فلا تدعونى أنف.. إلى الموت..

ثم أغمض عيناه.. ليموت في هدوء وبدون ألم.. في غيبة الموت ظمأ.. تركناه.. فكيف يمكن أن نتظر.. كل ثانية في هذا القيظ.. تقصف سنوات من العمر.. وتقربنا بخطى واسعة.. للملاقة مصيره..

مالت الشمس اتجاه الغرب في مواجهتنا..

لاحت على الأفق النباتات الشيطانية.. انبثق في نفوسنا أمل جديد.. على أول كرة ألقى الرائد بهجت برأسه أسفل الوريقات الحارة.. ليستظل ظلاً لا يتجاوز أم رأسه.. حذونا حذوه نحن أيضاً.. ورحت في غيبوبة أشبه بالنوم.. أو نوماً أشبه بالغيبوبة وحينما عدت من رحلة النوم.. كان الجو بارداً.. والظلام يلف كل شىء.. والقمر هناك يلقى بأشعته الفضية على الصحراء.. فيعطىها لوناً كبريق الذهب.. عبد المنعم جالساً يدخن.. جلست أنا الآخر.. وأشعلت سيجارة أدخنها.. وكان علينا مواصلة السير..

نهضت متثاقلاً.. ونهض عبد المنعم.. وتوجهنا إلى الرائد بهجت..

كانت عيناه جاحظة.. أن نفس نظرة فيصل المطحونة.. الراجية.. ولم يكن ممكناً أن نتركه ونمضى.. فلا بد أن هناك خطأ ما.. فلا يمكن أن يكون ملك الموت متربصاً بنا

يحصدنا واحداً إلى الآخر ظمأً..

بدأ بهجت يرفع يداً مرتعشة إلى أضرار بنطلونه..

قمت بحل الأضرار.. كى أخفف عنه ضغط ملايسه.. فأشار إلى الزمزية الفارغة إلى جانبي.. فانتزعتها من نطاقى وفتحتها أقلبها كى يرى أنها فارغة تماماً.. ثبت نظرة رجاء ضارعة إلى الغطاء فى يدي.. فمددته إليه..

تناول الغطاء الصغير.. وحاول محاولات مستميتة التبول فيه.. ولم يكن لديه إلا قطرات ذات رائحة نفاذة.. فى لون العسل الاسود.. رفعها إلى فمه ودفعها إلى جوفه وكرر المحاولة مرات..

دبت الحياة فى الجسد المسجى.. فنهض متهاكاً..

وكررت أنا وعبد الأنعم تجربته.. وكان للببول طعم لاذع رهيب.. لكن تلك القطرات الثمينة أعطتنا قدرة على مواصلة المسير عدة كيلو مترات أخرى.. فى جوف الليل شديد البرودة..

مع أول خيوط الفجر.. كأن الأرض انشقت فجأة عن مجموعة من النخيل القزمي الصغير.. فبدأنا فى العدو كالظباء القوية..

كانت الأرض بين النخيلات.. رطبة مندا.. فأخذنا فى الحفر بأيدينا.. نرفع رمالاً هشة.. لم تتجاوز الربع متر عمقاً.. حتى امتلأت الحفرة بالماء المخلوط بالرمل.. مددت يدي أملؤها فرحاً وأرتشف.. وكان المذاق مرأ كالصبر مخلوطاً بصودا كاوية.. غير محتمل.. بل زاد إحساسنا بالظمأ.. وتقلصت أفواهنا..

هيببت أفحص النخيلات.. لم يكن هناك شىء من التمر..

أمسكت بالسونكى أضرب أصل فرع من أفرع الزعف ضربات متتالية حتى فصلته.. قمت بنزع الوريقات الإبرية منه.. فحصلت على فرع من الجريد الأخضر اللين.. وضعت طرفها فى فمى أعضها بقوة.. ماصاً عصارتها وكأنها عوداً من القصب وتبادل زميلاي السونكى يحذون حذوى..

امتلات بطوننا الخاوية بعصارة الجريد.. ذات الطعم اللذيذ والماء الوفير.. جددت

خلايانا ودبت في أوصالنا الجنية .

الشمس تضرب الصحراء بقسوة .. أغرقتنا بالنكين إذ حده في ..
الظليلة .. بدأ الاهتمام يعلو وجه الزائد بهجت .. وهو ينظر إلى ..
لأول مرة ..

ثم قال .. النهاردة إحننا وقعننا على كئز .. عندنا لكل يكفينا .. سنة ..
قاطعناه معاً .. إلحننا بيه ..

- جوة النخلة فيه حاجة اسمها اللحاء .. اللحاء ده زي اللحم ..
القصب .. كله غذا هایل .. ومية ..

- .. يعنى مش بيتاكل ..

- .. طبعاً .. وممكن نطلع معه كميات زي ما إحننا غوزين ..

- .. نطلعه إزاي ده ..

- .. من قلب النخلة ..

وقع اختيارنا على أطول الشجيرات وأكثرها استواء .. وتحالف ..
بالسنوكى .. كل منا يضرب عدة ضربات حتى يصاب بالعصفور ..
نحطنا في عزل وتمزيق جدار الهدف الخارجى وظهورت أمامنا مقعنة ..
بهجت أنها اللحاء .. وأمسك بالسنوكى ودفعه دفعة قوية إلى قلبه ..
إلى الخارج ومعه مخروط .. من بين أبيض شمسى قضم منه هضمه ..
مذا قطعته .. ظللنا طوال النهار لا نمل أنا إلا الحصول على هذا ..
بدلونا تماماً ..

لأول مرة منذ قيام هذه الحرب الملعونة أتت هذه المرة ..
جيوينا باللحاء .. وحمل كل منا .. وبدأنا المداير في الشجيرات ..
مرت .. وهاجمنا الظلمة .. في الطريق ..
كالطمع .. فما أن امتلأنا بالنصاره المداير الجريد واللحاء ..
القراح ٤٩ ..

لف العالم ظلام.. ولا زالت في الأبدان قوة دافعة.. تدفعنا للمسير الطويل المصر
إصراراً لا هواده فيه.. في صمت لا يقطعه إلا مضغ اللحاء.. وزفرات أنفاس السجائر
المشتعلة دائماً بين أصابعي.. وأصابع عبد المنعم..

قبل بزوغ الفجر ترامت إلى أسماعنا أصوات بشرية متداخلة.. غير واضحة النبرات..
شددنا الخطى اتجاهها.. دون حذر فقد أصبح لا شيء يهم..

أصبحنا فجأة وسط مجموعة هائلة من الجنود والضباط.. أتية من أطراف سيناء
الأربعة.. فسألنا ما الخبر.. قيل لنا.. إن هناك بئر مياه!!!..

توجهت إلى البئر ركضاً.. كان هناك حبلاً طويلاً مربوط في نهايته صفيحة فارغة
صداء.. أدليت إلى البئر حتى أحسست بثقلها فأخذت في رفعها ببطء..

صفيحة كاملة من الماء العذب البارد.. رفعتها بين ذراعي إلى فمي فتدفق الماء مباشرة
إلى أمعائي ووجهي وملابسي.. فأصبحت شرايين كالمضخات.. تسحب الماء سحباً
وحيثما هممت بخفضها مرة أخرى.. ضغطت أمعائي ضغطاً قوياً.. فقدفت بالماء مرة
أخرى إلى الخارج في قىء واحد متصل.. حتى فرغت تماماً.. ورغم تمزق أحشائي إلا
أننى أدليت الصفيحة مرة أخرى.. لأعب الماء عباً.. وأعود مرة أخرى فاتقياً ما شربت..
حتى خارت قواي.. وتداعيت إلى جوار البئر نائماً..

حينما فتحت عيائي.. كانت الشمس تتوسط السماء.. تلقى بلواظها الحارقة على
جسدى المسجى.. وحيداً وسط الصحراء.. فلم يكن حولي ثمة إنسان.. حتى عبد المنعم
وبهجت غادروني.. كانت الصفيحة قابضة إلى جوارى.. والحبل ملقى إلى جوارها..
فأحسست بالظلم الشديد.. نهضت متثاقلاً.. وأدليت الصفيحة.. إلى قاع البئر..
وجذبتها مرة أخرى خلعت زمزميتي من نطاقى أنظفها وأغسلها من آثار البول..
ملأتها.. وبللت غطائها ووضعتها في نطاقى مرة أخرى.. ثم شربت حتى ارتويت..
وسكبت باقى الصفيحة على رأسى أرطبها..

جلست أفكر.. لماذا أنا وحيد هكذا وسط الصحراء.. لماذا تركنى زميلا الطريق
عبد المنعم وبهجت.. ولم يكن الرد عسيرا.. فقد تصورا أننى احتضر.. فتركونى ومضوا

فلا وقت لأحد للنواح أو للمراسم الجنائزية..

وكان وجود الزمزية مليئة بالماء في نطاقى يدرء عنى الخوف من الموت ظلماً لمدة يومين على الأقل في هذا المناخ اللافت.. القاتل.. نهضت أشد خطاى اتجاه الغرب.. وجودى وحيدا في هذا الإتساع والرتابة والتشابه اللانهائى يملؤنى إحساسا بالضال.. والوحشة الشديدة.. لا أراذيا ورغم غوص أقدامى في الرمال مع كل خطوة أعدو عدوا أقرب إلى الهرولة..

كل عدة ساعات أرفع الزمزية إلى شفتى أبللهما بقطرات الماء الثمينة.. وعندما كادت الشمس تميل إلى المغيب.. كان يلوح على الأفق مجموعات كبيرة من الجنود والضباط أكثر كثيرا جدا مما كان موجودا إلى جوار البئر ليلة أمس.. والجميع مشدودون إلى اتجاه الغرب شدا..

وصلت إلى مجموعات الزملاء.. ولم تكن تلك النظرات الشاردة اللامركزة هي السائدة.. بل تحولت إلى نظرات أكثر تحديدا وتركيزا.. يشع منها الأمل.. دسست نفسى وسط مجموعة تتهاشم في جد واهتمام وتساءلت ما الخير؟؟

تطوع أحدهم بشرح سر هذا التحول فقال هناك من يقول إن محافظ سيناء موجود في مكان ما قريب من هنا.. ومعه عدد كبير جدا من البدو وسكان بئر العبد وأن هناك ما يشبه السوق به طعام وشراب.. كما يزعمون.. أنه سوف يساعدنا في الهروب من سيناء عن طريق البحر إلى بورسعيد..

وجدتنى أسير ضمن مجموعة لا أعرفها.. ولا يعرفوننى.. ولا يعرف بعضهم البعض الآخر.. هذا التجمع بطبيعته كالتجمع البللورى الجزئى.. لطرد الوحشة والهواجس..

مع آخر خيوط النهار.. لاحت على الأفق خيام.. خيام كثيرة منخفضة الارتفاع مهترئة يبدو أن الشق الأول من الشائعة كان صحيحا.. فدب في الأمل.. أن يصدق أيضا الشق الثانى..

وجدت نفسى داخل سوق كبيرة ومجتمع إنسانى يعيش وسط الهلاك..

مع صوت نقتقه الدجاج وصياح الديكة تذكرت أننى مازلت حيا.. رغم كل تلك المعاناة مازالت حيا.. وتدفق في قلبي الأمل.. أن أعود إلى أهل.. وبدأت لي صورة أمي حية مجسدة ترنو إلى بعيون مملوءة بالحب والحنان.. أكاد المسها بيدي.. أحسست كأن عضلات وجهي تتحرك.. وكأنى أبتسم..

الجنود والضباط في كل مكان حولي.. مضجعون.. يأكلون.. أو يشربون.. يدخلون أو ينامون نوما عميقا ملء الجفون..

شعرت بالجوع.. ليس ما تعودت عليه من جوع خلال الأسابيع الماضية.. والذي يمكن إسكاته بعصارة الجريد.. أو حبيبات العنب البري.. بل.. جوعا حقيقيا جشعا يطلب الطعام الحقيقي..

توجهت إلى إحدى الخيام.. إلى جوارها أحد البدو المعممين.. في حين جلست على الأرض.. امرأة حبلى أسدلت على وجهها خمارا أسود.. لم يظهر فيها إلا عينا سوداوتان جميلتان.. وعلى قرب منها طفلة صغيرة تلهو.. كانت أسرة وحياة في هذا الخضم القاتل من الموت والتهديد بالموت..

تقدمت إلى الرجل قائلا في رجاء.. جعان.. عاوز أكل..

رمانى الرجل بنظرة عطوفه قائلا.. عسكى وللا ضابط؟؟

ألقيت على نفسى نظره.. سريعة.. كنت أرتدى أثمالا حقيقية.. ظهرت خلالها سيقاننى وأفخاذى.. وذراعى وصدرى.. وملابس الداخلية سوداء كالحة ممزقة.. ملأنى شعورا قاهرا بالخجل.. وكان عجباً أن أخجل.. فالملوتى لا يخجلون..

كنت على حافة الحياة.. ورددت باستيحاء.. ضابط!..

ربت الرجل كتفى في حنان وصدق وأردف.. الحمد لله على السلامة.. شدة وتزول يا حاضرة الضابط.. صمت قليلا وأردف.. يا ترى معاك فلوس؟؟

منذ بدأت المأساة لم يكن للمال معنى.. أو ضرورة.. فلو كان معى أموال قارون لم تكن تجدني نفعاً.. أو تمنع عنى الموت جوعاً.. أو ظمأ.. أو برصاصة.. فلم أسأل هل معى نقود أم لا..

تحسست جيوبى.. ثم رفعت يدي إلى صدرى.. إلى جيب سترتى الصغير.. الوحيد الذى لم أنزعه.. كان مغلقا بواسطة زر كبير.. ولشدة دهشتى كان منتفخا.. فتحتة و دسست أطراف أصابعى وأخرجتها تمسك بأوراق مالية.. تذكرت فجأة أنه مرتبى كاملا.. قدمت يدي إلى الرجل بالأوراق المالية يختار من بينها ما يشاء.. قلبها في يدي وجذب ورقة مالية واحدة من فئة الجنيه..

لا أدرى كيف لم أكتشف وجود تلك الأوراق مسبقا؟؟.. فقطعا كنت لكتها بين أسنانى فهى شىء قد يؤكل.. على أى حال..

اعتذر الرجل قائلا.. أقعد هنا شوية لغاية لما أروح أشتري أكل.. أصل هنا فيه تجار من بئر العبد لوما باعوش حاتنخرب بيوتهم..

جلست إلى جوار الخيمة حيث كان الرجل.. وشىء كالتوم يداعب جفونى.. وشىء كالقلق.. يدفعنى كى أنهض وأسير في اتجاه الغرب!!..

عاد البدوى بعد قليل ومعه فطيرة حقيقية.. مصنوعة من السمن والسكر والدقيق.. وعدة بيضات.. وشاى وسكر.. وسجائر.. وثقاب.. مادا إلى يده بباقي الجنيه!!

تركت يده معلقة.. هاجما على الفطيرة بكلتا يدي أقضم منها قضمات كبيرة.. كان ذلك أول طعام حقيقى يدخل أمعائى منذ عدة أسابيع.. وبالتالى لم أكن أتناول طعاما كما يتناول البشر طعاما.. بل كنت ألتهمه إلتهاما.. دون مضغ..

في لحظات انتهيت من معركة الطعام.. وتركت أمامى ورقة بها أثار السمن وكومة من قشر البيض.. وكان الرجل يعد لنا كوبان من الشاى البدوى الثقيل..

بدأت أميل على جانبي مضجعا مستندا على راحه يدي اليسرى.. ألقي الرجل على نظرة سريعة وقام يتبادل مع زوجته عبارات أمره.. فنهضت حامله طفلتها وخرجت من الخيمة ودارت حولها لتجلس بعيدا متوارية عن الأنظار..

مد إلى الرجل يدا بها كوبا من الشاى.. تناولته شاكرًا.. وجلس القرفصاء قبالتى.. أعطيته سيجارة ورحنا ندخن مع رشقات طويلة من الشاى.. سرى في جسدى شىء كالتيار الكهربائى.. تبعه شىء كالخدر.. وثقلت جفونى.. وشىء كالآلم بدأ إلى مراكز

الإحساس بالمخ ينبأني بأن ساقاي تؤلمانى.. همس الرجل في أذنى أن أدخل إلى خيمته
كى أستريح..

لم أستو على قدمى.. بل زحفت إلى داخل الخيمة.. وعلى سجادة باليه.. رحت في نوم
عميق..

مدة لا يمكن حسابها.. أحسست بيد تهزنى برفق.. فتحت عيناى.. فجائنى صوتا
هامسا.. مش حاتقوم تمشى يا حضرة الضابط.. علشان تروح بورسعيد ٩٩.. قفزت
أحداث الأمس كلها إلى رأسى دفعة واحدة.. ها هى الشائعة الثانية سوف تتحقق هى
الأخرى.. قفزت واقفا.. لكننى تداعيت مرة أخرى.. فقد كانت هناك ألما مبرحة.. في
ساقاي.. وفخذاي.. وأسفل ظهري.. ولم تستطع.. تلك الساقان العجيبتان.. التى
حملتنى في رحلة طويلة.. مرهقة.. أن تحملى مستريحا ٩٩..

تضرعت إلى الرجل قائلا.. مش قادر أقف.. مش قادر.. أنا مصاب... مد الرجل يده
تحت إبطى محاولا معاونتى على الوقوف قائلا:

- .. منصاب إيه.. أنت إمبارح كنت كويس..

فحاولت التماسك.. مستويا واقفا.. أجز قدمى كطفل يحبو.. فكانت الصحراء خارج
الخيمة تموج بالحركة وإن لم تكن هناك أى أضواء تنبعث على الإطلاق..

همس الرجل في أذنى.. لو تعبان.. أروح أشوف ركوبه..

رجوته أن يحاول.. فإننى لن أستطيع المسير خطوة واحدة..

بدأ ركب كبير في المسير اتجاه الشمال.. اتجاه البحر.. بينما ظللت واقفا أنتظر.. عاد
الرجل ومعه آخر الذى إبتدرنى قائلا.. كل الجمال الى عندنا إتأجرت.. مفيش إلا
حمار.. إيه رأيك..

- .. موافق.. إنشاء الله أشتريه.. أنا مش قادر أمشى ولا خطوة..

- ..عشرين جنيه..

كاد صديقى البدوى يمسك بتلابيبه.. لاعنا إياه.. متهمة بالإفتراء والاستغلال.. وإنه
رجل لا يراعى الله.. فالمشوار كله «دعكة فخذ».. إلا أن الرجل أصر على موقفه قائلا..

الحمار يمكن يموت.. لو اليهود طلعوا عليهم وضربوا النار..
 ناولت الرجل عشرون جنيها دسها في جيبه.. ومضى.. وبعد قليل عاد ومعه حمار
 أعجف.. وعصا صغيرة.. وحملني الرجلين حملا ووضعاني مستويا على ظهر الحمار..
 وكانت المرة الأولى في حياتي التي أركب فيها حمار.. وسرعان ما اكتشفت أن قيادته
 أصعب من قيادة طائرة.. والتعامل معه أشد تعقيدا من التعامل مع الشيطان ذاته..
 وتحركت ضمن الركب الكبير الصامت.. الضارع..
 اخترق إذني صوتا كنت أعرفه.. فهتفت بفرح حقيقي.. دسوقي.. إرتجف جسد
 ضخم في الظلام.. ثم هرول ناحيتي صائحا من الأعماق:
 -..حضرة الضابط محمود.. حمدله على السلامة..
 ولم تكن هناك كلمات تقال..لم يكن هناك معنى لأى سؤال.. فكل شيء واضح..
 ونحن في بؤرة المأساة صور مكررة.. في حجم المعاناة.. والسير على خيط الحياة
 الرفيع..
 -..رجليك أخبارها إيه دلوقت يا فندم؟؟..
 -..لغاية إمبراح كنت ماشى مش حاسس بيهم.. كنت ماشى على طول.. ولما
 استرحت.. وأكلت ونمت.. مش قادر أحركهم.. علشان كدة أجرت الحمار ده..
 أمسك الدسوقي بمقود الحمار.. بينما جسدى متصليا متخشبا فوق ظهره الجامد..
 ومع كل حركة منه يمينا ويسارا.. أبذل جهدا جبارا.. حتى لا أسقط من فوق ظهره..
 لم يترك حمارى كومه من الحشائش إلا ويخفض رأسه كى يأكل منها.. ولم تكن
 تجدى معه ضربات دسوقي المتتابة بالعصا.. فلا يتحرك قيد أنمله إلا بعد تحقيق
 رغبته كاملة.. ورغم أننا بدأنا السير في أول الركب.. فإننا وبعد قليل أصبحنا في المؤخرة
 تماما..
 حاول الدسوقي مدهنة الحمار وملاينته بالرتب على عنقه.. كى يقوده.. إلا أنه فشل
 فشلا ذريعا..
 بعد عدة كيلو مترات رأينا مجموعة من الحمير ترجع من حيث أتينا دون راكبيها..
 وما أن وقع بصر حمارنا عليهم حتى تسمر في مكانه.. رافضا السير خطوة..

حاول الدسوقي دفعة بكل قوته إلى الامام.. أو جذبه من المقود.. فكان يحرك جسمة في اتجاه مضاد لدفعات الدسوقي.. ليثبت لنا عمليا أنه لن يتحرك..

وجه الدسوقي إلى رأس الحمار لكمة قوية معلنا:

.. ابن الكلب ده معلمينه يمشى لغاية هنا بس.. ويرجع تانى لوحدة.. مافيش فايده مش حايترك.. ولو قتلناه..

كان حمارا منضبطا ملتزما.. وفيما لأوامر صاحبه.. دون رقابة منه.. ترجلت من فوق ظهره.. وما أن تخلص منى.. حتى دار على عقيبيه يجرى مبرطعا كالجواد..

جررت ساقى وفجأة أصبحنا فوق الطريق المرصوف.. ولم يكن غير الطريق الوحيد الموجود في شمال سيناء العريش - القنطرة..

بلا إتفاق تمثل في رأسينا خطر السير على الطريق.. ركضنا.. ركضا سريعا.. حتى طوتنا رمال الصحراء.. ولم نتوقف عن الركض إلا بعد سماعنا هدير البحر..

سرنا متماسكى الأيدى حتى وصلنا إلى الشاطئ.. فجلسنا متساندى الظهور..

نقطع ملل الانتظار وقلقه بالتدخين المستمر..

مع خيوط الفجر الأولى لحنا زورقا أتيا من بعيد يشق سكون الماء.. نهضت الأجساد المتضجعة على حافة المياه متحفزة.. للقفز إلى البحر.. وللوصول أولا إلى الزورق وما أن بدأت محركات الزورق في الخفوت أخذنا في الدوران البطيء للرسو..

حتى كانت الأجساد تغوص في ماء البحر.. نتسابق للتعلق بحوافه.. وكنت والدسوقي من السباقين وما هى إلا لحظات حتى كان الدسوقي منبطحا على ظهر الزورق.. ومد يده إلى أمسكها.. وأكافح بدورى للاستواء إلى جانبه.. ثوان معدودة.. وكان الزورق مكتظا بالراكبين.. وراحت حركاته تهدر مبتعدا عن الشاطئ.. ومئات من الزملاء يلوحون غاضبين..

وهناك من لا يزال معلقا متشبثا بحافة الزورق.. فخف البحارة إليهم يجذبون أيديهم يساعدهم على الصعود إلى السطح.. وتبرم أحدهم محتجا قائلا:

.. إحنا هنا علشان ننقلكم جزيرة البردويل.. كل اللى هنا حايروح بورسعيد.. بس بالشكل ده.. اللنش حا يغرق..

كان يتكلم بمنطق العقل السليم.. لكنها كلمات ليس لها أية معنى بالنسبة لمن ظفر
بركوب الزورق.. أو من هناك على الشاطئ.. يلوحون بقبضاتهم غاضبين.. فلا شيء
يعنينا الآن إلا الانتقال من جحيم الصحراء.. إلى أى مكان آخر.. حتى ولو كان أعماق
البحر..

بدت لنا على الأفق عدة أكواخ مستوية على شريط أصفر من الأرض..
اقترب الزورق من الشاطئ.. ثم دار في دورة هادئة.. وتوقف فقفزنا مرة أخرى إلى
الشاطئ.. وصاح أحد البحارة مشيراً إلى الأكواخ..

— بعد شوية حاتيجى مراكب صيد تنقلكم على بورسعيد..

شددنا الخطى اتجاه الأكواخ..

عند أحد الأكواخ الكبيرة.. كان هناك طابورا طويلا من زملائنا يقف.. فتساءلنا عن
ذلك الطابور.. فقليل لنا أنهم يوزعون طعاما..

مرة أخرى شعرت بجوع الأمس.. تراجعت حيث وقفت في ذيل الطابور وورائي
الدسوقي.. وانضم خلفنا آخرين.. أصبح الطابور أكثر طولاً.. وبدأ في الحركة الزاحفة
الحثيثة إلى الأمام.. حتى حل دورى.. فمد لى أحدهم يداً بها رغيف وقطعة من الجبن
وخيارة خضراء يانعة..

جلسنا في ظل مركب صيد صغيرة نتناول الطعام.. كانت كمية.. لا تكفى لإسكات
أنين معدة متمرمة.. تبادلت مع الدسوقي نظرة.. قد تكون باسمه.. ونهضنا نقف مرة
أخرى في ذيل الطابور.. وبعد مدة طويلة.. حان دورى.. ومد الرجل يده بالرغيف
والجبن والخيارة ناظراً إلى وجهى.. ثم أعادها مرة أخرى زاجراً إياي قائلاً:

—..إنت لسه واخذ من شوية.. يا أخى غور وخلي عندكم دم!!!

شعورا قاسيا بالمرارة والمهانة.. ودرت خارجا من الصف.. أتصيب عرقا.. وكلمات
الرجل تلاحقنى كالخناجر.. وسرعان ما كرر نفس الألفاظ مرة أخرى إلى الدسوقي..

سرنا بعيدا عن الكوخ والمجموعة الكبيرة من الزملاء.. وانتحينا ركنا جانبيا بين
المراكب الصغيرة والأكواخ المتهالكة.. وبين المراكب كان هناك أحد الزوارق الآلية
الجديدة تماما.. وقد قبع فوقه اثنان من البحارة ذوى ملابس نظيفة يعدون العدة

لتناول الطعام..

ما أن اقتربنا منهم حتى إكفهرت وجوههم.. عابسين.. ألقينا عليهم التحية.. فرد علينا أحدهم عابسا قائلا:

- ..لو سمحتم إبعدوا من هنا.. لما تيجى المراكب إبقوا تعالوا تانى..

- ..طيب يا أخى رد السلام..

- ..أرد السلام.. تقوموا تيجوا تقعدوا.. وبعدين تأكلوا أكلنا زى المساريع وإحنا مانلاقيش أكل.. وورانا شغل..

رد الدسوقي محتجا.. إحنا واكلىن والحمدلله.... وحضره الضابط بيدور على حطة ظل يقعد فيها.. أصلة ياريس منصاب..

بدأ البحارة يتطلعون إلى شىء على كنفى كالج باهت لا لون له ولا معالم.. كالنجوم.. الخيطية التى توضع على الأفروات.. ظهر الاهتمام على وجوههم قائلين معا:

- ..منصاب.. أقعد!.. أقعد يا حضرة الضابط استريح..

مد كل واحد منهم يده إلى والدسوقي لركوب زورقهم الظليل.. ورحنا نتبادل التعارف.. وكانوا بحارة من بورسعيد خلال لهجتهم المعروفة المرحاة الصادقة.. وأصروا إصرارا كاملا.. أن نشاركهم طعامهم.. المكون من السمك المملح.. والخبز والبصل الأخضر.. تناولت عدة لقيمات.. فشعرت بالعطش فسألتهم على استحياء إن كان معهم قليلا من الماء..

رفع أحدهم قطعة من القماش لاح تحتها قلة.. مدها إلى قائلا:

- ..أشرب.. أشرب يا حضرة الضابط.. دى ميه النيل..

تبادلت مع الدسوقي نظرة طويلة صامته.. إنسابت على أثرها دموعنا.. لقد عرفت الدموع طريقها إلى عيوننا أخيرا بعد أسابيع من جفاف ينابيع الإحساس والتأثر.. والحزن.. والألم.. رفعت القلة إلى فمى أشرب من ماء النيل.. فسرى فى وجدانى إحساس متزايد بالقرب من الأهل والأصدقاء.. فكلنا الآن نشرب من نبع واحد.. من ماء النيل..

على أفق البحر الأزرق.. لاحت أشرع مراكب بيضاء كالأمواج..

هتف أحد البحارة مشيرا إليها قائلا:

– ..دى المراكب الى حاتوصلكم بورسعيد.. بعد ساعتين زمن بإذن الله توصلوا
الميناء..

فى حين بدأ الآخر يرفع يده مشيرا إلى جموع الجنود يدعوهم إليه للركوب.. قائلا:
– ..يا لله يا رجاله.. عشرة.. عشرة..

وسرعان ما بدأ الجنود يركضون إلينا.. وقف البحاران مواجهين الجنود فى حسم
قائلين:

– ..القارب ببشيل عشرة.. الزحمة.. حاتغرقه.. عاوز ثمانية بس.. يالله.. أصبح
هناك شعورا عاما.. بالأمان النسبى.. جعل الجنود يطيعون صوت المنطق.. حيث تقبلوا
قفز أقرب ثمانية منهم إلى القارب.. وتراجع الباقيون..

هدر محرك الزورق السريع.. وتحرك بعيدا عن الشاطئ صوب عرض البحر حيث
مركب الصيد الكبيرة ذات الشراع تقف (كالرخ) الأسطوري لخطف مئآت البشر من
برائن الموت.. امتدت سواعد سمراء من فوق سطح المركب تساعدنا على الصعود..
قفزنا إلى المركب.. أجلسونى والدسوقى فوق سطح كابينة القيادة.. استند على
الحبال القوية.. التى تشد الشراع..

أصبحت المركب كالأرجوحة.. صاعدة هابطة.. متميله.. مع موجات البحر.. فتملك
الدوار جميع الركابين الجدد.. وأصبح صوت القىء المستمر المنبعث من هنا وهناك هو
الصوت الأكثر انتشارا على سطح المركب..

ورغم شعورى بالأمان.. الذى يفرض نفسه على فرضا.. إلا أن القلق قد تحول فى
أعماقى إلى ما يشبه المرض.. كيف ياترى تركنا اليهود نتكس بالمئات.. ونعبر الطريق
ونجتمع مرة أخرى فى جزيرة البردويل.. ثم فى عرض البحر دون أن يحاولوا قتلنا؟؟..
هل نجحنا فى خداعهم؟؟.. كيف.. لابد أنهم رأونا.. فلم ياترى تركونا نفلت من بين
أصابعهم.. هنا.. وهنا بالذات.. ولم يفعلوها فى العريش.. حيث كانوا يقتلون من يحاول
الفرار.. وكأنهم يدفعوننا دفعا إلى رحلة الصحراء القاسية!!.. ثم بعد ذلك يسمعون لنا
بالهروب الفزع!!!!..

كان الزورق جم النشاط.. سريعا امتلأت المركب بالبشر.. فرفع بحارتها مرساتها..
وبدأت تشق سطح الماء بسرعة كبيرة..

الإحساس قاهر بالترقب والانتظار.. انتظار أن نصل إلى الوطن؟؟.. بورسعيد..
وانتظار أن تأتي إلينا طائرة ترسلنا إلى أعماق البحر..
عيني أصبحت آله لتقدير المسافة في كل وقت ما بين الشاطئ والمركب.. لاطمئن
نفسى هل يمكننى السباحة حتى الشاطئ.. ومعاودة المسير.. غريبا.. إذا ما ضربت
المركب...
لكن سرعان ما احتوى عرض البحر المركب كلها.. واختفى الشاطئ تماما.. تعالت
أصوات من أرجاء المركب هادره فرحه...
-.. طيور البحر أهى.. وصلنا بورسعيد.. وصلنا بورسعيد.. أرسلت بصرى إلى
الأفق الغربى.. كانت هناك أسرابا لامعه.. فضية ازدت إنكماشاً.. كنت أراها طائرات
جاءت ترسلنا إلى أعماق البحر.. لكننى الدسوقي فرحا قائلاً:
-.. بورسعيد يافندم.. بورسعيد.. إحنا وصلنا..
نظرت مرة أخرى.. لأرى مأذن المساجد.. وأسطح المبانى..
مع كل لحظة اقتراب من الميناء.. أحس بأن هناك تحولاً.. يحدث فى نفسى.. يقترب
بى رويدا رويدا إلى صورة الإنسان..
رست المركب على الرصيف.. وهناك.. عشرات ينتظروننا.. نساء فى ملابس بيضاء
وضعن على أذرعتهن شرائط بيضاء يتوسطهما هلالاً أحمر.. وبضعه ضباط يلبسون
الأقرولات.. النظيفة.. المنشاه..
أود أن أقذف بنفسى إلى مياه القناة.. أو أجتو على ركبتى أقبل تراب الأرض.. التى لم
أكن أحلم بأننى سوف أراها مرة أخرى..
لكن إحساسا بلا إنتماء إلى الواقع عاد يملكنى.. فلا يمكن حقيقة أن يكون ذلك
الشريط المفزع الذى يدور فى رأسى قد قمت به أنا فى الأيام السابقة.. ممثلاً فعليا على
رمال مسرح عمليات سيناء.. لا بد أننى كنت أشاهد آخر يشبهنى تماما فى تمثيل هذا
الدور غير المعقول.. وبدأت مرة أخرى أغوص فى دور المتفرج من جديد.. هبطت إلى
الأرض.. وها هم بشر يرتدون الثياب النظيفة.. بطونهم مليئة بالطعام والشراب..
وأنا ما دخلت إلى عالم الأدميين الأحياء إلا منذ ساعات قليلة.. قد واجهت معركة
ضارية ضد النفس أقهرها.. وضد الطبيعة تسحقنى.. صابرا.. حتى لا أموت وتأكلنى

الغربان.. هناك إلى جوار فيصل جثة بلا حياة.. فلم أكن في حالة تسمح لى بالكلام.. أو الرد على سؤال..

إنبعث صوت مذياع صائحا..... عبر الأثير..

البتروىل يدخل المعركة.. ثم.. صوت موسيقى وبعضهم يرفع عقيرته بالغناء:-

- ..البتروىل يا عربى فى يدك ملكك ملكك وحدىك..

أحاط بنا جمع كبير.. كل منهم يسأل عن ابن غائب.. أو زوج لم يعود.. أو كيف وصلنا إلى هنا ومن أين جئنا.. وأين كنا يوم قامت الحرب..

لا أدرى ماذا كانت ردود زملاء الشقاء.. فكلنا عشنا نفس الظروف.. وكلنا واجه معركة غير مفهومة.. وكلنا عائد من رحلة الموت بدون مقابل.. ولم يكن لأحد منا فضل على جسده فى إبقاؤه حيا.. لم يعيش منا الشجاع فقط أو الجبان.. ولم يمت هناك كل بطل صنديدا!!! شئ أمام الميناء كالحصار.. أخرجونا من خلاله إلى سيارات أتوبيس مسدلة الستائر بعد سير قليل وقفت وراء بعضها البعض أمام مبنى كبير.. قيل أننا داخل مبنى الاتحاد الاشتراكى.. طالعتنى صورة الرئيس.. تمثال كبير فى مواجهة المدخل..

توقفت أمامه طويلا.. ولم تكن تلك هى الصورة التى تركتها منذ شهر..

فى أحد الأركان وقفت سيدة وقور تلف رأسها بطرحة.. كأمى تماما.. وإلى جوارها فتاة خجل.. اقتربن منى على إستحياء.. يسألننى عن ابنهم الضابط الصغير الغائب.. ولم أكن أدرى ماذا أقول لهم.. غير الأسف..

ظهر الانهزام على وجه المرأة.. فتحت حقيبة يدها ومدت يدا تحمل علبة سجائر قائلة:

- ..كنت جايياها علشان ابنى.. وأدام لسه ما جاش.. خذها أنت.. زى ابنى برضه.. تناولت السجائر من السيدة.. التى راحت تتطلع إلى الوجوه الشاحبة.. عسى أن تشاهد الغائب.. العزيز..

أدركت للسيدة ظهرى.. وسرت مبتعدا مقهورا ذبيحا.. لابد أن أمى الآن فى مكان ما.. تبحث عنى بين آلاف الوجوه..

تعالت صيحات تعلن وصول الأتوبيسات كى تنقلنا إلى القطار الحربى المتجه إلى

القاهرة.. عدت القهقري وإلى جانبي الدسوقي إلى الباب.. حيث كان هناك زحاما من الجنود الزملاء.. يمنعهم من الخروج عملاقان من الشرطة العسكرية..
وسرعان ما نشب عراك أثر مشادة حامية الوطيس بين أحد الضباط العائدين وزملاء المؤسسة من الجنود في جانب.. وضابط وجنود الشرطة العسكرية في الجانب الآخر..

فقد حاول الضابط الخروج ومعه حشد من الجنود.. عبر العملاقين فنهره.. ضابط الشرطة العسكرية قائلاً.. إن القطار الآن كامل العدد.. وممنوع الخروج..
فرد عليه الآخر قائلاً.. مش مهم.. حانركب على الشبايك أو على السطح..
نظر إليه ضابط الشرطة شذرا قائلاً.. أنا هنا علشان أدى أوامر..
رد عليه الآخر حانقه.. إنت هنا علشان تخرس وبس..
أمسكه من تلايبه قائلاً.. أنا مش حاسييك.. أنا حاحاكمك..
وقبض الآخر على عنقه صائحا.. حاكمنى يا حيوان..
وقد أخطأ ضابط الشرطة العسكرية.. خطأ.. فادحا حينما صاح حانقا:

– مش كفاية إنكم سبتم سلاحكم وجريتوا.. كمان مش عاوزين تسمعوا الكلام..
تحول الجنود والضباط رثى الثياب إلى حيوانات جريحة.. مظلومة.. فسرعان ما طرح العملاقين أرضاً.. وإلى جوارهم ضابطهم وراحوا يوسعونهم ضرباً مبرحاً وركلا.. إنسلت من الباب وإلى جوارى الدسوقي.. ورحنا نتجول في أنحاء المدينة..
نسأل عن محطة السكة الحديد.. فأشاروا لنا على مبنى كبير يطل على ميدان واسع..
على الرصيف القطار الحربى.. سألنا عن موعد قيامه.. قيل بعد ساعة ونصف جلسنا على بوفيه المحطة.. نشرب في تلىذ ومتعة مثلجات مخلوطة بنيكوتين السجائر.. ولم يشعر أى منا برغبة في الطعام.. فقط نشرب.. ونشرب.. ونشرب.. وتوجهنا إلى القطار.. واستطعنا اقتناص كرسيان وثيران..

سار القطار.. بالقرب من القناة.. وهناك على الضفة الأخرى.. يرتفع علم إسرائيل..
ذى النجمة السداسية.. فرحت في نوم عميق..

مع توقف القطار.. صحت.. حيث انتشر الضوء يملا الدنيا.. نظرت عبر الشباك كانت هناك عدة سيارات أتوبيس.. وعدة لوارى على مسافة ليست بالبعيدة.. ثمة تكتات

عسكرية..

وشىء كمكبر الصوت يدعونا إلى الهبوط من القطار..
هبطت والدسوقي متماسكى الأيدى.. وفوق أحد اللوريات وقف ضابطاً بيده مكبر
صوت.. يحدثنا على الانفصال.. جنوداً وصف ضباط في ناحية.. وضباطاً في ناحية
أخرى.. ترك الدسوقي يدي مبتعداً عنى..
توجهت مع بعض الزملاء إلى الاتوبيسات.. ركبناها.. اتجهت بنا بسرعة مسدلة
الستائر إلى مبنى الكلية الحربية بالقاهرة.. ولم يكن هناك حديثاً جانبياً يدور فقط
صمت.. صمت مطبق..

توقفت الاتوبيسات في الفناء الكبير.. في أرض الطابور.. التى تعلمنا فيها أول خطوة
على درب الجندية نزلنا.. سرنا حتى ميس الضباط..
في الميس كانت هناك عدة تليفونات بدأ الزملاء يصرخون فيها.. كل يحدث ذوبه.. أنه
قد عاد.. قمت أنا بدورى.. اتصل.. برقم التليفون الوحيد الذى لازلت أتذكره.. رقم
تليفون سحر.. الخط مشغولاً دائماً فتركت الرقم مع أحد الجنود راجياً إياه أن يتصل
به ويخبرهم بأن محمود مختار قد عاد وعما قليل سيصل إلى الدار..
كنا نجلس صامتين.. وفجأة إرتج المكان بصوت أزيز طائرة.. قفز كل منا لا
شعورياً لينبطح على الأرض.. واضعاً رأسه بين ذراعيه.. مزق الصمت صوتاً يصرخ
فيينا:

.. انتباه حضرات الضباط..

انتبهنا مندهشين.. وعدنا نجلس مرة أخرى استطراد نفس الصوت قائلاً:
.. إيه.. أعصابكم خلاص اتهزت وللإيه.. أنتم نسيتم أننا جنب المطار؟؟ حته طيارة
مدنية صوتها ينزلكم تحت الكراسى.. والله عيب..
رفعنا رؤوسنا إلى المتكلم صامتين في انكسار.. كان ضابطاً برتبة عقيد.. لكنه مطلقاً
لم يكن يشبه أحد منا.. فقد كان حليق الذقن.. مهندم الثياب.. يشع محياه صحة
ونضارة..

أصدر لنا أمراً بالتوجه إلى الاتوبيسات كل حسب سلاحه.. للتوجه إلى قيادات
الأسلحة.. لتلقى الأوامر؟؟..

توجهنا إلى الأتوبيسات.. حيث كان هناك أحد المساعدين ينادى:
 .. المشاه الأتوبيس ده.. المدرعات الأتوبيس ده.. الـ... وتوجهت إلى أتوبيس ضباط
 المدفعية.. جلسنا مجموعة لا تتجاوز السبعة ضباط كلنا متشابهى السحن.. والملبس
 الممزق.. والذقون الطويلة.. والجلود العجفاء.. جحظت منا العيون ولاحت جماجمنا..
 تحت طبقة من الجلد الرقيق.. كانت يوماً.. ما.. شحماً ولحماً..
 بعد قليل كنا نقف في مكتب قائد السلاح.. الذى ابتدرنا قائلاً:
 ... حمد لله على السلامة.. وأرجو أن تكونوا قد استمتعتم!! برحلة طيبة!! المهم لازم
 تعرفوا إنه مفيش وقت.. للحزن.. والدلع!! العدو بيهدد يعبر القناة ويوصل القاهرة..
 طبعاً ده مش معقول.. وماحدث يقبل كده.. عاوز يعدى.. يعدى.. بس على جثتنا كلنا..
 كل واحد منكم دلوقت يكون موجود هنا بكرة الصبح.. علشان يعرف وحدته فين
 ويروح لها.. الجيش عاوزكم.. والبلد محتاجكم.. والقيادة كلها ثقة فيكم!!..
 إنبريت أقاطع سيادته قائلاً:
 -.. بس زمايلنا لسة في الصحرا.. بيموتوا.. لازم نعمل لهم حاجة..
 -.. ده مش شغلك.. زى ماعرفت إنت تتصرف.. هما كمان حايعرفوا يتصرفوا أظن
 واضح.. كل واحد في حاله.. مالوش دعوة بحاجة.. ومالوش دعوة بحد.. دلوقت بقى..
 اتفضلوا..
 رفع أحد الزملاء يده متمللاً قائلاً:
 -.. لازم يافندم نساfer لأهالينا.. بكرة الصبح مش ممكن نلحق نرجع من السفر..
 عاوزين فرصة.. نشوف أهالينا.. ونشترى لوازمنا.. ونرجع..
 ارتفع صوتاً آخر مؤيداً قائلاً:-
 -.. كائننا مارجعناش.. أو متنا.. يعنى هو إحنا أحسن من اللى ماتوا؟؟.. يومين
 ثلاثة.. الواحد ياخذ نفسه..
 اردف القائد قائلاً ليقطع المزيد من الاعتراضات:
 -.. خلاص.. وليكن ٤٨ ساعة.. وده أقصى ما في سلطتى.. واضح.. كان أمراً قاطعاً
 لا يحتمل أى نقاش.. ورغم ذلك رفع آخر يده قائلاً:
 -.. مامعناش فلوس.. علشان تكاليف السفر.. عاوزين سلفة وللا حاجة علشان

نجهز نفسنا.. وعربية توصلنا لاهالينا..
 كان ترجمة ذلك الطلب العادى جداً.. المنطقى جداً.. الإنسانى جداً.. على وجه قائد
 المدفعية.. عبارة عن قطرات من العرق.. وإحمرار فى الوجه.. فرد أسفاً:-
 -.. والله مفيش إمكانيات عندى.. علشان كده.. وأقصى مايمكن عمله.. إننا نديلكم
 تذاكر سفر ذهاب وإياب مجانية لغاية اى حته عاوزنها.. والأتوبيس يوصلكم لغاية
 محطة مصر..
 كان منزلى قريباً..

فخرجت من معسكر القيادة أشد خطاى إلى الطريق..
 فكان الناس ينظرون إلى شذراً.. نظرات الاتهام توجه إلى من كل مكان.. والنكات
 الساخرة تصك أذنى..
 رحت أتوارى خجلاً من أسمالي البالية.. وأغوص مرة أخرى فى إحساس الحلم
 اللامتمى إلى الواقع..
 فى حين انبعث صوت مذياع ينشد الأغاني الحماسية التى تحرض الناس على
 القتال!!

وبائع يصيح مناوياً على بضاعته من آخر الأخبار..
 وسرعان ما ذبت فى الخضم أحاول جمع شتات نفسى المبعثرة.. لأحاول أن أجد
 إجابة عن سؤالى.. وماذا بعد..

تم الظل الأول

رقم الإيداع ٩٨ / ٣١٩١

الترقيم الدولي I.S.B.N

977 - 19 - 5430- X

التجهيزات الفنية

الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع

ت: ٣٩٢٧٣٦١

الإخراج الفني

صبرى عبد الحميد صادق

هذا الكتاب

لم يكتب بمداد.. بل بدم القلب.. المخلوط بالدمع والألم..
كذب من قال إن جنود مصر هزموا في حرب ٥ يونيو ٦٧.. فهؤلاء الجنود لم
يحاربوا تلك الحرب.. لم تكن حرب ٦٧ خربا بالمعنى الحرفي للكلمة.. كانت
مجزرة.. ومذبحة.. مروعة.. فيها ظهر المعدن الحقيقي لجنود إسرائيل..
الوحشية.. والهمجية.. غير المبررة.. فما معنى أن يقوم جنود جيش منتصر!!..
بإرقاد الأسرى والسير عليهم بالدبابات..
ومامعنى أن يذيع راديو العدو نداءً يعطى الأمان للأسرى.. فيصدق البعض
النداء لتطلق عليه النيران وهو أعزل..
هذا الكتاب تجربة حزينة لمشارك فيها.. جندي من السفح يتكلم من قلب
المعركة الماساة.. بعيداً عن فلسفات المتفلسفين.. وتبريرات.. المبررين.. فكل
شئ بداية.. ونهاية.. وتداعيات بداية يونيو ٦٧.. كانت ولا بد تؤدي إلى النهاية
المروعة..

المؤلف

صبحى محمد عبد الله البيطار